د. عبدالله سعيد الجعيدي

السلطنة الكثيرية
الأولى في حضرموت

٨١٤ - ١١٤٣هـ / ١٤١١ - ١٧٣٠م



رقم الايداع الهيئة العامة للكتاب حضرموت (٢٠١) ٢٠١٣م
العنوان السلطنة الكثيرية الاولى في حضرموت
٨١٤-١١٤٣هـ/ ١٤١١-١٧٣٠م
المؤلف د عبدالله سعيد سليمان بن جسار الجعيدي
الطبعة الاولى
سنة النشر ٢٠١٤م - ١٤٣٥هـ
المقاس ١٧×٢٤سم
الاخراج الفني حسن احمد بلجعد

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع
والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع
والحاسوبي وغيرها إلا بإذن خطي

تريم للدراسات والنشر

تريم حضرموت - الجمهورية اليمنية
ت: ٤١٨٨٨٨ ٧٣٦٠٠٦٧٣٠
www.tareemcenter.org

توزيع
المكتبة الحضرمية
تريم حضرموت – الجمهورية اليمنية
ت: ٧٧٧٩٠٩٩١٩
Email: admin@tareemcenter.org

السلطنة الكثيرية الأولى في حضرموت

(٨١٤ - ١١٤٣هـ / ١٤١١ - ١٧٣٠م)

د. عبد الله سعيد الجعيدي

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

سورة آل عمران آية ٢٦

الإهداء :

إلى أهلي في حضرموت

وإلى كل من أحب

حضرموت وأهلها

توطئة

أصل هذا الكتاب أطروحة علمية تقدم بها المؤلف إلى مجلس كلية التربية (ابن رشد) جامعة بغداد عام ٢٠٠٣م، وهي جزء من متطلبات نيل درجة الدكتوراه فلسفة في التاريخ الحديث بإشراف الأستاذ الدكتور جعفر عباس حميدي. وكان المشرف الأول على هذه الأطروحة في بداية خطواتها هو الأستاذ الدكتور طارق نافع الحمداني ، ولا يسعني هنا إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى هذين الأستاذين الجليلين وإلى كل أساتذتي الأفاضل في السنة التحضيرية الذين نهلت من علمهم الواسع ، وتشبعت من أخلاقهم الرفيعة.

كما أتقدم بالشكر لكل من قدم لي مساعدة علمية وهم كثر وأخص بالذكر السيد علي أبو بكر بلفقيه صاحب مكتبة تريم الحديثة ، والأستاذ عبدالله عمر السكوتي مدير المكتبة السلطانية بالمكلا ، والشيخ علي سالم بكيّر أمين مكتبة الأحقاف للمخطوطات بمدينة تريم والأستاذ عبدالرحمن بن حسن السقاف مدير عام الهيئة العامة للمتاحف والوثائق والمخطوطات بمدينة سيئون ، والشكر موصول للدكتور سعيد سالم الجريري ، والدكتور جمال رمضان حديجان اللذين أسهما في التدقيق اللغوي لهذا الكتاب.وإلى الأخ العزيز عبدالرحمن علي بلفقيه المدير العام لمركز تريم للدراسات والنشر. وإلى جامعة حضرموت التي هيأت لي فرصة الدراسة الجامعية العليا في جمهورية العراق الشقيقة.

المقدمة

نطاق البحث وتحليل المصادر:

تتناول هذه الدراسة تاريخ السلطنة الكثيرية الأولى في حضرموت من حيث نشوؤها وعلاقاتها الداخلية و الخارجية حتى انحسارها . ورغم الامتداد الزمني الطويل لفترة الدراسة والذي يمتد قرابه ثلاثة قرون ، فإن خصوصية موضوع الدراسة ذي الطابع المحلي يجعل من الضرورة بمكان تتبع تطور السلطنة الكثيرية حتى نهايتها مروراً بكل المنعطفات التي واجهتها ، حفاظاً على وحدة الموضوع من جهة ولإعطاء صورة واضحة عن ملامح التطورات السياسية للسلطنة الكثيرية من جهة أخرى .

وكان طبيعياً أن تركز هذه الدراسة على الجانب السياسي بوصفه الركيزة التي يستوجب استيفاؤها قبل دراسة النواحي الاقتصادية و الاجتماعية رغم أهميتها ، فضلاً عن أن السلطنة الكثيرية لم يفرد لها على حد علمنا دراسة علمية مستقلة وإنما يرد الحديث عنها في ثنايا استعراض المؤلفات لتاريخ المنطقة العام ، لهذا ظلت نواحٍ عديدة من تاريخ حضرموت الحديث بحاجة إلى مزيد من الإثراء والتمحيص. وتأمل هذه الدراسة المساهمة في توضيح حقائق ووقائع تعد شبه مجهولة في تاريخ حضرموت ، ومن جانب آخر تأمل في توجيه أنظار الباحثين إلى دارسة النواحي الاجتماعية والاقتصادية والحضارية من تاريخها.

لم يكن ظهور السلطنة الكثيرية حدثاً غريباً على صعيد التاريخ المحلي لمنطقة حضرموت ، فقد سبق قيامها ظهور عدد من الكيانات السياسية الصغيرة المستقلة في أهم المدن الحضرمية كالشحر وتريم وشبام ، وهي كيانات كانت أقرب ما تكون إلى دويلات المدن ولكنها كانت ضرورية في التطور السياسي لحقتها محاولات فاشلة لتوحيد حضرموت من قبل قوى حضرمية كقبيلة نهد وسلطنة آل اليماني في تريم . وتكمن الأهمية التاريخية للسلطنة الكثيرية في أنها تمكنت من توحيد أجزاء واسعة من حضرموت تحت سلطة واحدة ، كما ربطت مناطق الساحل الحضرمي بداخله ، وكان واقع حضرموت السياسي في معظم مراحله التاريخية هو واقع التجزئة القبلية والحروب.

وعلى الصعيد الدولي شهدت السلطنة الكثيرية في أهم فترات قوتها أخطر المراحل التي مر بها العالم العربي والإسلامي فقد شهدت المنطقة في بداية القرن السادس عشر الميلادي أحداثاً جساماً وانقلابات سياسية واجتماعية على جانب كبير من الأهمية كانت لها تبعات خطيرة شملت كل الميادين وأثرت كثيراً في تاريخ المنطقة اللاحق وبقي بعضها قائماً إلى يومنا هذا . فقد انتقلت الحروب البرتغالية الاستعمارية إلى منطقة المحيط الهندي بعد حركة الكشوف الجغرافية وفتح ذلك ميداناً جديداً لبقايا الصراع الصليبي ، ثم نتج عن ذلك امتداد سلطة الدول الإسلامية الكبيرة وقتذاك إلى المنطقة اليمنية بحجة التصدي لهذا الغزو . فعاصرت السلطنة الكثيرية هذه المتغيرات وقد حاولنا في هذه الدراسة ربط السلطنة الكثيرية بتلك الأحداث وتوضيح مؤثراتها .

ولم يكن الأمر سهلاً عندما بدأ البحث ؛ إذ برزت أمامي عدة صعوبات منها ما يتعلق بالمصادر وهي الأهم ، ومنها ما يتعلق بالموضوع نفسه وما يكتنفه من قلة المعلومات في بعض النواحي وغموضها واضطرابها في نواحٍ أخرى ، كما إن تزاحم بعض الأحداث وتلاحقاتها وتداخلاتها جعلتني أشعر بالقلق أحياناً من القدرة على الإحاطة و الإمساك بكل أطراف الصراع و إظهار العلاقة فيما بينها لاسيما إذا قرنّا ذلك بشحة المصادر . ولأن فترة الدراسة تمتد لأكثر من ثلاثة قرون وتناولت فترة حكم عدد من السلاطين الكثيريين وعلاقاتهم بالقوى المحلية والأجنبية، فقد تطلب ذلك معالجة الموضوع بمنهج خاص، لهذا تم تقسيم الدراسة إلى أجزاء شمل كل منها مرحلة معينة لدراستها بتركيز مع المحافظة على الارتباط العضوي للموضوع والتسلسل الزمني للأحداث لنتمكن من رسم خط تاريخي يربط أجزاء هذه الدراسة. وقد قسمت هذه الدراسة على تمهيد وأربعة فصول . حوى التمهيد محوراً استعرضنا فيه التطورات التاريخية في حضرموت من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ، إلى ما قبل بداية فترة الدراسة .

أما الفصل الأول فقد تطرقنا فيه للبدايات الأولى لآل كثير في حضرموت ونشاطاتهم السياسية المبكرة حتى قيام السلطنة ودور السلطان علي بن عمر الكثيري في ذلك ، كما

تناولنا بالتفصيل علاقة السلطنة بالقوى المحلية المنافسة لها ، وكذا القوى المحيطة بحضرموت ومنها الدولة الطاهرية في عدن.

وتناول الفصل الثاني نشاطات السلطان بدر بوطويرق الحربية وجهوده في تعزيز وبناء السلطنة الكثيرية ، ويعد هذا السلطان أبرز السلاطين الكثيريين وأهمهم ؛ إذ بلغت السلطنة في عهده أوج اتساعها لهذا أفردنا له فصلاً كاملاً .

وأما الفصل الثالث فقد تضمن علاقات السلطنة الكثيرية بالقوى الدولية القائمة وقتذاك وهما البرتغال والدولة العثمانية ، وفيه تطرقنا إلى الأعمال البحرية البرتغالية على السواحل العربية الجنوبية لاسيما الحضرمية وموقف السلطنة الكثيرية إزاءها ثم تتبعنا البدايات الأولى للوجود العثماني في اليمن والعلاقة الخاصة التي ربطت السلطنة بالدولة العثمانية وموقف السلطنة من حركة المقاومة اليمنية من الاحتلال العثماني .

وفي الفصل الرابع ، الأخير، أشرنا إلى التحديات و المخاطر التي واجهتها السلطنة ومن أهمها ازدياد الصراع الأسري الكثيري على الحكم وما نتج عنه من تدخل القوى اليمنية في شؤون السلطنة مثل الدولة القاسمية اليمنية و القبائل اليافعية و التي أدت في النهاية إلى ضعف السلطنة الكثيرية تدريجياً ثم انحسارها على يد القبائل اليافعية .

تحليل المصادر والمراجع :

درج الكثير من المؤرخين المعاصرين على ترديد القول بصعوبة كتابة تاريخ حضرموت بمراحله المختلفة وذلك لقلة المصادر والغموض والاضطراب الذين يكتنفها ، وتعترض دارس التاريخ الحضرمي فضلاً عن ذلك ، عقبات أخرى تتركز كما حددها باوزير ((في صعوبة انتقاء الحقائق التاريخية بين أكداس من المعلومات لا تدعو إلى الاطمئنان وكتبت تحت مؤثرات عاطفية أو عنصرية أو مذهبية أو سجلت عن سذاجة وحسن نية))[1] كما أن قسماً من هذه المصادر لم يؤلف في الأصل لغرض التدوين التاريخي وإنما وضع لمقاصد أخرى كتراجم الرجال البارزين والعلماء و الصالحين.

إن هذا التناول للمصادر معنيٌ أكثر ، بدراسة أهم المصادر الحضرمية[2] التي اعتمدناها في هذه الدراسة وتحليلها ، وتتركز هذه المصادر في بعض الوثائق وكتب الحوليات و التراجم المخطوطة والمحققة.

أ)- الوثائق :

عند زيارتنا مبنى فرع الهيئة العامة للآثار و المتاحف و المخطوطات في مدينة سيئون بمحافظة حضرموت اطلعنا على الأرشيف الخاص بالسلطنة الكثيرية ، وهناك أصبنا بخيبة أمل كبيرة ؛ إذ لم نعثر إلا على وثيقة يتيمة يعود تاريخها إلى سنة (١٠٧٦هـ /١٦٦٥م) وهي عبارة عن اتفاقية لتنصيب زعيم ديني في بلدة بور وسط وادي حضرموت ، في حين وجدنا وثائق لا بأس بها يعود تاريخها إلى السلطنة الكثيرية الثانية (١٨٤٥- ١٩٦٧م) . ويمكن أن نعزو ضياع وثائق السلطنة الكثيرية الأولى إلى ظروف التجزئة التي شهدتها حضرموت و الحروب المتوالية التي عانت منها ، وطبيعة ذلك العصر الذي لا تُولَى فيه مسألة التوثيق أهمية تذكر . ولعل أهم هذه الأسباب جميعاً هو انهيار السلطنة الكثيرية الأولى وامتداد الفاصل الزمني إلى أكثر من قرن من الزمان بين انهيار السلطنة الأولى وقيام الثانية.

وقد احتفظت بعض كتب الحوليات و التراجم اليمنية (وهذا من حسن الحظ) بجانب ضئيل من مراسلات السلطنة الكثيرية الأولى وأهم هذه المؤلفات مخطوطة (تحفة الأسماع والأبصار لما في السيرة المتوكلية من عجائب الأخبار) ، للجرموزي ، فقد حفلت هذه المخطوطة بالعديد من الرسائل المتبادلة بين السلطان بدر بن عبد الله الكثيري و الإمام المتوكل على الله إسماعيل الأمر الذي جعل المخطوطة أشبه بأرشيف وثائقي .

كما احتلت (مكاتبات السيد عبد الله بن علوي الحداد) [٣] (ت ١١٣٢هـ/١٧١٩م) أهمية تاريخية خاصة ، وهي عبارة عن ردود وإجابات في شكل رسائل وجهت إليه من قبل بعض معاصريه ، وتركز موضوع الإجابات حول المسائل الفقهية و الصوفية والشخصية وهذا نوع من الرسائل غالباً ما يكون شحيحاً في مادته التاريخية . على أن أهم رسائل هذه المكاتبات هي تلك التي وجهها إلى السلاطين الكثيريين المعاصرين له ، ورغم محدودية هذه الرسائل فإنها تعد بحق سجلاً وثائقياً مهماً صورت الحياة الاجتماعية في حضرموت ، وأوضحت جوانب كثيرة من تاريخها في عصره . وقد أسهم الحس الوثائقي عند الحداد في حفظ هذه الرسائل وقد لمسنا ذلك من خلال حثه لبعض الأفراد بحفظ ما يرد منه من رسائل .[٤]

كما يبدو لنا أن الحداد كان يملي رسائله على نسختين لهذا بقيت معظم هذه الرسائل عند ورثته حتى طبعها أحد أحفاده.وما يعيب هذه المكاتبات أن عدداً منها غير مؤرخ رغم ما تحويه من مادة تاريخية مفيدة، ومثل هذه الرسائل استفدنا منها عند التناول العام للأحداث . كما لم يُراعَ عند طبعها الأسس العلمية البسيطة في النشر مثل ترتيب المكاتبات وفقاً للتسلسل الزمني أو فرزها حسب موضوعاتها .

وحوت بعض كتب الحوليات و التراجم رسائل متفرقة هنا وهناك أو إشارات مقتضبة أو مبتورة تتناسب مع أسلوب الكتابة التاريخية المتبعة آنذاك . وعلى العموم فإن هذه المؤلفات التي حوت بطونها هذا القدر من السجلات الرسمية للسلطنة أسهمت في تعزيز الدراسة بالأصول التاريخية وفي التعرف على نواحٍ من الأحداث السياسية.

ب)- كتب الحوليات والتراجم :

شكلت كتب الحوليات والتراجم المخطوطة و المحققة العمود الفقري الذي استندت إليه هذه الدراسة ، وقد اتصفت هذه المصادر بسمات عامة تمثلت في ضعف الأسلوب وركاكته و الميل إلى السجع في البعض منها ، كما أهمل بعض ناسخي المخطوط منها علامات التنقيط ، وامتلأت بالأخطاء الإملائية و الألفاظ العامية .وقد اضطررنا عند نقل بعض الاقتباسات من هذه المصادر إلى كتابتها باللهجات الدارجة ، وذلك للأمانة العلمية وحتى نكون قريبين من روح ذلك العصر وثقافته، ولكننا بيّنّا معاني الكلمات العامية في الهامش وأما الأخطاء الإملائية الطفيفة فقد صححناها في المتن بين حاصرتين .

وقد حوت كتب الحوليات التي وقفنا عليها معلومات تاريخية أسهمت في تغطية جانب مهم من الأحداث التاريخية لفترة الدراسة . ويعد أسلوب الكتابة التاريخية بالحوليات امتداداً للمدرسة التاريخية الإسلامية التي تهتم بذكر أهم الأحداث ووفيات الأعيان . ومما يؤخذ عموماً على كتب الحوليات أنها لا تعطي سوى القليل من المعلومات المعزولة بعضها عن بعض، وعلاوة على ذلك فهي بخيلة في ذكر أسباب الحوادث التاريخية وبالتالي نتائجها ،

الأمر الذي يتطلب عند التعامل مع هذه المصادر المزيد من الجهد لربط النصوص التاريخية وغربلتها ومقارنتها بغيرها من المؤلفات .

وتخصصت كتب التراجم بذكر سيرة الرجال البارزين والعلماء ومناقب الصالحين وكراماتهم ، وغالباً ما تأتي المادة التاريخية فيها عرضاً و باقتضاب . وتجدر الإشارة إلى أن كتب الحوليات والتراجم تتميز عن غيرها من المؤلفات التاريخية بالنقل الحرفي مما سبقها فضلاً عن أن مؤلفيها يزيدون ما يخص الحوادث و التراجم المعاصرة لهم . ورغم عيوب هذا الأسلوب في الكتابة التاريخية فإنَّ الموجود منها أسهم في حفظ التراث الوطني في وقتٍ كان فيه عرضة للتلف و الضياع لعوامل لا مجال لذكرها .

إن هذه الملاحظات لا تعني التقليل من أهمية هذه المصادر بالنسبة إلى موضوع الدراسة ذلك أنها تميزت، رغم نواقصها، بأصالتها وكان مؤلفوها معاصرين للأحداث التي تناولوها أو كانوا قريبي العهد بها. وعلى أيّة حال فإن معظم مؤلفي هذه المصادر كانوا من السادة العلويين الحضارمة ولعل ذلك ليس غريباً فقد كان للسادة في حضرموت تأثير بارز في الحياة الاجتماعية والفكرية في حضرموت ، وتستوجب هذه الحقيقة النظر بدقة وحذراً زائداً لهذه المؤلفات. إن النقد العام لهذه المصادر يكمن في أنها لم تحاول أن تقترب من جوهر العملية التاريخية ذاتها التي تتطلب - كما قال الدكتور عبدالعزيز بن عقيل - لغة بحث خاصة، وتوظيفاً دقيقاً للكلمات ومعانيها، وفهماً سليماً لدلائل الأحداث التاريخية .

وتتسع دائرة المصادر والمراجع التي عدنا إليها وتضيق وفقاً لاتساع أو ضيق الأحداث التاريخية المتعلقة بالسلطنة الكثيرية في حضرموت وما يدور حولها وما يأتيها من خارجها بمعنى آخر كلما اقتربنا أكثر من الأحداث التاريخية ذات الطابع المحلي لحضرموت انحصرت دائرة المصادر في مراجع حضرمية معينة ، ويكون العكس عندما تدخل السلطنة في علاقات معينة مع القوى المحلية أو الخارجية . وإذا كان المجال لا يتسع لإعطاء دراسة تفصيلية عن كل مصادر الدراسة فمن المناسب استعراض أهم هذه المصادر التي منها :(تاريخ شنبل) أو (التاريخ الأكمل) لمؤلفه أحمد عبدالله شنبل وهو تاريخ مختصر مرتب على السنين ابتداه من سنة(٥٠١هـ /١١٠٧م) إلى سنة(٩٢٠هـ /١٥١٤م) وهي سنة وفاة المؤلف . ويعد هذا التاريخ

أقدم مؤلف حضرمي وصل إلينا وتناول الأحداث السياسية الداخلية لحضرموت ، وقد اعتمد شنبل في تناوله للأحداث السابقة لعصره على مؤلفات حضرمية مفقودة ،[٥] كما سجل الأحداث التي شاهدها وهو بهذا يكون قد وضع أساساً متيناً لكتابة تاريخ حضرموت في العصور الوسطى والحديثة المبكرة .

ومن المخطوطات المهمة التي استفادت منها هذه الدراسة الجزء الثالث من كتاب (قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر) ، تأليف الطيب بن عبد الله بامخرمة المتوفى سنة(٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م) و المخطوط مصنف في التاريخ والتراجم ذكر فيه المؤلف تراجم الأعيان و المشاهير مبتدئاً بالسنة الأولى للهجرة ورتّبه على طريقة الحوليات فقسّم كل قرن على خمس طبقات، ويبدأ الجزء الثالث الذي اعتمدنا عليه بالطبقة الأولى من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) وينتهي إلى الطبقة الثانية من القرن العاشر الهجري وبالتحديد إلى سنة(٩٢٧هـ / ١٥٢١م) . وقد استفاد بامخرمة من معاصره ابن الديبع مؤرخ الدولة الطاهرية ومدينة زبيد وقد تناول بامخرمة أحداث عصره إلى ما قبل الاحتلال العثماني الأول لليمن لاسيما الأعمال البحرية البرتغالية على السواحل العربية الجنوبية و ما نتج عنها من وجود مملوكي في المنطقة وانعكاسه على حضرموت .

ومن أهم المصادر التي غطت أحداث القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي): (تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر)[٦] لمؤلفه محمد بن عمر الطيب بافقيه . الذي اتّبع فيه أسلوب الحوليات التقليدي في الكتابة التاريخية ابتداء من سنة(٩٠١هـ/١٤٩٥م) إلى سنة(١٠٠١هـ/١٥٩٢م) ، ورغم أن بافقيه يعد من المؤرخين غير المشهورين إذ لم نجد له ترجمة في كتب التراجم اللاحقة له ، وعدم معاصرته لمعظم الأحداث التاريخية التي تناولها (ولد سنة ٩٧٠هـ/١٥٦٢م) فإن قيمة هذا المصدر تكمن في الآتي :

١. تغطيته للأحداث التاريخية للسلطنة الكثيرية وصراعاتها وعلاقاتها مع القوى المحلية اليمنية خلال القرن العاشر الهجري و كذلك تناوله لنشاطات البرتغاليين و العثمانيين في المنطقة ، وهو بهذا عبر عن وجهة النظر العربية تجاه هذه التحركات والنشاطات ، ومقارنة بين تاريخ بافقيه وشنبل نجد أن المادة التاريخية المفيدة عند بافقيه أوسع .

٢. اعتماد بافقيه على ثلاثة مؤلفات حضرمية معاصرة للأحداث التي تناولها وهي : مخطوطة العقد الثمين الفاخر من أوائل القرن العاشر، لمؤلفه عبد الله بن أحمد باسخلة المتوفى سنة ٩٧٧هـ/١٥٦٩م. وقد كان بافقيه أميناً في نقله للأحداث والإشارة إلى مصدره .

والمصدر الثاني لبافقيه وهو الأهم هو حصوله على مسودات مذكرات تاريخية للفقيه عبدالله بن عمر بامخرمة وهذه المسودات أو (التقييدات) كما يسميها نقل معظمها حرفياً من غير أن يكلف نفسه أحياناً عناء تغيير ضمير المتكلم . إن أهمية مذكرات بامخرمة تأتي في أنه عمل لفترة من الزمن مستشاراً للسلطان بدر بوطويرق ولهذا تشبه هذه المذكرات التقارير الرسمية لرجال الحكم في هذا العصر . وعلى أيّة حال فإن هذين المصدرين يعدان في عداد المؤلفات المخطوطة المفقودة ، وهنا تكمن أهمية كتاب بافقيه بأنه حافظ على نصوص تاريخية هامة معاصرة لأحداث المنطقة ، ومن جانب آخر يمكن القول إن مؤلف بافقيه حوى ثلاثة مؤلفات في كتاب واحد . ومصدر بافقيه الثالث هو كتاب النور السافر عن أخبار القرن العاشر للعيدروس .

٣. وإذا كان بافقيه لم يعاصر معظم الأحداث التاريخية التي غطاها في كتابه ، فإنَّ هذا الابتعاد النسبي كان له فائدة جانبية تمثلت في عدم تأثره بالانفعالات الآنية التي ربما تفرضها تشابكات عناصر الصراع السياسي مما أوجد مجالاً أفضل للتعليق على الأحداث، لهذا لاحظنا في ثنايا الكتاب نقداً لبعض سياسات السلاطين الكثيريين وولاتهم .

وامتداداً لهذه المدرسة وفي فترة لاحقة يأتي كتاب (العدة المفيدة لتواريخ قديمة وحديثة) للمؤرخ سالم بن محمد بن حميد الكندي المتوفى سنة(١٣١٦هـ/١٨٩٢م) . إن ابن حميد يعد المصدر الرئيس لتاريخ القرن التاسع عشر الميلادي في حضرموت (الثاني عشر الهجري) لاسيما تاريخ السلطنة الكثيرية الثانية . أما أهمية هذا المصدر بالنسبة إلى الدراسة فتكمن في أن الحوليات شملت كل فترة الدراسة وما بعدها ابتداء من سنة (٥٦٦هـ/١١٧٠م) ومعتمداً في ذلك على كتب الحوليات الحضرمية السابقة وساعد ذلك على مقارنة النصوص التاريخية المختلفة ، والأهم من ذلك أن ابن حميد اعتمد على مخطوط حضرمي دون للعقود الأربعة التي سبقت سقوط السلطنة وهو كتاب (النبذة) لمؤلفه الفقيه أحمد بن محمد باعباد الذي

تناول أحداث الفترة الممتدة من (١١٠٤هـ- ١١٤٤هـ/١٦٩٢- ١٧٣١م) ، وبهذا عدا بن حميد من المصادر الأساسية لاسيما للعقود التي شهدت فيها السلطنة ضعفها وانحسارها . وعلى العموم فإن هذه الفترة تميزت بالاضطراب السياسي و الفوضى القبلية ، وترك ذلك آثاره السلبية على مجالات الحياة المختلفة ومنها الفكرية وبالتالي حركة التدوين التاريخي.

ومن كتب التراجم التي اعتمدت عليها هذه الدراسة (النور السافر عن أخبار القرن العاشر) للعيدروس . وهو مطبوع وقد رتب تراجمه على السنوات ابتداء من سنة ٩٠١هـ/ ١٤٩٥م إلى سنة ١٠٠٠ هـ /١٥٩١م وتضمن تراجم من مات من علماء أهل اليمن وقضاتها وأدبائها وملوكها وغيرهم من أهل الحجاز و الهند ، وهذا المؤلف كما أشرنا أحد مصادر بافقيه.

أما أشهر كُتّاب التراجم الحضارم فهو : محمد بن أبي بكر الشلي (١٠٣٠هـ- ١٠٩٣هـ/١٦٢١- ١٦٨٣م) وله ثلاثة مؤلفات المطبوع منها المشرع الروي في مناقب السادة بني علوي . و المخطوط كتاب (السناء الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر) ، و كتاب (عقد الجواهر و الدرر في أخبار القرن الحادي عشر) ، وسبق أن تناولنا خصوصية كتب التراجم ومدى فائدتها التاريخية و الأغراض الحقيقية من كتابتها.

واحتلت المراجع الحضرمية الحديثة مكاناً مهماً لاسيما مؤلفات كلٍّ من سعيد عوض باوزير ، ومحمد عبد القادر بامطرف[٧] ، وصلاح البكري ، ومحمد بن هاشم ، ومحمد الشاطري وغيرهم ، وإذا كان هؤلاء المؤرخون لم يتبعوا الأساليب الحديثة في التدوين التاريخي فإنهم كانوا مرحلة وسطى بين الأسلوبين القديم والحديث فقد تجاوزوا نسبياً الأساليب القديمة وجاءت مؤلفاتهم أكثر تماسكاً و رصانة وهم بذلك يعدون بحق الرعيل الأول لكتاب تاريخ حضرموت الحديث والمعاصر.

ولعل ما يستوجب التنويه في هذا الاستعراض كتاب (الشهداء السبعة) ، لبامطرف وتكمن أهمية هذا الكتاب القصوى في أنه تناول الأعمال الحربية البرتغالية على السواحل الحضرمية ولاسيما على مدينة الشحر بالاعتماد على مخطوطتين حضرميتين مفقودتين إحداهما معاصرة لهذه الفترة . وقد زاد من أهمية هذا المرجع الاقتباسات المطولة التي حفل

بها فجعلنا ذلك نقترب أكثر من أحداث ذلك العصر وثقافته في وقت عزّ الحصول على هذه المؤلفات [٨]. وهاتان المخطوطتان هما: (بهجة السمر في أخبار بندر سعاد [٩] المشتهر) لمؤلفه المؤرخ الريان سالم عوض باسباع المتوفى سنة(٩٥٠هـ/١٥٤٣م) . (وزاد الأسفار في أخبار الشحر وعدن ومالابار) لمؤلفه الشاعر الشعبي سعيد بن علي بامعبيد .

المخطوطة الأولى معاصرة لأحداث القرن العاشر الهجري وتعدّ من الكتب المتخصصة في تاريخ المدن ، ويبدو أن المؤرخ باسخلة وهو أحد مصادر بافقيه اعتمد عليه [١٠] . أما المخطوطة الثانية رغم أنها متأخرة عن الأولى فإنها احتوت على مقتطفات ترجمها بامعبيد من مدونات الملاحين الهنود الذين كانت سفنهم ترافق السفن البرتغالية التي كانت تهاجم عدن وميناء الشحر .

ويعدّ كتاب (تاريخ الدولة الكثيرية) لمؤلفه محمد بن هاشم أول مؤلف يتخصص في تاريخ السلطنة الكثيرية ، ورغم المكانة الأدبية الرفيعة لمؤلف هذا الكتاب و الجهد الواضح الذي بذله فيه فإنّ ابن هاشم كان في تناوله للأحداث أديباً أكثر منه مؤرخاً ولم يخرج كثيراً على الطريقة القديمة التي تتناول الأحداث بطريقة التراجم ، فقد استعرض تاريخ السلطنة الكثيرية عن طريق تناوله بالترجمة للسلاطين والأمراء الكثيريين بغض النظر عن دورهم ووزنهم الفعلي في الأحداث . وقد أشار في بداية كتابه إلى منهجه في الكتابة بقوله : ((ولست أجد لي حقاً في مواخذتي أشخاصاً على سلوك سلكوه أناخت على علله السنون ودفنت مبرراته ومسوغاته طوال القرون)) [١١] . ولعل موقع ابن هاشم القريب من حكام السلطنة الكثيرية الثانية جعله يبتعد عن التحليل التاريخي الذي يتطلب بالضرورة أخذ المعول لنبش الحقائق وغربلتها . وعلى أيّة حال فإن هذه الملاحظات ليست تقليلاً من قيمة المادة التاريخية في الكتاب ؛ إذ يعد من المراجع المهمة لهذه الدراسة.

وكان للمصادر والمراجع اليمنية حظها من الاهتمام ، لاسيما تلك التي عاصرت فترة الدراسة و التي تطرقت من قريب أو من بعيد لتاريخ حضرموت في أثناء تناولها الأحداث التاريخية العامة لليمن أو لجزء منه . ولأن بعض هذه المؤلفات منحاز للكيانات السياسية القائمة في اليمن وخاصة تلك الكيانات التي دخلت في علاقات مع السلطنة الكثيرية فقد أفادنا ذلك في الاطلاع على وجهات النظر المختلفة تجاه الأحداث .

ومن أهم هذه المصادر (بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد) وذيله (الفضل المزيد على بغية المستفيد) لابن الديبع . ومخطوطة (روح الروح في ما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن و الفتوح) لعيسى بن لطف الله . وتاريخ اليمن في عصر الاستقلال عن الحكم العثماني لحسام الدين محسن الملقب أبي طالب . (وتاريخ اليمن خلال القرن الحادي عشر) لعبد الله بن علي الوزير. على أن أهم هذه المصادر مخطوطة (تحفة الأسماع والأبصار بما في السيرة المتوكلية من غرائب الأخبار) للجرموزي. وقد تناولت المخطوطة بالوثائق - كما أشرنا - العلاقة بين الدولة القاسمية اليمنية في عهد الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم و السلطنة الكثيرية . ولم يأت من فراغ استطراد الجرموزي لجوانب من تاريخ السلطنة الكثيرية فقد شهدت الفترة التي تناولها مؤلفه تبعية السلطنة الكثيرية لهذه الدولة .

كما استفادت الدراسة من بعض المؤلفات العربية غير اليمنية و الأجنبية المترجمة وغير المترجمة ، وكذلك الأبحاث المنشورة في بعض الدوريات المتخصصة .

ولعل ما سيستشفه القارئ بعد هذا الاستعراض للمصادر هو مدى الصعوبة التي ستواجه الباحث . وأعترف أنني غامرت عندما اتخذت هذا الموضوع للدراسة ، وعزائي أنني بذلت غاية جهدي وإيماني بأنني لا زلت طالباً في خطواتي البحثية الأولى . وإن قدّر لهذه الدراسة أن يكون لها قَدْرٌ من الثناء و الإشادة فالفضل في ذلك يعود إلى الله ثم إلى أستاذي المشرف ، أما إذا كان الأمر عكس ذلك فالأمر يعود إلى قصوري وحسبي أجر المجتهد المخطئ.

عبدالله

الهوامش :

١) سعيد عوض باوزير، الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي ، دار الطباعة الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦١م، ص (ج).

٢) توجد دراسات تاريخية تناولت المصادر اليمنية للقرنين العاشر و الحادي عشر الهجريين (السادس و السابع عشر الميلاديين) مثل :أ) سيد مصطفى سالم ، المؤرخون اليمنيون في العهد العثماني الأول (١٥٣٨- ١٦٣٥) الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ،١٩٧١م ب) حسين عبد الله العمري ، المؤرخون اليمنيون في العصر الحديث بحث في التاريخ و المؤرخين ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ١٩٨٨.

٣) حول شخصية الحداد ، ودوره في الحياة السياسية في حضرموت ينظر: الفصل الرابع من هذه الدراسة .

٤) مكاتبات عبد الله علوي الحداد طبع على نفقة حفيده علي عيسى الحداد، مطبعة مصطفى الحلبي ، الجزء الأول ، ص ١٠٠.

٥) كان تاريخ حضرموت يدرج ضمن تاريخ اليمن العام . وقد بدأت كتابة التاريخ من قبل المؤرخين الحضارم منذ بداية القرن السابع الهجري . ومن أشهر الكتب الحضرمية المفقودة التي اعتمد عليها شنبل : تاريخ باعيسى ، للعلامة القاضي شهاب الدين أحمد بن محمد باعيسى المتوفى سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م وهو عبارة مجموعة من التراجم و الطبقات .ينظر : سارجنت ، حول مصادر التاريخ الحضرمي ، ص ٤٨. وكتاب الياقوت الثمين لمؤلف مجهول . ويرى عبد الله محمد الحبشي أن هذا المؤلف أقدم من أرخ لحضرموت ، ينظر: سالم بن حميد العدة المفيدة لتواريخ قديمة وحديثة ، تحقيق عبد الله محمد الحبشي ، ص ٨ وبعد هؤلاء أتى كتاب تاريخ إبن حسان ، للفقيه عبد الرحمن بن حسان المتوفى سنة ٨١٨هـ/١٤١٥.

٦) لهذا المصدر عنوان آخر وهو :(تاريخ حوادث السنين ووفاة العلماء العاملين والسادة المربين و الأولياء الصالحين)، حققه أحمد صالح رابضه كجزء من متطلبات درجة الماجستير من جامعة عدن كلية الآداب سنة ٢٠٠٠م . وقد حوى التحقيق على دراسة علمية مستقلة عن هذه المخطوطة . وقد اعتمدنا على النسخة المطبوعة و المنشورة التي حققها عبد الله الحبشي لسهولة اقتنائها ولاعتبارات أخرى . ولعل من حسن الحظ أننا حققنا عدداً من أوراق هذه المخطوطة ضمن مقررات السنة التمهيدية للماجستير في جامعة عدن ، كلية الآداب ، وقد ساعدنا ذلك على التعرف عن قرب على هذه المخطوطة و الاستفادة منها .

٧) حول منهج التدوين التاريخي لكل من المؤرخين سعيد عوض باوزير ومحمد عبد القادر بامطرف ينظر: صالح علي باصرة، دراسات في تاريخ حضرموت الحديث و المعاصر ، ص ٤٧- ٦٢.

٨) توفي المؤرخ محمد عبد القادر بامطرف ، سنة ١٩٨٨م وفي تمهيده من كتابة المشار إليه ذكر كيفية حصوله على هاتين المخطوطتين وأسباب ضياعهما .

٩) يطلق على مدينة الشحر أحياناً (سعاد) .

١٠) محمد عمر بافقيه ، تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر، تحقيق عبد الله محمد الحبشي ، ص ٧، هامش (١) .

١١) محمد بن هاشم ، تاريخ الدولة الكثيرية قام بالإشراف على طبعه محمد علي الجفري ، ١٩٤٨ ص ١.

لمحة عن التطورات السياسية في حضرموت منذ القرن الثالث الهجري وعلاقتها بالدول الرئيسة في اليمن

ارتبط تاريخ حضرموت منذ أن دخل الإسلام إليها بتاريخ الدولة العربية الإسلامية العام ؛ إذ أصبحت جزءاً من الكيان العربي الإسلامي السياسي الكبير، فقد خضعت لعاصمة الخلافة في كل من المدينة المنورة، الكوفة، دمشق، بغداد وذلك لمدة قرنين من الزمان. وشهدت المنطقة اليمنية في بداية القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) قيام أولى الدول المستقلة عن عاصمة الدولة الإسلامية العباسية . وشكل ذلك نقطة تحول في تاريخ اليمن الإسلامي ؛ إذ شهد اليمن بعد هذا التاريخ وحتى تاريخه المعاصر قيام العديد من الكيانات السياسية الصغيرة و الكبيرة ، التي تمكن بعضها ولفترات زمنية قصيرة من أن يمد سيطرته ونفوذه إلى معظم أجزاء اليمن ، وغالباً ما يرتبط هذا الامتداد ببروز بعض الطامحين أو الحكام الأقوياء [١] .

لم تكن حضرموت بعيدة عن الأحداث التي عصفت باليمن في العصور الوسطى بل كانت مؤثراتها وانعكاساتها كثيراً ما تظهر فيها فقد خضعت حضرموت وأحياناً أجزاء منها لحكم بعض الدويلات المستقلة وأصبحت ترتبط بالولاء لعواصم تلك الدويلات مثل : تعز، عدن ، صنعاء. إلا أننا نلحظ عندما يدب الضعف في الحكومات المركزية كانت حضرموت تشهد نوعاً من الاستقلال يزداد أو يقل بزيادة تلك الدولة الرئيسة أو ضعفها.[٢]

كان أول اتساع في حضرموت لهذه الدولة المستقلة من قبل الزياديين ، فقد ذكر عمارة أن محمد بن زياد ملك حضرموت وديار كندة و الشحر ومرباط [٣] . وفي عهد الأمير الزيادي أبي الجيش أسحق خرجت حضرموت من السيطرة الزيادية ضمن مناطق أخرى استغلت حالة الفوضى التي سادت الدولة الزيادية في آخر أيامه وبعد وفاته [٤] . وعندما سيطر عبيد آل زياد على الحكم كوزراء في البداية عادت سلطتهم إلى حضرموت ، لاسيما في عهد أشهر عبيدهم وهو الحسين بن سلامة الذي بالغت المصادر في ذكر إصلاحاته من ذلك أنه أنشأ الجوامع من حضرموت إلى مكة ، وحفر الآبار وبنى طريق شبام وتريم[٥] وبعد تدهور الدولة الزيادية

سنة (٤١٢هـ/١٠٢١م) استقل بنو معن بحكم عدن وأعمالها وهي لحج وأبين والشحر وحضرموت ، ومعروف أن عدن كانت في معظم العصور الوسطى حلقة الوصل بين الدولة الرئيسة في اليمن وحضرموت.[٦].

وابتداءً من منتصف القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) سيطر الصليحيون على معظم بلاد اليمن ، وكانت عدن وأعمالها ضمن المناطق التي خضعت لسيطرتهم [٧].

وعلى الرغم من أن مذهب الدولة الصليحية شيعي إسماعيلي ومرتبط بالدولة الفاطمية في مصر ، فإنهم تعاملوا مع مناطق المذهب السني في اليمن بتسامح منقطع النظير[٨] ولكن دخلوا في صراع مع آخر الأباضيين في حضرموت وهو الإمام أبو إسحق إبراهيم بن قيس الهمداني المدعوم من الأئمة الأباضيين في عمان [٩]. وبعد أن دخل الصليحيون حضرموت وقضوا على الإمام أبي إسحق أبقوا على الرؤساء المحليين وزعماء القبائل البارزين حكاماً نيابة عنهم وكان هؤلاء نواة للإمارات و الدويلات الصغيرة التي تأسست في مدن ومناطق محددة من حضرموت ، وعلى أيّة حال فإن نشوء هذه الإمارات يعد من أبرز العلامات المميزة لانتقال حضرموت من مرحلة العصور الوسطى المبكرة إلى العصور الوسيطة المتطورة [١٠].
ومن أبرز هذه الإمارات أو (السلطنات) [١١] :

إمارة آل راشد ومركزها تريم ، وإمارة آل الدغار في شبام ، وإمارة آل فارس بن أقبال في الشحر، [١٢] وعلى العموم فإن هذه الإمارات الثلاث كانت دائماً في حالة مد وجزر ، وقد يعتري الواحدة منها الضعف حتى يكاد يقضى عليها ثم تنبعث مرة أخرى ، ويحدث هذا مع عدم خلو الساحة دوماً في حضرموت من أشخاص وأسر و قبائل تتجاذب الحبل مع هذه الإمارات في معظم عهودها. [١٣] .

تجدر الإشارة إلى أن هذه الإمارات التي نشأت من أحشاء الفوضى القبلية في حضرموت مثلت خطوة حضارية في الإدارة المدنية لاسيما أنها نشأت في أهم مدن حضرموت، كما أنها تشكل نقطة تحول في شكل العلاقة بين حضرموت ومراكز السلطة التقليدية في جانب الحكم، إذ أخذ مع الزمن يتعزز الحكم المحلي وتضعف السلطة المركزية حتى قامت حكومات محلية استقلت بالحكم وخاصة في وادي حضرموت [١٤].

وبسيطرة الأيوبيين على اليمن سنة (٥٦٩هـ/١١٧٣م) وامتداد هذه السيطرة إلى حضرموت وضعت نهاية لهذه الدويلات وطويت إلى حين المحاولات المبكرة في تأسيس كيانات سياسية مستقلة في حضرموت ، كما أعادت حضرموت إلى ما كانت عليه من تبعية للدولة المركزية في اليمن مباشرة أو عن طريق الحاكم لمدينة عدن . ويعد عثمان الزنجيلي [١٥] من أشهر النواب الأيوبيين لاسيما في عدن وأعمالها ومنها حضرموت . هاجم الزنجيلي حضرموت في حملتين كانت الأولى سنة (٥٧٥هـ/١١٧٩م) فتوجه من عدن إلى الشحر واستولى عليها ، ثم زحف إلى داخل حضرموت واستولى على أهم مدنها رغم المقاومة التي أبداها الحضارمة [١٦].

وبعد وفاة الملك توران شاه الأيوبي [١٧] في مصر سنة (٥٧٦هـ /١١٨٠م) ، أعلن الزنجيلي استقلاله عن الدولة الأيوبية في مصر. وعاودت حضرموت التمرد ، فأرسل الزنجيلي حملة ثانية بقيادة أخيه سويد (الأسود) و الذي تمكن من القضاء على التمرد ودخول مدينة تريم[١٨].ولكن هذه الأحداث لم تكن نهاية المطاف في العلاقات بين الحضارم والأيوبيين ففي السنة نفسها (٥٧٦هـ/١١٨٠م) تمكن الحضارم من طرد الأيوبيين من حضرموت. [١٩]

وفي بداية القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) تجدد الصراع بين الحضارم وعمال الأيوبيين ، وكانت المعارك سجالاً على أن أهم تلك المعارك وأخطرها ما قام به عمر ابن مهدي اليمني عامل الأيوبيين في عدن ، من هجوم على حضرموت واستيلائه أولاً على مدينة الشحر سنة (٦١٤هـ/١٢١٧م) وتنكيله بولاتها آل فارس ثم تقدم إلى داخل حضرموت ، وبعد قتال طويل أخضع معظم مناطق داخل حضرموت .[٢٠] ومرة أخرى كان رد الحضارمة في المقاومة سريعاً ، فعندما غادر ابن مهدي حضرموت متوجهاً إلى مدينة تعز خرجت قبائل حضرموت عن الطاعة ، فعاد على الفور إلى حضرموت لاستعادة سلطته ولكنه كلما أخضع قبيلة انتفضت أخرى ، ولم يطل به المقام طويلاً في حضرموت ، فقد حاصرت قبيلة نهد شبام ودخلتها بعد أن قتلت ابن مهدي سنة (٦٢١هـ/١٢٢٤م) وبذلك انتهى حكم الأيوبيين في حضرموت . [٢١] وكان من أبرز النتائج المباشرة لزوال الحكم الأيوبي من حضرموت ، ازدياد التنافس القبلي و الأسري من أجل السلطة و النفوذ، لاسيما مع بروز قوى قبلية جديدة

طامحة للسيطرة السياسية مثل قبيلة نهد ، وآل يماني ، وآل راشد و الحبوظي التي يمكن إجمال نشاطها فيما يأتي :

نهد : اضطلعت قبيلة نهد بدور مهم في القضاء على الوجود الأيوبي في حضرموت ، وكان أبرز التحركات المبكرة لهذه القبيلة ما قامت به سنة (٦٠٠هـ/١٢٠٢م) من السيطرة على مناطق كثيرة من حضرموت الداخل ثم قيامها باقتسام مناطق السليل[٢٢] الغنية بينها وبين بعض القبائل الحضرمية .سنة(٦٠١هـ/ ١٢٠٣م) .[٢٣] وتظهر هذه التحركات بوضوح حالة الفوضى القبلية الضاربة أطنابها و التي أضرت بالمجتمع الحضرمي و بهذه القبائل نفسها ، لهذا رأت فيما بعد عدم جدوى هذا التقسيم ، و اجتمع زعماء القبائل في جامع تريم سنة (٦٠٦هـ/١٢٠٩م) وتعهدوا وأقسموا على تخليهم عن جميع ما في أيديهم من قرى السليل لسلطان تريم عبد الله بن راشد القحطاني [٢٤] .

وقد عزا صلاح البكري موقف قبيلة نهد الأخير إلى مجيئه بعد هطول أمطار وسيول غزيرة في حضرموت أضرت وحصرت بيوت القبيلة في مثاويها وأنهم لذلك اضطروا إلى التخلي عما تحت أيديهم من قرى ومدن وتركوا الأمر لآل يماني [٢٥] . والباحث لا يميل إلى هذه الرواية ، فيبدو أن قبيلة نهد لم تكن القبيلة المهيأة لتوحيد المنطقة تحت سلطة واحدة ؛ لأنها خليط قبلي تكمن قوته في بقائه في قرى بعيدة عن المدن ، ومع ذلك فقد ظلت قبيلة نهد مهمة ومؤثرة في الأحداث السياسية و القبلية لاسيما في منطقة الكسر وبلدة السور [٢٦] . فعندما سيطر الرسوليون على مناطق داخل حضرموت سنة (٦٣٧هـ /١٢٣٩م) دخلوا في هدنة مع قبيلة نهد ، ثم انقلبوا عليهم بعد أن شعروا بضعف مركزهم في داخل حضرموت وأقاموا لأنفسهم دويلة في مثاويهم وجعلوا من بلدة السور قاعدة لها[٢٧] وعندما بدأت الجهود الكثيرية المبكرة في تأسيس السلطنة كانت نهد شوكة مؤثرة ومعيقة لجهود الكثيريين كما سنرى.

آل يماني : ظهر آل يماني على المسرح السياسي في حضرموت بعد اندحار الأيوبيين منها وقد ساعدهم على ذلك تخلي قبيلة نهد عن ما تحت أيديها من البلدات . ويرى البعض أن هناك قرابة بين النهديين و آل يماني لهذا لم تعرقل نهد جهود اليماني في النهوض و التوسع.[٢٨] كما ساعد آل يماني في توطيد حكمهم الحبوظي [٢٩] حاكم ظفار فقد ذكر شنبل في

حوادث (٦٢٣هـ/١٢٢٦م) أن مسعود بن يماني نقل حامية الحبوظي من شبام إلى تريم [٣٠]. ويبدو أن توازن القوى القبلية في حضرموت غالباً ما يدفع المتنافسين إلى الاستعانة بتحالفات قبلية محلية أو الاستعانة بالدول الرئيسة في اليمن ، ويشكل ظاهرة من ظواهر الصراع القبلي في حضرموت . فقد تطلع آل يماني إلى علاقات قوية مع الرسوليين وطلبوا منهم مساعدات عسكرية أكثر من مرة ؛ وذلك لمواجهة الصعوبات التي اعترضت تطلعاتهم وطموحاتهم ودرء الأخطار التي واجهتهم من قبل المنافسين الآخرين [٣١]. وقد استمر آل يماني حكاماً على تريم وما حولها إلى سنة (٩٢٦هـ/١٥١٩م) وخلال هذه الفترة دخلوا في صراع أسري طويل مع الكثيريين القوة الناشئة .

آل راشد في الشحر : بعد الفراغ السياسي الذي أحدثه خروج الأيوبيين من حضرموت ظهرت إمارة آل راشد في الشحر ، أنشأها عبد الرحمن بن راشد بن إقبال . ولخصوصية مدينة الشحر ارتبطت هذه الإمارة بالدولة الرسولية الفتية وأقرت لها بالطاعة ودفع الإتاوات السنوية [٣٢].

وبعد سنة (٦٣٨هـ/١٢٤٠م) تأرجحت سيطرة الدولة الرسولية بين الإشراف المباشر وغير المباشر [٣٣] ، وبعد وفاة الأمير عبد الرحمن بن راشد سنة (٦٤٤هـ/١٢٤٦م) خلفه ابن أخ له يدعى راشد بن شجعنة وهذا دخل في عداء سافر مع الدولة الرسولية بمساعدة حاكم ظفار الحبوظي [٣٤] وهذا الخروج سيكون ضمن إشارتنا الآتية .

الحبوظي في ظفار : حكم الحبوظيون ظفاراً منذ بداية القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)[٣٥] وقد تطلعوا في وقت مبكر إلى التوسع في وادي حضرموت ، ساعدهم في ذلك عدم وجود سلطة قوية ذات شوكة فعالة في حضرموت . ومنذ سنة (٦٢٣هـ/١٢٢٦م) دخلوا حضرموت بوصفهم قوة مساندة لليمانيين في صراعهم ضد منافسيهم [٣٦] . وقد جاءت جهود الحبوظيين الفعلية و المكثفة في التوسع داخل حضرموت في عهد السلطان سالم بن إدريس الحبوظي الذي تولى الحكم سنة (٦٧٠هـ/١٢٧١م) [٣٧].

مرت محاولات سالم الحبوظي للتوسع في حضرموت من حيث نوعية التحرك بمرحلتين ، جمعت المرحلة الأولى بين عملية الشراء [٣٨] للحصون و المدن الحضرمية ، وطريقة الاستيلاء عن

طريق القوة ، من ذلك ما قام به من شراء مدينة شبام سنة (٦٧٣هـ/١٢٧٤م) من حكامها بني سعد [٣٩] ومن ثم سيطرته على بعض المدن و القرى بالقوة ومحاصرته لمدينة تريم ثلاثة أشهر [٤٠].

وتميزت المرحلة الثانية من تحركاته بعمليات الشراء فقط للحصون و البلدات الحضرمية وجاءت هذه على خلفية المجاعة و القحط الذي عم حضرموت ؛ إذ ارتفعت الأسعار [٤١].

وقد استرسل الخزرجي في ذكر الاتفاق الذي تم بين وجوه الحضارم و الحبوظي وله في ذلك أغراض كما سوف نرى فقال : ((.. فأقبل أصحابها إلى سالم بن إدريس الحبوظي وطلبوا منه ما يدفعون كلف تلك السنة عنهم وسلموا إليه مصانع [٤٢] حضرموت .. فقبضها وعاد إلى ظفار ، فلما رجع مال أهل حضرموت ميلة واحدة إلى مصانعهم فأخذوها طوعاً وكرهاً فأصبح لا مال ولا بلد)) [٤٣] وقد أورد الخزرجي هذه الرواية وهو مؤرخ الدولة الرسولية ليفسر أسباب تعدي الحبوظي سنة (٦٧٧هـ/١٢٧٨م) على سفينة تابعة للدولة الرسولية اضطرت إلى الجنوح قبالة ساحل ظفار [٤٤]. وبمعنى آخر أراد أن يعزو استيلاء الحبوظي على السفينة الرسولية إلى فشله في حضرموت ، وبالتالي يبرر الحملة الانتقامية ضد الحبوظي ، وقد ذهبت معظم المصادر التي وقفنا عليها إلى ما ذهب إليه الخزرجي بلا تمحيص [٤٥].

وكيفما كان الأمر فقد جرت مراسلات بين الملك الرسولي و سالم الحبوظي لاسترجاع المنهوب من السفينة المنكوبة ، وبلهجة تهديدية واضحة أورد الرسولي في رسالته قوله تعالى : ((وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا)) ومن جانبه رفض الحبوظي التهديد وكتب في رده أن الرسول وصل فأين العذاب [٤٦] ، وأمعن الحبوظي في تحديه للرسوليين من خلال تحالفه و تشجيعه لراشد بن شجعنة أمير الشحر على عدم دفع الأتاوى السنوية للرسوليين . واتخذ هذا التحدي موقفاً عملياً عندما صد الحبوظي محاولة هجوم رسولية على ظفار ، وكذلك تجهيزه حملة برية وبحرية لاسترداد الشحر من الرسوليين بعد أن هرب أميرها راشد بن شجعنة سنة (٦٧٧هـ/١٢٧٨م) وقد انتهت حملة الحبوظي بالفشل الذريع وعاد إلى ظفار.[٤٧]

وعلى أيّة حال فإن فشل الحملة الحبوظية لاسترداد الشحر وبقاء موضوع السفينة المنكوبة معلقاً كل ذلك دفع باتجاه مواجهة اختار الملك المظفر الرسولي مكانها وزمانها . ولقد بالغ الملك المظفر في تجهيزه على ظفار، فذكر المؤرخون أنه جهز جيشاً مكوناً من سبعة آلاف من

المشاة وخمسمائة فارس [٤٨] وسار الجيش في ثلاث فرق ، فرقتين بريتين و الثالثة بحرية ، والتقت الفرق الثلاث في قرية ريسوت بالقرب من ظفار [٤٩] ، ثم جرت معركة قوية كان من نتائجها المباشرة مقتل سالم الحبوظي وهزيمة جيشه ودخول الرسوليين ظفار في رجب (٦٧٨هـ/١٢٧٩م) [٥٠] .

أما النتائج غير المباشرة لسقوط إمارة الحبوظي على صعيد القوة المتنافسة في حضرموت ، هي ظهور آل كثير على المسرح السياسي في حضرموت . فمن هم آل كثير ؟ وما علاقتهم بالحبوظي ؟ وكيف استطاعوا أن يلتمسوا لأنفسهم طريقاً داخل المجتمع الحضرمي القبلي بالغ التعقيد حتى تمكنوا من تأسيس سلطنة لهم ؟ هذه الأسئلة وغيرها سنحاول الإجابة عنها خلال فصول هذه الدراسة .

الهوامش :

١) من أهم هذه الدول المستقلة : الدولة الزيادية(٢٠٣هـ- ٤٠٢هـ/٨١٩م- ١٠١١م) الدولة الصليحية(٤٣٦- ٥٣٢هـ/١٠٤٧- ١١٣٨م) الدولة الأيوبية (٥٦٩- ٦٢٦هـ/١١٧٤- ١٢٢٩م) الدولة الرسولية (٦٢٦- ٨٥٨هـ/١٢٢٩- ١٤٥٤م) للمزيد من المعلومات عن هذه الدول ينظر : أحمد بن أحمد المطاع ، تاريخ اليمن الإسلامي (١٠٠٤- ١٠٠٦هـ) ، تحقيق عبد الله محمد الحبشي ، ط (١) ، دار التنوير للطباعة و النشر ، بيروت ١٩٨٦ ، ، محمد يحيى الحداد ، تاريخ اليمن السياسي ، ج ٢ ، ط٤ ، دار التنوير للطباعة ، بيروت ، ١٩٨٦.

٢) علوي بن طاهر الحداد ، جني الشماريخ ، أجوبة أسئلة في التاريخ ، بدون مكان وتاريخ نشر ، ص ٧.

٣) نجم الدين عمارة بن علي اليمني ، تاريخ اليمن المفيد في أخبار صنعاء وزبيد وشعراء ملوكها وأعيانها وأدبائها ، حققه وعلق عليه محمد بن على الأكوع الحوالي ، ط (٢) ، مطبعة السعيدة ، ١٩٧٦ ، ص ٤٩.

٤) صلاح البكري ، في جنوب الجزيرة العربية ، ط (١) ، مطبعة مصطفى البابي ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ص ١٠٩.

٥) علوي بن طاهر الحداد ، الشامل في تاريخ حضرموت ومخاليفها ، ص١١١.

٦)محمد كريم إبراهيم ، عدن دراسة في أحوالها السياسية والاقتصادية (٤٧٦- ٦٢٦هـ/١٠٨٣- ١٢٢٨م)مطبعة جامعة البصرة ١٩٨٥م ، ص٩٤

٧) باخرمة ، الطيب بن عبد الله بن أحمد ، تاريخ ثغر عدن مع نخب من تواريخ ابن المجاور والجندي والأهدل، ط(٢) ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ١٩٩١م ص ١٦٣- ١٦٤.

٨) كرامة مبارك سليمان ،الفكر والمجتمع في حضرموت، ط(١) ، بدون تاريخ ومكان نشر ، ص ١٦١.

٩) سعيد عوض باوزير ، صفحات من التاريخ الحضرمي ، مكتبة الثقافة ، عدن ، ١٩٥٧ ، ص ٦٦- ٧٩.

١٠) عبد العزيز جعفر بن عقيل، تاريخ حضرموت في العصور الوسيطة المبكرة والقضايا المتعلقة بتاريخ هذه الفترة، مجلة الثقافة ، العدد (٣٠) السنة(٥) ، فبراير مارس ١٩٩٧م . ص ١٠٩.

١١) يلاحظ تلقب رؤساء القبائل بالملك أو الأمير أو السلطان وهذا نوع من التجوز ، وكثيراً ما سميت العرب شيوخها الأقوياء بالملوك . وهم في حقيقة الأمر منزلة بين المنزلتين ، فهم أقل شأناً من الملوك وأكبر شأناً من شيوخ القبائل.

١٢) للمزيد من المعلومات عن هذه الإمارات ينظر : صالح الحامد ، تاريخ حضرموت ، الجزء الثاني ، محمد أحمد الشاطري ، ادوار التاريخ الحضرمي ، الجزء الأول ، محمد علي باحنان ، جواهر تاريخ الاحقاف.

١٣) محمد أحمد الشاطري ، أدوار التاريخ الحضرمي ، ط(٢) ، عالم المعرفة ، جدة ، ١٩٨٣ ، الجزء الأول ص ١٦٥.

١٤) كرامة مبارك سليمان ، المصدر السابق ، ص ١٦٤.

١٥) هو عز الدين أبو عمر عثمان الزنجيلي نسبة إلى قرية زنجيلة من قرى دمشق . باخرمة ، المصدر السابق ، ص ١٣ ، ويرد الاسم أحياناً في المصادر الحضرمية الزنجبيلي.

١٦) أحمد عبد الله شنبل، تاريخ حضرموت المعروف بتاريخ شنبل، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، ط (١)، ١٩٩٤ ،ص٤٨ ، سعيد عوض باوزير ، المصدر السابق ، ص ٨١.

١٧) توران شاه : كان قائداً للحملة الأيوبية التي سيطرة على اليمن نيابة عن أخيه السلطان صلاح الدين الأيوبي . وللمزيد من المعلومات عن الأيوبيين ينظر: محمد عبد العال ، الأيوبيون في اليمن مع مدخل في تاريخ اليمن الإسلامي إلى عصرهم.

١٨) أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، ٤٩ ، صالح الحامد ، المصدر السابق ، ج (٢) ، ص ٤٣٠.

١٩) محمد كريم إبراهيم ، المصدر السابق ، ص ٢٣١.

٢٠) سعيد عوض باوزير ، المصدر السابق ، ص٨٤.

٢١) أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، ص٨١.

٢٢) السليل : وأحياناً يطلق عليها السرير وهي منطقة ممتدة في وادي حضرموت من مدينة شبام إلى بداية وادي المسيلة شرقي حضرموت ، وهي المنطقة الآهلة بالسكان وتنتشر فيها أشجار النخيل و المزروعات الأخرى بشكل عام.

٢٣) أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، ص٦٣.

٢٤) نفسه، ص ٧٠.

٢٥) صلاح البكري ، تاريخ حضرموت السياسي ، ج ١ ، مطبعة مصطفى البابي ، القاهرة ، ١٩٣٦م . ص ٨٦.

٢٦) الكسر : منطقة واسعة تقع غربي حضرموت وهي ملتقى بعض الوديان وادي حضرموت الفرعية مثل : وادي عمد وادي العين ووادي دوعن وهي منطقة خصبة تمتد بين بلدة (الهجرين) أسفل وادي دوعن وبلدة القطن غربي شبام ، وتتكون من عدد من القرى تقطن معظمها القبائل النهدية وأهم مناطق الكسر بلدة هينن ، والسور وهي غير مأهولة في الوقت الحاضر.

٢٧) محمد عبد القادر بامطرف ، المختصر في تاريخ حضرموت العام ،مطبوع بالآلة الكاتبة ، المكلا ، ١٩ ، ص ٣٢.

٢٨) صالح الحامد ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٣٨.

٢٩) سنشير إلى دور الحبوظي في حضرموت في هذا المبحث.

٣٠) أحمد عبد الله شنبل ، المرجع السابق ، ص ٨١- ٨٢.

٣١) محمد عبد القادر بامطرف ، المختصر في تاريخ حضرموت العام ، ص٢٠.

٣٢) سالم بن محمد بن حميد الكندي ، تاريخ حضرموت المسمى العدة المفيدة لتواريخ قديمه وحديثه، تحقيق عبد الله الحبشي، ج ١ ، مكتبة دار الإرشاد ، صنعاء ، ١٩٩١ ، ص١١٤.

٣٣) صلاح البكري ، في جنوب الجزيرة ، ص ١١١- ١١٢ ، سعيد عوض باوزير ، المصدر السابق ، ص ١١٤.

٣٤) محمد علي باحنان، جواهر تاريخ الاحقاف، مطبعة الفجالة الجديدة ، ١٩٦٢ ص ١٢٩- ١٣٠.

٣٥) س.ب. مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ترجمة محمد أمين عبد الله ، ط(٣)، آمون للتجليد والطباعة ، القاهرة، ١٩٨٦ ، ص ٤١٣.

٣٦) أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، ص ٨٢، سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص ٨٣.

٣٧) سعيد عوض باوزير ، المصدر السابق ، ص ٩٠.

٣٨) شراء الحصون و المدن ظاهرة تاريخية في العصور الوسطى، امتدت في حضرموت إلى العصور الحديثة . وتعنى حق دفع الحاميات العسكرية في البلدات و المدن و الأشراف على الداخل و الخارج وما يتبع ذلك من حق جمع الإتاوات و الضرائب .

٣٩) أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، ص ١٠٠.

٤٠) سعيد عوض باوزير ، معالم تاريخ الجزيرة العربية ، ط(١)، دار الكاتب العربي ، مصر، ص ٢٧٧.

٤١) بامخرمة ، الطيب بن عبد الله ، قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر ، ج(٣) ، مخطوط ، مكتبة الأحقاف للمخطوطات رقم ٢١٥٨ ، مجموعة بن سهل ، تريم ، ص ١٧٠.

٤٢) مصانع : المفرد مصنعه ويقصد بها في حضرموت مقر الحكم القبلي المحصن ، وأحياناً تطلق على البلدان المقامة تحت سفوح الجبال.

٤٣) علي حسن الخزرجي ، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ، الجزء الأول ، مطبعة الهلال بالفجالة ، مصر ، ١٩٦٤م ، ص ٢٠٧- ٢٠٨.

٤٤) أحمد فضل العبدلي ، هدية الزمن في أخبار اليمن ، ط(١) ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص ٧٦.

٤٥) سالم محمد بن حميد ، المصدر السابق ، ص ٩٨- ٩٩ ، أحمد فضل العبدلي، هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن ، ط(١) دار العودة ، بيروت ، ١٩٨١م .، ص ٧٧.

٤٦) علي حسن الخزرجي، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ، الجزء (١- ٢) مطبعة الهلال بالفجالة ، مصر ، ١٩٦٤ ص ٢٠٨، سعيد عوض باوزير ، صفحات من التاريخ الحضرمي، ص ٩٢.

٤٧) محمد علي باحنان ، المصدر السابق ، ص ١٣٣.

٤٨) علي حسن الخزرجي ، المصدر السابق ، الجزء الأول، ص ٢١١، سعيد عوض باوزير ، صفحات من التاريخ الحضرمي ، ص ٩٣.

٤٩) حمزة علي لقمان ، معارك حاسمة من تاريخ اليمن ، ط (١) ، مركز الدراسات اليمنية، صنعاء ، ١٩٧٨ ، ص ٨٨- ٨.

٥٠) علي حسن الخزرجي، المصدر السابق ، ج (١) ، ص ٢٠٩، أحمد فضل العبدلي ، المصدر السابق ، ص ٧٦، تاج الدين بن عبد الباقي بن عبد المجيد ، تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن في تاريخ اليمن ، تحقيق مصطفى حجازي ، ط(٢)، دار اللكمة ، صنعاء ، ١٩٨٥ ، ص ٩٥.

الفصل الأول

قيام السلطنة الكثيرية وعلاقاتها الداخلية

٨١٤-٩٢٠هـ / ١٤١١-١٥١٤م

أولاً : البدايات الأولى لآل كثير في حضرموت

نشوء آل كثير و جهودهم السياسية المبكرة :

اختلفت الآراء حول أصل آل كثير وموطنهم، و يعود هذا الاختلاف إلى أن قبيلة آل كثير لم تكن من القبائل القديمة المعروفة بحضرموت. فالهمداني وهو من مؤرخي القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) لم يشر إليها في تاريخه. ويرفع أغلب المؤرخين نسبهم إلى كثير بن ظنة بن عبدالله بن حرام بن سبأ الأكبر[1]. في حين هناك آراء لمؤرخين يعتد بهم تذكر أن آل كثير ينتمون إلى قبيلة همدان[2]، ويتفق الجميع على رفع النسب إلى سبأ بن يشحب بن يعرب بن قحطان، وأشار المستشرق البريطاني سارجنت أن ما ذكر عن نسب سلاطين آل كثير يرجع إلى حقبة تاريخية قصيرة وأن نسبهم مازال مجهولاً" [3] .

سكنت هذه القبيلة وسط وادي حضرموت ، والاعتقاد السائد أن ديار قبيلة آل كثير امتدت من صلالة بظفار إلى شرقي حضرموت،[4] في حين هناك من يرى أن آل كثير من القبائل الرئيسة بحضرموت ثم سكنت السهل الساحلي لظفار وهم فيه الأغلبية[5]. و لم تنقطع العلاقات بين أفخاذها ، وربما كان ذلك بسبب صراعهم الطويل مع قبائل القرا أو القريون سكان جبال ظفار[6] .

ومعروف أن حضرموت شهدت في بداية القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) موجة من هجرات قبائل السروات [7] ، وعد بعضهم آل كثير من هذه القبائل المهاجرة.[8] ويبدو أن كبر مساحة حضرموت واتساع واديها و قلة السكان[9] ، كل ذلك ساعد على استيعاب موجات الهجرات الداخلية المتتابعة.

وعلى أيّة حال فإن آل كثير يعدون فرعاً من الاتحاد الشنفري – المذكور – وعلى فرضية ما يرى بعضهم أنهم من همدان، فإننا نلحظ أن هذا الرفع مختص به آل كثير دون بقية قبائل الاتحاد الشنفري[10]، ومن هذا الاختلاف نستنتج أن صبغة الاتحاد الشنفري لا يمثل اتحاداً قبلياً يرتفع بالنسب إلى جد واحد مشترك، وأن هذا الاتحاد لا يخرج عن كونه اتحاداً قبلياً تقليدياً اختيارياً.

وفي أثناء الفوضى القبلية الضاربة أطنابها في حضرموت في بداية القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) بدأ آل كثير يتلمسون طريقهم ببطء ، ويحاولون أن يكونوا لأ نفسهم مكاناً بين المتنافسين المحليين ، وقد وقف آل كثير ضد الاتفاق القبلي لاقتسام مناطق (السليل) سنة (٦٠١هـ / ١٢٠٤م) الذي سبقت الإشارة إليه ، و ألّبوا علماء الدين ضده فشل في مهده[١١].

ويتضح من عدم وجود حصة لآل كثير في مشروع اقتسام السليل(بغض النظر عن موقفهم منه) ، أن آل كثير كانوا حتى ذلك الوقت خارج التوازنات القبلية ، كما أن المصادر لم تذكر أي دور لآل كثير في مقاومة هجمات الأيوبيين على حضرموت ، والتي تزعمتها قبيلة نهد.

وكيف ما كان الأمر فإن آل كثير فضّلوا، كما يبدو، أن يدخلوا الساحة بخطوات محسوبة، عن طريق اتباع أسلوبين سارا في خط واحد : الأسلوب الأول هو الحياد والترقب وبناء الاستحكامات العسكرية ، فهم لم يكونوا طرفاً في الأحداث السياسية بعد خروج الأيوبيين من حضرموت مباشرة ، والتي كان فيها لآل يماني في تريم الصولة الكبيرة . على أن أهم الخطوات العملية هي قيامهم ببناء بلدة (عينات)[١٢] في وادي بوح سنة (٦٢٩هـ / ١٢٣١م) ليستخدموها معقلاً و عاصمة لتطلعاتهم التوسعية عندما تسنح الظروف[١٣] .

تحتل بلدة عينات أهمية استراتيجية ، فهي أولاً بعيدة عن منطقة عمق المنازعات القبلية في مناطق السليل و الكسر كما كانت قريبة نسبياً من قرية الغيظة [١٤] الساحلية التي يملك بعض من آل كثير فيها سفناً [١٥] مما يسهل اتصالهم بظفار والخارج . وهي بهذا تقع في موقع متوسط بين مثاوي القبيلة في وسط حضرموت و شرقيها و مثاويها الممتدة حتى ظفار . ولاشك أن بناء البلدات على الوديان الضيقة و تحت سفوح الجبال الذي يعد من الظواهر الشائعة آنذاك . جاء نتيجة لغياب قوة سياسية موحدة للمنطقة ، و غلبة النظام القبلي بصراعاته المستديمة[١٦] .

والأسلوب الثاني الذي اتبعه الكثيريون، هو أسلوب التقرب من علماء الدين والمصلحين في المجتمع ، ويعطي المؤرخ ابن هاشم بعداً مذهبياً لتقرب الكثيريين من علماء الدين وهو أن الكثيريين كانوا يسعون لمحو آثار المذهب الأباضي ، وليشيدوا على أنقاضه دولة سنية شافعية نزيهة الاعتقاد على حسب قوله. ويظهر لنا أن ذلك توظيف تاريخي غير

دقيق لصراع مذهبي كان سائداً و انتهى ، و إن وجدت بقايا وآثار له فهي لا تحتمل الدعوة السياسية للقضاء عليه ، بل نجد أن مؤرخنا في السياق نفسه يذكر أنه في سنة (٥٦١هـ/١١٦٥م) قضي على آخر معاقل الأباضية في مدينة شبام[١٧].

و لعل الهدف من تقرب الكثيريين من علماء الدين سواء كانوا من السادة العلويين أو أسر المشايخ كآل باعباد و آل باجمال هو إصباغ نوع من الشرعية على تحركاتهم ولبث الدعاية لهم، ويروى عن الشيخ محمد بن عبد الله باعباد [١٨] أنه قال : " نحن و آل كثير شيء واحد كالكف و الساعد و تفاحتان في شجرة واحدة "[١٩].

وليس بخاف قوة تأثير السادة والمشايخ في المجتمع الحضرمي آنذاك، و هؤلاء كانوا يرون أن المجتمع يحتاج إلى قوة فتية تضع حداً للفوضى القبلية و ليكون لهم عليها فضل بحيث تقبل شفاعاتهم ، وتقبل نصائحهم إذا تمكنوا فعلاً من الوصول إلى السلطة.

واجهت الجهود الكثيرية المبكرة في بناء الاستحكامات و السيطرة على النقاط الحربية معارضة سريعة من القوى المحلية التي نظرت إلى هذه الخطوات بعين الشك و الريبة [٢٠]. فقد قدم يماني بن جعفر حاكم تريم و زعيم آل يماني احتجاجاً قوياً لآل كثير تبعه إنذار سنة (٦٣١هـ/١٢٣٣م) و عندما لم يجد احتجاجه آذاناً صاغية حاول بمساعدة قبيلة خيثمة النهدية الهجوم على آل كثير في عينات و لكن المحاولة لم تفلح [٢١].

وعندما امتد حكم أمير الشحر ابن إقبال إلى حضرموت الداخل بالشراء تكوَّن حلف مصغر بينه و بين آل يماني ، وأرسلوا جيشاً حاصر عينات و مشطة[٢٢] سنة(٦٣٣ هـ / ١٢٣٥م) وكان نصيب الحملة نصيب سابقتها من الفشل. [٢٣]

ولا شك أن هجوم القوى المحلية وصمود آل كثير يحمل أكثر من دلالة ، فمحاولتان متتاليتان تقريباً ضد آل كثير تعنيان أن آل كثير على جانب من القوة والتنظيم بحيث أثاروا حفيظة القوى المحلية وحاولوا القضاء عليها، كما أن الصمود الكثيري يبين مدى الإصرار وقوة العزيمة ومدى وضوح الأهداف بالنسبة لهم ، ويفصح بناؤهم للاستحكامات عن بعد نظرهم واستقرائهم الصحيح للأحداث ، ويعني ذلك أن هناك قوة محلية جديدة ظهرت وبدأت تبحث لها عن مكان في الخريطة القبلية والسياسية وتبحث أيضاً عن الفرصة والظروف المواتية.

علاقة آل كثير بالقوى المحلية حتى قيام السلطنة :

يعد الاتصال الذي تم بين آل كثير وسالم بن إدريس الحبوظي في النصف الأخير من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) إحدى نقاط التحول المهمة في مسيرة الكثيريين الطموحة فعندما اشترى الحبوظي شبام سنة (٦٧٣هـ /١١٢٤م) ثم سيطرته على قسم كبير من حضرموت وقف آل كثير إلى جانبه وساعدوه في تولي الأمور العسكرية والإدارية وأنابوه في حكم القرى عندما رجع إلى ظفار[٢٤] .

وقد ذكرت كثير من المصادر هذه العلاقة بين آل كثير والحبوظي ولكنها لم تشر، لا من قريب ولا من بعيد، إلى أسباب هذا التقارب . وفي رأينا أن هذا التقارب لم يكن وليد الصدفة فآل الحبوظي يدركون كنه الصراعات القبلية في حضرموت عندما كانت قواتهم موجودة في حضرموت لمساعدة آل اليماني منذ سنة (٦٢٣ هـ/ ١٢٢٦م) وتزامن وجودهم هذا مع بداية الجهود الكثيرية ولأن آل كثير ثم الحبوظي بعدهم دخلوا في صراع مع حاكم تريم بن يماني فإنهم بشكل أو بآخر أصبح بينهم قاسم مشترك وهو العداء لآل يماني وربما رأى الحبوظي في آل كثير قوة فتية لم تعصف بها دوامة الصراعات القبلية بعد وأن لديهم خبرة في التمرس والصمود ضد المنافسين المحليين، ومن جانب آخر نجد أن آل كثير أقرب القبائل الحضرمية إلى ظفار .

وكيفما كان القول فإن دور النيابة الذي قام به آل كثير على قرى الحبوظي واستحكاماته في حضرموت لم يستمر طويلاً إذ سرعان ما انتهت الإمارة الحبوظية سنة (٦٧٨ هـ / ١٢٧٩م) وقتل الحبوظي وضمت ظفار إلى الدولة الرسولية[٢٥] . ونعتقد أن دور النيابة لآل كثير كان مفيداً لهم في حينه، فمن جهة قربهم من مواقع السلطة المتقدمة والتمرس فيها ، ومن جهة ثانية فهذا الدور لم يجعلهم مباشرة في الواجهة التي لها إيجابياتها أحياناً وسلبياتها . وفي ظروف آل كثير آنذاك كان أجدى لهم أن يكونوا في الصف الثاني .

وعلى أية حال فإن آل كثير تشبثوا بما في أيديهم من البلدات التي كانوا يحكمونها – تصمت المصادر عن ذكر هذه البلدات – وكونوا لأنفسهم كياناً أرفع نسبياً من المستوى القبلي[٢٦] . كما ضاعفوا جهودهم في التقرب إلى علماء الدين وكسب مودتهم ، وكان الشيخ محمد عمر باعباد الذي أسس مدينة الغرفة[٢٧] سنة (٧٠١هـ/١٣٠١م) وابنه عبد الله الملقب

القديم في مقدمة من قدم النصرة و الدعاية وتنشيط مشروعهم وترويجه، علاوة على ما كان يقوم به العلويون من الجهة الأخرى من الدعاية وتمهيد السبيل [٢٨] . ولعل إشراف آل كثير على صدقات الحبوظي وأوقافه الكبيرة في حضرموت كان له دور في تعزيز سمعتهم ومكانتهم، وعلى العموم أصبحت غالبية قرى السليل خاضعة للنفوذ الكثيري في بداية القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) ما عدا بلدة (بور) وهي أهم قرى السليل. وفي سنة (٧٢٣ هـ /١٣٢٣م) صمم آل كثير على السيطرة عليها وقد جرت مفاوضات ووساطات لتسليمها لكن جوبهت بالرفض من حكامها المحليين[٢٩] ، فهجم آل كثير على البلدة وسيطروا عليها في العام نفسه وقتل جماعة من آل بانجار[٣٠] .

وحول خلفيات السيطرة على بلدة بور يذكر شنبل [٣١] أنه في هذه الأثناء استولى عبد الله بن يماني على الحول[٣٢] وحاصر شبام وفيها عامل الرسوليين ثم عاد أدراجه واستولى على سيئون وإذا كنا لا نعرف طبيعة العلاقة بين آل بانجار في بور وبين آل اليماني في تريم فإننا نرجح تلك العلاقة ، ونرى أن توقيت مهاجمة بور من قبل الكثيرين كان موفقا وذلك لانشغال آل اليماني بحروبهم، ربما أرادوا تحقيق نوع من التوازن في كسب البلدات ومناطق النفوذ.

ولقد تعقدت وتداخلت عناصر الصراع والتحالفات القبلية في هذه الفترة بين كثيري – نهدي و كثيري –يماني ونهدي – يماني . فضلاً عن القوى العشائرية الأخرى وأصحاب البلدات كآل ثعلب في تريس[٣٣] والصبرات في مشطة ، وجعلت من الصعوبة بمكان التتبع الدقيق لهذه الصراعات سواء لمعرفة مقدماتها أو نتائجها .

أما الدولة الرسولية فكان اهتمامها منصباً على مدينة الشحر واستمرت ترسل من قبلها العمال عليها ، أما ما يجري في داخل حضرموت فلم يكن لهم تحركات كبيرة تذكر. ويبدو أنهم اكتفوا بعلاقات الصداقة والتحالف غير الثابت مع آل يماني، وكان كل ما يهمهم هو عدم انتقال الصراعات القبلية إلى الشحر ، ومع هذا فهم بين الحين والآخر يدلون بدلوهم في الصراع القبلي المعقد في حضرموت والمجهول الأعداء أحياناً. ففي سنة (٧٣٣هـ /١٣٣٣م) تمكنت القبائل من إخراج عامل آل رسول من شبام[٣٤] وبعد خروجهم الأخير من شبام لا نكاد نجد لهم ذكراً في المصادر إلا سنة (٧٦٧هـ /١٣٦٥م) عندما وصل الملك المظفر – الملك المجاهد الرسولي – إلى حضرموت والشحر ومكث في تريم مدة ولكنه كما قال شنبل غادرها ولم يظفر بشيء[٣٥] .

ونستنتج من ذلك انعدام وجود السلطة المركزية القوية أو المحلية ذات الشوكة الفعالة في حضرموت، وكان آل كثير ينازعون من أجل البقاء و أعدائهم من كل حدب وصوب. ويصف المؤرخ باوزير العلاقة بين آل كثير وقبيلة الظلفان النهدية بقوله : ((وفي هذه القرن [الثامن الهجري] أخذ الصفو يتعكر بين آل كثير وقبائل الظلفان سكان هينن [٣٦] فقد ضاق هؤلاء ذرعاً بتطاول آل كثير إلى بسط نفوذهم على أكبر مساحة من الأراضي ولم يطيقوا صبراً على تحكمهم بمحاسيبهم والمستجيرين بهم الأمر الذي أدى إلى نشوب الحرب بين الفريقين مدة طويلة دامت أكثر من مائة عام يتوارثونها الآباء عن الأجداد)) [٣٧].

ومن ألد أعداء آل كثير آل يماني الذين كانوا من أبرز القوى المعيقة لتحركات آل كثير، على أن ما يخفف الضغط على الكثيريين مع أعدائهم التقليديين أن آل يماني أنفسهم غالباً ما تنشأ بينهم الصراعات الأسرية من أجل السيطرة والنفوذ وكان آل كثير يستغلون الفرص للإفادة منها. فعندما حدث الصراع بين آل يماني ممثلين بكل من محمد بن أحمد بن يماني ومن والاه وراصع بن دويس حاكم تريم ومن والاه والذي أجبر راصع بن دويس بن يماني على التخلي عن الحصون والخروج من تريم فانتقل إلى بلدة بور معقل آل كثير في منطقة السليل الذين ساعدوه واسترجع بعض المناطق بدعمهم[٣٨].

ويبرز موقف آل كثير في هذه الفترة بوصفهم مشاركين في الصراعات القبلية المحلية فكان جعفر ابن بدر الكثيري ضمن جيش السلطان عبد الله بن محمد اليماني فضلاً عن آل عامر النهديين فهاجموا وادي عمد سنة (٧٧٤ هـ/١٣٧٢م). وفي مكان آخر من الوادي نجدهم يشاركون سنة (٧٨٣ هـ / ١٣٨١م) إلى جانب آل ثعلب حكام بلدة تريس ضد راصع بن دويس بن يماني[٣٩].

وفي أسفل وادي حضرموت كانت هناك قوى مثلت شوكة أعاقت جهود الكثيريين وهم الصبرات وآل بن جسّار. ففي سنة (٧٨٧ هـ/١٣٨٥م) تمكنت قبيلة الصبرات بمساعدة راصع ابن دويس من تخريب عينات وقتلوا بالقرب منها سبعة من آل كثير، أما آل بن جسّار فكان لهم دور في إعاقة الجهود الكثيرية في التوسع باتجاه ظفار التي تجاذبتها قوى مختلفة منذ النصف الثاني من القرن الثامن الهجري (القرن الرابع عشر الميلادي) وبعد أن غابت سيطرة الرسوليين عليها في سنة (٨٠٧هـ /١٤٠٤م) استولى آل كثير على ظفار وأخرجوا سلطانها

الشهاب بن أحمد الحراني فتقدم أحمد بن جسّار إلى ظفار واتفق مع آل كثير على أن ظفار مناصفة بينهم وبين راصع بن دويس . وبعد تجدد الخلاف بين الطرفين هاجم ابن جسّار ظفار سنة (٨٠٨ /١٤٠٥م) وفي السنة التالية أخذ بن قسمان[٤٠] ظفار من آل كثير[٤١].

أما مدينة الشحر فقد كانّ هناك أفراد عديدون يطمعون في السيطرة عليها مستغلين ضعف الدولة الرسولية وعاملها فيها. ففي سنة (٨١٢/١٤٠٩م) تكوّن حلف من راصع بن دويس سلطان تريم وابن قسمان سلطان ظفار وابن جسّار سلطان المسفلة[٤٢](أسفل وادي حضرموت) بهدف السيطرة على مدينة الشحر ولكن هذا الحلف وهذه المحاولة قابله حلف آخر مُعَاوٍ تكوّن من آل عامر وآل كثير والصبرات الذين تمكنوا من إفشال محاولة السيطرة على الشحر[٤٣] . ولا شك أن موقف آل كثير هنا جاء رداً على وقوف المهاجمين للشحر ضد تطلعاتهم في ظفار وإخراجهم منها، والخوف من سيطرة أعدائهم التقليديين على الشحر الميناء الأول لحضرموت آنذاك .

ويتضح لنا من كل هذه الصراعات أن تحركات آل كثير العسكرية سارت في اتجاهين: أحدهما: هو الاستمرار في الدفاع عما تحت سيطرتهم ، والآخر : المشاركة بين الحين والآخر في الصراعات المحلية كطرف تابع وليس طرفاً فاعلاً أو مستقلاً إلا في حالات طفيفة .

وتميزت هذه الفترة من الصراع القبلي بأساليب اقتصادية، تدخل ضمن ما يعرف (بالأرض المحروقة) حسب المفهوم الحديث فكثيراً ما يلجأ المتصارعون إلى حرق المزروعات وإتلافها[٤٣] لاسيما عند موسم نضج البلح (التمر) وذلك كنوع من التجويع أو الانتقام وإذا عرفنا أن البلح هو الغذاء الرئيس للسكان آنذاك فلنا أن نتصور الآثار المترتبة على تلك الأعمال التي ستزيد بالطبع الحالة سوءاً .

وهكذا أسدل الستار على القرن الثامن الهجري و بداية القرن التاسع الهجري وحضرموت عموماً وآل كثير خصوصاً تتجاذبهم أمواج الفوضى والصراعات ، وقد فقدوا بعض مراكزهم مثل عينات ، كما اصطدمت محاولاتهم للسيطرة على ظفار ، لتكون لهم منفذاً بحرياً ، بأطماع المنافسين الآخرين . وبدأوا كأن خطواتهم تسير باتجاه التراجع ، وكان لابد من ظهور شخصية كثيريّة قوية لكي لا يحدث الانهيار ، أو ليضعهم في موقع مناسب في الخريطة القبلية السياسية بحضرموت ، فكانت هذه الشخصية هي السلطان علي بن عمر الكثيري فمن هو هذا السلطان؟ وما هو دوره في مجرى الأحداث السياسية التي شهدتها حضرموت.؟

ثانياً : قيام السلطنة الكثيرية :

١) دور السلطان علي بن عمر الكثيري في قيام السلطنة :

إن تاريخ السلطنة الكثيرية كان في أغلبه تاريخ الصراع القبلي في حضرموت ، وقد اختلفت فيه أدوار آل كثير من مواقع الدفاع عن النفس إلى المشارك والمهاجم وذلك باختلاف تطور أدوار النفوذ الكثيري في حضرموت .

ولم تكن السلطنة الكثيرية وليدة لحظة من الزمن أو جهد شخصية واحدة بل جهود عشرات الشخصيات الكثيرية ، منذ أن أدلوا بدلوهم في خضم الصراع السياسي القبلي في حضرموت في النصف الأخير من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) وفي أثناء مسيرهم مروا كالتجارب الإنسانية الأخرى، بمراحل الظهور والنمو والإخفاقات والنجاحات والتحديات ، لهذا يصعب تحديد بداية دقيقة لقيام السلطنة الكثيرية ، فلا توجد فواصل تاريخية لجهود الرعيل الأول من أبناء الأسرة الكثيرية الذين برزوا ابتداءً من القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) وقد شاع عند المؤرخين الحضارم المحدثين [٤٤] أن السلطان علي بن عمر الكثيري (٨١٤- ٨٢٥ هـ / ١٤١١- ١٤٢٢ م) هو أول من لقب بسلطان وعدوا بذلك حكمه إيذاناً بقيام السلطنة الكثيرية .

وحقيقة الأمر أن هناك نجاحات ميدانية حققها السلطان المؤسس علي بن عمر الكثيري كان أهمها توسيع نطاق نفوذ آل كثير في داخل حضرموت وساحلها ، فإليه يعود الفضل في بسط سلطنة آل كثير من منطقة السليل التي ظلوا فيها عشرات السنين من غير أن يتحركوا تحركاً يذكر ، إلى تمكنهم من السيطرة على العديد من القرى والبلدات المهمة في حضرموت .

وعلى أية حال فإن أول تحرك معروف للسلطان علي بن عمر الكثيري كان سنة (٨١٤هـ/١٤١١م) عندما غادر بلدة بور معقل آل كثير في السليل إلى بلدة الغرفة للاتصال بالشيخ المتصوف علي بن عمر باعباد ليستشيره في السيطرة على ظفار، باعتبارها الحلقة الأضعف و سبق لآل كثير أن سيطروا عليها، وجاء في رسالة الدلائل والأخبار في خصائص ظفار، المنقولة في مؤلف المؤرخ بن حميد أن الشيخ بشره بالسيطرة على ظفار وأراه إياها عندما طلب أن يدخل رأسه في قميص الشيخ [٤٥].

الشهاب بن أحمد الحراني فتقدم أحمد بن جسّار إلى ظفار واتفق مع آل كثير على أن ظفار مناصفة بينهم وبين راصع بن دويس . وبعد تجدد الخلاف بين الطرفين هاجم ابن جسّار ظفار سنة (٨٠٨ /١٤٠٥م) وفي السنة التالية أخذ بن قسمان[٤٠] ظفار من آل كثير[٤١].

أما مدينة الشحر فقد كان هناك أفراد عديدون يطمعون في السيطرة عليها مستغلين ضعف الدولة الرسولية وعاملها فيها. ففي سنة (٨١٢/١٤٠٩م) تكوّن حلف من راصع بن دويس سلطان تريم وابن قسمان سلطان ظفار وابن جسّار سلطان المسفلة[٤٢](أسفل وادي حضرموت) بهدف السيطرة على مدينة الشحر ولكن هذا الحلف وهذه المحاولة قابله حلف آخر مُعَادٍ تكوّن من آل عامر وآل كثير والصبرات الذين تمكنوا من إفشال محاولة السيطرة على الشحر[٤٣] . ولا شك أن موقف آل كثير هنا جاء رداً على وقوف المهاجمين للشحر ضد تطلعاتهم في ظفار وإخراجهم منها، والخوف من سيطرة أعدائهم التقليديين على الشحر الميناء الأول لحضرموت آنذاك .

ويتضح لنا من كل هذه الصراعات أن تحركات آل كثير العسكرية سارت في اتجاهين: أحدهما: هو الاستمرار في الدفاع عما تحت سيطرتهم ، والآخر : المشاركة بين الحين والآخر في الصراعات المحلية كطرف تابع وليس طرفاً فاعلاً أو مستقلاً إلا في حالات طفيفة .

وتميزت هذه الفترة من الصراع القبلي بأساليب اقتصادية، تدخل ضمن ما يعرف (بالأرض المحروقة) حسب المفهوم الحديث فكثيراً ما يلجأ المتصارعون إلى حرق المزروعات وإتلافها[٤٤] لاسيما عند موسم نضج البلح (التمر) وذلك كنوع من التجويع أو الانتقام وإذا عرفنا أن البلح هو الغذاء الرئيس للسكان آنذاك فلنا أن نتصور الآثار المترتبة على تلك الأعمال التي ستزيد بالطبع الحالة سوءاً .

وهكذا أسدل الستار على القرن الثامن الهجري و بداية القرن التاسع الهجري وحضرموت عموماً وآل كثير خصوصاً تتجاذبهم أمواج الفوضى والصراعات ، وقد فقدوا بعض مراكزهم مثل عينات ، كما اصطدمت محاولاتهم للسيطرة على ظفار ، لتكون لهم منفذاً بحرياً ، بأطماع المنافسين الآخرين . وبدأوا كأن خطواتهم تسير باتجاه التراجع ، وكان لابد من ظهور شخصية كثيريّة قوية لكي لا يحدث الانهيار ، أو ليضعهم في موقع مناسب في الخريطة القبلية السياسية بحضرموت ، فكانت هذه الشخصية هي السلطان علي بن عمر الكثيري فمن هو هذا السلطان؟ وما هو دوره في مجرى الأحداث السياسية التي شهدتها حضرموت.؟

ثانياً : قيام السلطنة الكثيرية :

١) دور السلطان علي بن عمر الكثيري في قيام السلطنة :

إن تاريخ السلطنة الكثيرية كان في أغلبه تاريخ الصراع القبلي في حضرموت ، وقد اختلفت فيه أدوار آل كثير من مواقع الدفاع عن النفس إلى المشارك والمهاجم وذلك باختلاف تطور أدوار النفوذ الكثيري في حضرموت .

ولم تكن السلطنة الكثيرية وليدة لحظة من الزمن أو جهد شخصية واحدة بل جهود عشرات الشخصيات الكثيرية ، منذ أن أدلوا بدلوهم في خضم الصراع السياسي القبلي في حضرموت في النصف الأخير من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) وفي أثناء مسيرهم مروا كالتجارب الإنسانية الأخرى، بمراحل الظهور والنمو والإخفاقات والنجاحات والتحديات ، لهذا يصعب تحديد بداية دقيقة لقيام السلطنة الكثيرية ، فلا توجد فواصل تاريخية لجهود الرعيل الأول من أبناء الأسرة الكثيرية الذين برزوا ابتداءً من القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) وقد شاع عند المؤرخين الحضارم المحدثين [٤٤] أن السلطان علي بن عمر الكثيري (٨١٤- ٨٢٥ هـ / ١٤١١- ١٤٢٢ م) هو أول من لقب بسلطان وعدوا بذلك حكمه إيذاناً بقيام السلطنة الكثيرية .

وحقيقة الأمر أن هناك نجاحات ميدانية حققها السلطان المؤسس علي بن عمر الكثيري كان أهمها توسيع نطاق نفوذ آل كثير في داخل حضرموت وساحلها ، فإليه يعود الفضل في بسط سلطنة آل كثير من منطقة السليل التي ظلوا فيها عشرات السنين من غير أن يتحركوا تحركاً يذكر ، إلى تمكنهم من السيطرة على العديد من القرى والبلدات المهمة في حضرموت .

وعلى أيّة حال فإن أول تحرك معروف للسلطان علي بن عمر الكثيري كان سنة (٨١٤هـ/١٤١١م) عندما غادر بلدة بور معقل آل كثير في السليل إلى بلدة الغرفة للاتصال بالشيخ المتصوف علي بن عمر باعباد ليستشيره في السيطرة على ظفار، باعتبارها الحلقة الأضعف و سبق لآل كثير أن سيطروا عليها، وجاء في رسالة الدلائل والأخبار في خصائص ظفار، المنقولة في مؤلف المؤرخ بن حميد أن الشيخ بشره بالسيطرة على ظفار وأراه إياها عندما طلب أن يدخل رأسه في قميص الشيخ [٤٥] .

ونحن إذ نورد هذه (الحكاية) على علّاتها التي أوردها بن حميد نهدف إلى إبراز مدى انتشار كرامات متصوفة حضرموت وخوارقهم في المجتمع ومدى تأثيرهم الديني ، وحقيقة الأمر أن ذلك لا يتعدى أن يكون نوعاً من التفاؤل من قبل الشيخ و إرباكاً للآخرين المنافسين باعتبار أنّ ما قاله الشيخ كرامة لا بد أن تتحقق.

وكيفما كان الأمر فإن سيطرة آل كثير على ظفار في الواقع [٤٦] جاءت بعد تطورات، من أهمها وفاة سلطان ظفار ابن قسمان سنة (٨١٦/١٤١٣م) وما أعقب ذلك من تحالف سلطان المسفلة بن جسّار مع قبيلة القرا الظفارية وتطلعه من أجل السيطرة عليها وفي هذه الأثناء جاءت تحركات السلطان علي بن عمر الكثيري وكانت الحرب بينه وبين ابن جسّار سجالاً حتى تمكن السلطان علي من دخولها والسيطرة عليها في العام نفسه[٤٧].

وبهذا، و لأول مرة في تاريخ السلطنة، سيطر الكثيريون سيطرة كاملة على ميناء مهم ترتاده السفن ويعدّ ثاني أهم ميناء في حضرموت بعد الشحر إلى جانب الأهمية الاقتصادية لهذا الميناء فهو أيضاً يحتل أهمية إستراتيجية فقد زاد من فرص تحركاتهم، وبالمفهوم العسكري الحديث يعد مؤخرة مهمة للإمداد في حالة الصراع في داخل حضرموت ، وخط رجعة في حالة الكر و الفر ، وهو من مميزات الحروب في العصور الوسطى التي تعتمد حتى ذلك الحين في الأغلب على السلاح الأبيض في حين نجد منافسيهم (آل يماني) ظلوا متقوقعين في بطن الوادي إذا تقدموا خطوة تأخروا خطوة .

وقد أنعش الانتصار الأخير في ظفار الكثيريين فنجدهم في السنة نفسها (٨١٦هـ / ١٤١٣م) يشاركون لصالح أحد أقطاب الصراع الأسري عند آل يماني[٤٨] . كما نجدهم ضمن الحلف القبلي المعادي لآل يماني وحليفه ابن جسّار المكون من آل كثير وآل جميل وآل عامر حيث جرت معركة تحت (اللسك)[٤٩] التابعة لابن جسّار انهزمت فيها قوة دويس بن راصع (٨١٣- ٨٤٤ هـ / ١٤١٠ - ١٤٤٠م) وحلفائه[٥٠].

ثم تجدد الصراع في السنة التالية (٨١٧ هـ/١٤١٤م) وحدثت معركة مشهورة تسمى معركة (برمان) وهو شعب بالقرب من وادي اللسك انتهت بهزيمة قوات راصع بن دويس بن يماني[٥١] .

لقد أثرت هذه الهزائم على آل يماني وحليفهم ابن جسّار فبدأوا يبحثون لهم عن حلفاء جدد من خارج منطقة حضرموت . أما السلطان علي بن عمر الكثيري فأعاد بناء بلدة عينات وحصنها وذلك سنة (٨١٩هـ/١٤١٦م) بوصفه نوعاً من الاستعداد للمفاجآت[٥٢] لقربها من مسرح الأحداث الأخيرة .

وعندما تمكن راصع بن دويس وابن جسّار من مخالفة أربعين فارساً قبلياً من منطقة بيحان[٥٣] المجاورة لحضرموت[٥٤] قاموا بالهجوم على مدينة شبام وأفسدوا تحتها ثلاثين نخلة ثم هاجموا عينات وقتلوا عدداً من آل كثير[٥٥].

وهكذا فقد كانت الحرب سجالاً بين الفريقين و لاشك أن ابن جسّار (ملك)[٥٦] اللسك ومسفلة وادي حضرموت وجد في التحركات الكثيرية اختراقاً لمنطقة نفوذه ، فبالنظر إلى قرب بلدة عينات من اللسك مقارنة بمدينة تريم اليمانية جعلت منطقة نفوذه في خط المواجهة الأول مع آل كثير في عينات . ولهذا كان آل جسّار دائماً في الخط المعارض لآل كثير ، ومن أشد المتحمسين للقضاء على النفوذ الكثيري في حضرموت. وقد أثبت قيام السلطان علي بن عمر الكثيري بإعادة بناء عينات و تحصينها بعد نظره ، وأنه كان يستبق الأحداث و هذه من علامات القادة الناجحين.

ولكن تحديات البقاء استمرت محلقة فوق آل كثير و تكاد تهز الأرض من تحت أقدامهم، فقد كان عليهم مواجهة الحلف الجديد والكبير الذي جمعه راصع بن دويس اليماني الذي تشكل من القبائل الحضرمية التي تضررت من تحركات و نشاطات آل كثير في حضرموت . وفي سنة (٨٢٢هـ / ١٤١٩م) دخل المتحالفون في معركة مع قوات السلطان علي بن عمر الكثيري بالقرب من (موشح)[٥٧] انتهت بانتصار الكثيريين[٥٨]، وثبّت السلطان علي بهذا النصر ركيزة من ركائز بناء السلطنة.

ويلحظ أن حروب السلطان علي بن عمر الكثيري المختلفة ، لم تشغله عن بناء الحصون و البلدات ، فقد ذكرنا أنه أعاد بناء عينات كما بنى الحسيسة[٥٩] سنة (٨٢١هـ/١٤١٨م) أي قبل المعركة الأخيرة بسنة [٦٠] وهذا يعني أن السلطنة الكثيرية بدأت تتجذر في حضرموت الداخل وأن الكثيريين عازمون على المضي قدماً لتحقيق طموحاتهم و تطلعاتهم السياسية .

ومن النجاحات المهمة التي حدثت في عهد السلطان علي بن عمر تمكّنَ الكثيريون من السيطرة على شبام سنة (٨٢٤هـ / ١٤٢١م) ، وقد مهدت لهذه السيطرة عوامل كثيرة منها الانتصارات التي حققها السلطان علي بن عمر على آل يماني و حلفائهم ، كما انتابت حضرموت سنة (٨٢٣ هـ / ١٤٢٠م) موجة من موجات القحط والمجاعة مات في إثرها عدد كبير من السكان[٦١] . وعلى صعيد صراع القوى المتغلبة على شبام مثل آل جميل و آل عامر وآل سعد فقد اشتدت بينهم المنافسة حتى تمكن آل عامر من السيطرة عليها سنة (٨٢٤هـ / ١٤٢١م)[٦٢] . وعلى الرغم من أن آل عامر من حلفاء آل كثير التقليديين ، فإنَّ ذلك لم يمنع السلطان علي بن عمر من التطلع إلى السيطرة عليها . ففي السنة نفسها هاجم شبام وقطع الكثير من نخيلها ثم اتفق مع آل عامر على اقتسام شبام ، وكان ذلك بداية سيطرة آل كثير عليها[٦٣] .

ولكن السلطان علي بن عمر لم يستمر في الحكم طويلاً إذ توفي سنة (٨٢٥هـ /١٤٢٢م) تقريباً بعد أن دانت له ظفار و شبام وكثير من بلدات الوادي وقراه ، وبهذا فقد استحق بحسب تسمية بعض معاصريه لقب السلطان[٦٤] .

إن الأهمية التاريخية للسلطان علي بن عمر الكثيري تكمن في أنه كان بمثابة المنقذ لآل كثير ، فقد استجاب للتحديات المفروضة وأعاد تنظيم صفوف الكثيريين ، ونقلهم إلى وضع أفضل مما كانوا عليه قبله . ويتحمس بعض المؤرخين لهذا السلطان ويقول إنه أول من حول القبيلة الكثيرية إلى دولة منظمة[٦٥] .

٢) خلفاء السلطان علي بن عمر الكثيري :

بعد وفاة السلطان علي (المؤسس) تعاقب على حكم السلطنة إلى سنة (٩١٠هـ / ١٥٠٤م) سبعة سلاطين من أبنائه وأحفاده ، وقد تميزت فترة حكمهم باستمرار الصراع التقليدي مع سلطنة آل يماني في تريم ، ولقد ترك هذا الصراع الطويل آثاره السلبية على الحياة الاجتماعية في حضرموت ، وعلى استقرار السلطنة . وأمام مصاعب التوسع الكثيري في حضرموت الداخل الذي فرضه التوازن القبلي إلى مدى بعيد وجّه الكثيريون اهتماماتهم إلى ساحل حضرموت.

وإذا كان السلاطين الكثيريون قد انشغلوا بأحداث صراعاتهم مع منافسيهم ومحاولات توسعاتهم في حضرموت فلقد انشغلوا أيضا بصراعاتهم الأسرية الداخلية التي لابد أن يكون لها عواقبها في تشتيت جهودهم وإشغالهم عن ترسيخ بناء السلطنة ، بل قد يهدد وجودها . وإذا قيل إن هذا الصراع ليس بدعاً في أنظمة الحكم الأسري الوراثي عبر التاريخ ، فإننا نعده مبكراً في حالة السلطنة الكثيرية، فبعد وفاة السلطان علي خلفه ابنه عبد الله [٦٦](٨٢٥- ٨٥٠هـ/ ١٤٢٢- ١٤٤٦م) الذي يمثل الجيل الأول والامتداد الطبيعي لحكم والده. غير أننا نلحظ في السنوات الأخيرة من حكمه دخول أبنائه محمد وبدر في صراع من أجل السيطرة على بعض الأراضي في بور معقل آل كثير وكان ذلك سنة (٨٤٨هـ / ١٤٤٤م) عندما هاجم الأمير[٦٧] بدر بن عبد الله بمساعدة سكان بلدة بور حصن بلدة بور الذي بناه أخوه قبل وقت قريب وأخذ منه بعض المعدات الحربية (الزانة) ثم تمكن الأمير بدر من السيطرة على الحصن[٦٨] .. وتحمل السيطرة على بلدة بور معاني خاصة على صعيد الأسرة الكثيرية ، ويبدو من هذا الخلاف (الأخوي) أن صراع السلطة بدأ يظهر قبل وفاة والدهم السلطان عبدالله.

وعلى العموم فقد تولى الحكم بعده ابنه محمد سنة (٨٥٠ هـ / ١٤٤٦م) ولكن مدة حكمه لم تدم طويلاً إذ تذكر المصادر أنه مات فجأة ، سنة (٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م)[٦٩]. وتولى السلطنة بعده أخوه بدر في ما يشبه الاستيلاء ، ويدل على ذلك الخلاف الذي دب بينه وبين أبناء أخيه السلطان محمد ، الذين تنازعوا من أجل السيطرة على الحكم حتى بعد وفاة عمهم السلطان بدر. و أول مظاهر هذا النزاع هجوم علي بن محمد الكثيري على بلدة بور سنة (٨٥٨ هـ / ١٤٥٤م) بمشاركة بعض أفراد الأسرة الكثيرية و لكنه لم يحقق أي إنجاز يذكر ، ثم عقد بين الطرفين صلح هش[٧٠] إذ سرعان ما قتل السلطان بدر ابن أخيه الأمير علي في العام نفسه[٧١] .

وخلال مدة حكم السلطان بدر الطويلة (٨٥٥ –٨٩٤ هـ / ١٤٤٦- ١٤٨٨م) انشغلت السلطنة بنزاعات جديدة و أجلت هذه النزاعات إلى حين تطلعات المتنافسين نحو السلطة. ونستدل من حوادث سنة (٨٩٢ هـ/ ١٤٨٦م) التي أوردها المؤرخ شنبل[٧٢] أنه في أواخر أيام السلطان بدر بدأت تبرز الخلافات الأسرية بخاصة بين أخيه جعفر وابن أخيه محمد . وسبب الخلاف الاستيلاء على بعض الأراضي ، ثم اتفقا على اقتسامها.. و رغم بساطة هذا الخلاف فإنه يظهر عدم تماسك أبناء الجيل الأول من الأسرة الكثيرية الحاكمة.

وتذكر بعض المصادر أن السيد عمر المحضار نقيب العلويين في حضرموت هو الذي حثّ السلطان جعفر بن عبد الله الكثيري (٨٩٤- ٩٠٥ هـ /١٤٨٨- ١٤٩٩م) على أن يتولى السلطنة ، لما كان يتوسمه فيه من الخير وحسن الرأي ، وكان جعفر مشغولاً بالتجارة وبعيداً عن السياسة وهذا التشجيع مع وجود الانقسام الأسري الكثيري شجّع السلطان جعفر على السيطرة على بلدة بور ثم تولى السلطنة[٧٣] .

ولكن هذا لم يضع حداً للصراع و التنافس الكثيري على السلطة . ومن أخطر حالات الصراع في هذه المرحلة ، التي هددت بانفراط عقد السلطنة ، خروج الأخوين بدر وعبد الله ابني السلطان السابق محمد بن عبد الله على عمهم السلطان جعفر ، وقد بدأ هذا الخروج سنة (٩٠١ هـ /١٤٩٥م) باستقلالهما بحكم مدينة سيئون أولاً ، ثم بلدة الغرفة في العام التالي . وقد حاول السلطان وضع حد لهذه التحركات الاستقلالية وحاصرت قواته هذه المدن الخارجة ولكن محاولاته باءت بالفشل[٧٤] .

وقد استفحل هذا الصراع عندما دخلت فيه عناصر محلية أرادت أن تستثمره لتحقيق مصالح معينة. وتتمثل هذه العناصر في سكان أسفل وادي حضرموت الذين تحالفوا مع الأمير عبد الله بن محمد وقاموا بشن هجوم على مدينة شبام سنة (٩٠٢ هـ /١٤٩٦م)[٧٥] ، مستغلين عدم وجود السلطان جعفر في وادي حضرموت وانشغاله في مدينة الشحر بترتيب أوضاعها بعد أن سيطر عليها[٧٦] .

و بدافع هذا الانتصار تحرك الأمير عبد الله للسيطرة على شبام لإضعاف سلطة عمه في داخل حضرموت بعد أن تعززت في ساحلها بالسيطرة على مدينة الشحر ، وكان أخوه الأمير بدر قد سبقه وسيطر على بلدة هينن . و تسمي محاولة السيطرة على شبام بوقعة (الخبّة) وهو جبل بالقرب من شبام وقد قتل في هذه المعركة ثمانية وخمسون شخصاً من الفريقين ، وأشهر من قتل الأمير عبد الله بن محمد الكثيري المتزعم للحلف المناوىء للسلطان جعفر . وقد انتصرت في هذه المعركة قوات السلطنة بقيادة الأمير عبد الله ابن السلطان جعفر الذي دافع عن شبام دفاع المستميت[٧٧] .

و بالنظر إلى عدد القتلى الكبير الذي وصل عددهم إلى مائة شخص من أهل المسفلة فقط حسب رواية بافقيه[٧٨] ، فإننا يمكن أن نستنتج ضخامة هذه المعركة و مدى خطورتها على مستقبل وحدة السلطنة في الأقل في الأراضي التي تسيطر عليها في حينه. وكان أبرز نتائج هذه المعركة استعادة السلطنة للمناطق التي كانت بيد الأميرين الثائرين .

ولأهمية انتصارات السلطنة سواء في داخل حضرموت أو في ساحلها انبرى الشعراء المؤيدون للسلطان جعفر فأشادوا بها ، من ذلك ما قاله الشاعر عمر بن عبد الله بامخرمة[٧٩] في قصيدته اللامية :

وتبالة فيها اتو بعجائب ينيبك كل خشف مطفل
وشبام يوم الخبه انظركم بها من هارب أو عاطب بالمفصل

وفيها يقول مادحاً الأمير عبد الله بن جعفر:

مولى ملوك الأرض عبدالله لا زالت به عنّا الشغائب تنجلي
رحب البناء للنازلين ببابه جم الجد للطارق المستعجل
أ فديه سلطاناً إذا شبت لظى حرب عوانٍ كان أول مصطل
يافاتحاً بالسيف كل مدينة و مذيق أهليها مرير الحنظل

ويحذر السلطان من سكان مسفلة وادي حضرموت :

و احذروا حاشاك أن تكون مصدقاً أو واثقاً بمودة في مسفل
يبدو لنا وداً و يخفو ضده عنّا و ظنّوها علينا تنطلي

والقصيدة طويلة[٨٠] و أهميتها التاريخية تكمن في توثيقها لمعارك السلطان جعفر الكثيري.

توفي السلطان جعفر سنة (٩٠٥ هـ /١٤٩٩م) على أرجح الروايات ، واختلف المؤرخون في كيفية وفاته فهناك من يرى أنه اغتيل في حصن بلدة بور[٨١] في حين يرى البعض الآخر أنه مات فجأة[٨٢] ، وعلى أية حال فقد خلفه ابنه عبد الله الذي قام في بداية حكمه بقتل اثنين من إخوته ، وتعد هذه سابقة في التعامل مع شكل الخلاف الأسري الكثيري، وربما

جاءت هذه الخطوة إلى الصراع الطويل الذي عاصره السلطان عبد الله بين أبيه وأبناء أخيه والذي زعزع كيان السلطنة لهذا لجأ إلى هذا الإجراء القوي ليضع حداً للمنافسين والطامعين. ولم تشر المصادر إلى أسباب الخلاف. ويذكر شنبل[٨٣] أنه (يقال قتلهم لأمر جرى منهم عليه).

إن هذا الصراع الأسري الكثيري الذي بدأه أبناء الجيل الثاني في هذه المرحلة (حسب ترتيبنا) أصبح حلقة من حلقات صراع أسري كثيري امتد بامتداد السلطنة وكان أشهر أشكال هذا الصراع هو الذي جرى بين أبناء السلطان عبد الله الذي استمر ما يقرب من نصف قرن[٨٤].

إن السلطنة الكثيرية في هذه المرحلة هي سلطنة حربية قلباً وقالباً ، فلم تذكر المادة التاريخية التي حصلنا عليها حسب علمنا إلا أخبار الحوادث الحربية وبناء الحصون والقلاع . كما لا توجد إشارات تتعلق بالسلطنة و نشوء مؤسسات لها و لو بالشكل البسيط. ولا نعتقد أن ذلك إغفالاً من قبل المصادر بل نعزوه إلى أن السلطنة الكثيرية في هذه المرحلة لا تعدو كونها امتداداً جغرافياً لسلطة الأسرة الحاكمة الكثيرية ، وقد كلف الحفاظ على هذه الرقعة الجغرافية الوقت الكثير ، لهذا لم نقرأ لفظات مثل ، القصر ، كرسي العرش ، ولاية العهد ، الوزير ، التي تدل على وجود كيان للسلطنة بالشكل التقليدي المعروف. لقد تزامن الصراع الأسري الكثيري مع دخولهم في صراعات مع قوى متعددة في ساحل حضرموت وداخلها ، وأحياناً يتداخل هذا الصراع بحيث يصعب تجزئته ، فكيف سارت الخطوات الكثيرية في هذه المرحلة ؟ و ما مدى نجاحها و فشلها ؟

ثالثاً : علاقة السلطنة الكثيرية بالقوى المحلية في حضرموت :

١) صراع السلطنة الكثيرية في السواحل الحضرمية وموقف الدولتين الرسولية والطاهرية إزاءه:

في النصف الأول من القرن التاسع الهجري (الرابع والخامس عشر الميلادي) كانت مدينتا الشحر وظفار عرضة لهجمات القوى المتنافسة وهي الدولة الرسولية التي شهدت هذه الفترة بداية ضعفها ثم انهيارها ، و أمارة آل بادجانة في (حيريج) ، والسلطنة الكثيرية في وادي حضرموت ثم الدولة الطاهرية .

أما بالنسبة لأمارة حيريج ، فقد ظهرت في بداية القرن التاسع الهجري و كانت بلدة حيريج نفسها مركز هذه الأمارة . وهي ميناء من أعمال منطقة المهرة . وتقع بين مدينتي الشحر وظفار و لكنها أقرب جغرافياً إلى الشحر منها إلى ظفار[٨٥] . وكانت بداية الأعمال الحربية المعادية لآل كثير عندما تقدم الأمير سعيد بن فارس بادجانة من حيريج سنة (٨٣٢ هـ / ١٤٢٨م) على رأس قوة توجهت إلى ظفار بغرض السيطرة عليها ، مستغلة غياب (كاتب) آل كثير عن ظفار و ذهابه إلى داخل حضرموت[٨٦] . ولقد واجهت الحملة مشاكل عديدة تمثلت في هبوب الرياح و الأمطار الغزيرة في نجم (النطح)[٨٧] تكسرت في إثرها بعض طراريدهم[٨٨] واضطرت إلى الجنوح في الساحل ، ثم واصلت القوة المنهكة سيرها باتجاه ظفار ، ويبدو أن أخبار هذه القوة وصلت إلى السلطان عبد الله بن علي الذي جهز حملة لصد المهاجمين و سار لإنقاذ ظفار[٨٩] . ويذكر شنبل أنه لما علم بادجانة بقدوم السلطان عبد الله انسحب إلى حيريج قبل وصول السلطان باثني عشر يوماً[٩٠] . ويبدو أن انسحاب القوة جاء بعد المشاكل التي واجهتها ، فصعوبة المواصلات آنذاك وبعد المسافة بين وادي حضرموت وظفار يجعلنا لا نميل إلى قبول رواية شنبل .

وجّه آل بادجانة تحركاتهم إلى مدينة الشحر الأقرب إليهم من ظفار و لأهميتها الاقتصادية التي زادت في تلك الفترة . وتذكر الإحصاءات التي ذكرها سارجنت بخصوص عوائد ميناءي الشحر وظفار التي تعود لسنة (٨٠٣ هـ / ١٤٠٠م) في أواخر سيطرة

الرسوليين على هذين الميناءين أهميتهما فكانت حصيلة الضريبة على الشحر حوالي ٤٠٠٠٠٠ ديناراً وعلى ظفار ٤٢٠٠٠٠ دينارًا وإلى جانب هذه الإيرادات النقدية ، فقد كان كل ميناء يقدم مواد عينية وهو تقليد قديم منذ الدول اليمنية الرئيسة السابقة التي امتد نفوذها إلى السواحل الحضرمية[٩١] .

قاد الأمير محمد بن سعيد بادجانة الحملة الموجهة للسيطرة على الشحر بمساعدة أخواله قبائل المهرة الذين اعتمد عليهم ، ومنهم تألف معظم عسكره[٩٢]. و لا نعرف على وجه الدقة متى سيطر بادجانه على الشحر ، و تفاجئنا المصادر أنه في سنة (٨٣٦ هـ / ١٤٣٢م) صدّ حملة وجهها الرسوليون لاستعادة الشحر، أي أنهم سيطروا على الشحر[٩٣] قبل هذا التاريخ .

والجدير بالإشارة إلى أن حكم الرسوليين للشحر تأرجح بين القوة والضعف وكانت العشائر الحضرمية تنازعهم السلطة داخل المدينة وخارجها وتعكّر الأمن . وقد وصف المؤرخ بامطرف العلاقة بين العشائر الحضرمية و الرسوليين بقوله :

((... و ينزل الرسوليون العقوبة بالعشائر ، ولكن العشائر تعود فتشن الغارات المفاجئة ضدهم فيتصدى الرسوليون للمغيرين ، ولكنهم لا يلبثوا أن يكروا على الرسوليين من جديد في صورة من صور لعبة القط والفأر))[٩٤].

لقد أثارت سيطرة بادجانة على مدينة الشحر حفيظة كل من الرسوليين والسلطان الكثيري . أما الرسوليون فكانت حملتهم سنة (٨٣٦ هـ / ١٤٣٢م) آخر المحاولات لاسترجاع الشحر و آخر عهدهم بها و قد شاركتهم في هذه الحرب قوات كثيرية[٩٥] .

وبعد القضاء على هذه المحاولة عمل الأمير محمد بن سعيد بادجانة على تحصين مدينة الشحر ضد الطوارئ المحتملة لاسيما بعد أن جعلها مركزاً لإمارته ، كما شجع التجارة فيها وحسّن علاقاته مع القبائل المجاورة لاسيما الحموم[٩٦]، واشترى الكثير من المراكب الشراعية، وقد ساعدته الثروة التي تركها والده على القيام بكثير من الإصلاحات وشجعته على التفكير في توسيع إمارته الصغيرة[٩٧].

لقد شغل استيلاء محمد بادجانة على الشحر والإصلاحات التي قام بها السلطان عبدالله ابن علي الكثيري والذي رأى فيها تهديداً لوجودهم في ظفار وضربة لتطلعاتهم في السيطرة على السواحل الحضرمية. وحقيقة الأمر فإن بادجانة لم يُضيع الوقت كثيراً فقد هاجم ظفار سنة(٨٣٧ /١٤٣٣ م) مستفيداً من تدهور علاقة آل كثير مع قبائل القرى الظفارية التي قُتِلَ منها سبعون شخصاً غدراً ولكنه لم يتمكن من احتلالها[٩٨] .

أما تحركات السلطان عبدالله بن علي الكثيري فقد جاءت متأخرة بعض الشيء. ففي سنة(٨٤٨ هـ/١٤٤٤م) قام بمحاولة للسيطرة على الشحر وتحركت الحملة من وادي حضرموت في رمضان من السنة المذكورة ووصلت في شوال إلى قرية الحامي الساحلية إلى الشرق من الشحر فجرت معركة بالقرب منها انهزمت فيها القوات الكثيرية وقتل خمسون شخصاً من رجالهم [٩٩].

ثم أخذ الصراع على الشحر منحىً جديداً عندما برز الطاهريون في وسط اليمن وجنوبها مستفيدين من حالة الضعف التي تمر بها الدولة الرسولية وأقاموا دولتهم سنة (٨٥٠- ٩٢٣ هـ/ ١٤٤٦- ١٥١٧م) [١٠٠].

وكانت بداية العلاقات بين الطاهريين ومحمد سعيد بادجانة عندما طرد الطاهريون قبيلة آل كلد اليافعية من عدن فرحل معظمهم إلى الشحر وأغروا بادجانة بالاستيلاء على عدن وأقنعوه بأنهم يعرفون مواقع تسهل على قواته اقتحامها فجهز بادجانة تسعة مراكب تحركت في شهر ربيع الثاني ٨٦١ هـ /١٤٥٦ م[١٠١] وتكونت الحملة من قبائل يافع وبيت زياد وبيت محمد المهريين.[١٠٢]

وعلى الرغم من حرص بادجانة على أن تكون الحملة سرية حتى يحقق عنصر المفاجأة فإنه تسلل بعض المعادين لبادجانة من الشحر وإيصالهم خبرها إلى عدن دفع والي عدن إلى الاتصال بالسلطان الطاهري الظافر عامر والمجاهد علي بن طاهر لمساعدته في الدفاع عن المدينة[١٠٣] وزيادة في الاحتياط تأهب لمواجهة الحملة إلى حين وصول الإمدادات . وقد وصل السلطان الظافر بن عامر بجيشه إلى عدن قبل وصول بادجانة وهكذا اجتمعت أسباب فشل الحملة قبل بدئها بالهجوم على مدينة عدن ، وأشار بامخرمة[١٠٤] إلى تلك التطورات التي سارت في غير

صالح بادجانة، لاسيما بعد وصول التعزيزات إلى عدن ووصف حالة اليأس التي انتابت بادجانة وجعلته يفكر في العودة . ويرى بعضهم [١٠٥] أن عزم بادجانة على الانسحاب كان نوعاً من الخدعة والتمويه حتى يطمئن المدافعون عن عدن ثم يشن هجوماً مباغتاً ، وفي رواية أخرى إن بادجانة فضل الهجوم المباشر وكان غير عابئ بنصائح القادة من رجاله[١٠٦] وعلى أيّة حال فإن الرياح العاتية لم تمهل المهاجمين طويلاً وأتت بما لا تشتهي السفن وبخلاف القرارات في تلك الأوقات الحرجة. فجرفت الرياح سفن بادجانة إلى الساحل وتلقفتها قوات الطاهريين المتأهبين وأُسِرَ بادجانة ورجاله وقادته[١٠٧] وأُركِبَ بادجانة جملاً ليراه الناس وكان كما قال ابن الديبع : ((يوماً مشهوداً معظماً))[١٠٨].

وصفت المراجع أن بادجانة قد غرر به وأن قراره بالسيطرة على عدن كان خطأً كبيراً[١٠٩] وأنه لم يتبع نصيحة أمه التي وصفها مؤرخ معاصر لها أنها ذات حزم وعزم [١١٠]، وكان رأيها رأي وزير بادجانة وهو عدم نفاذ الحملة وأن ليس لها مبرر، والعمل المجدي يكمن في تقوية دفاعات الشحر من الهجمات الشمالية الكثيرة المحتملة والدخول في علاقات حسنة مع الطاهريين بوصفهم القوة الجديدة في جنوب اليمن ووسطها [١١١].

وفي رأينا أنه من الصعوبة بمكان إعطاء تقويم وموقف محددين من حملة بادجانة على عدن؛ لأن قرار الحملة له أبعاد و أهداف متشعبة، ونعتقد أن بادجانة انطلق في خياره لنفاذ الحملة من المنطلقات الآتية :

١. استغلال سقوط الدولة الرسولية وحداثة الدولة الطاهرية وانشغالها بترتيب أمورها الداخلية ومحاربة المناوئين لها .

٢. الاستفادة من الجنود اليافعيين الذين يعرفون مسالك مدينة عدن ومداخلها لإقامة نظام حكم جديد في عدن تابعاً له أو في الأقل حكم صديق يجنبه الإتاوات السنوية التي كانت تفرض على الشحر منذ مئات السنين (بغض النظر عن أهداف اليافعيين الخاصة) .

٣. الاستعداد من خلال التجهيز السري وتحقيق عنصر المفاجأة والاستفادة من القبائل المهرية الموالية له .

هذه المنطلقات الثلاثة المساعدة في حينه، تجعلنا نقول إن الحملة كلها لم تكن خطأ، فالمنطلقان الأول والثاني غير دائمين، وأن التفكير في استغلال الظرف في حينه كان صحيحاً. كما أن (لعبة) السلام والحرب هي لعبة المغامرة التي تحتمل الفشل والنجاح وإذا بدا أن موقف وزير بادجانة كان عقلانياً وهو التعامل الودي مع الطاهريين، أي الاستمرار في إرسال الإتاوات السنوية إذا طلبوها فإن بادجانة أراد أن يغير قليلاً في أصول اللعبة ويعيد ترتيب الأوراق والمناورات، فبدلاً من أن يكون قدر الشحر تبعيتها بشكل أو بآخر لعدن فعمل من أجل أن يحدث العكس أو في الأقل أن لا يكون طرفا تابعاً.

وبالنسبة لموقف السلطنة الكثيرية فإن هذه الحملة قدمت لهم خدمة من جانبين: أحدهما أنها أوجدت لهم الفرصة لمهاجمة الشحر مستغلين خروج أميرها وقسم كبير من جيشه إلى عدن، والآخر أن الهجوم على الشحر سيقربهم من الطاهريين وسيوجد تحالفاً غير معلن بينهم وهذا يعني زيادة الاحتمال في أن يكون لهم مكان في الترتيبات التي ستحدث في الشحر فيما لو فشلت الحملة يدعم ذلك موقفهم الأخير وعداؤهم القديم لبادجانة. وفعلاً هاجم الكثيريون الشحر في عام الحملة نفسه(٨٦١هـ /١٤٥٦م) ولكنهم فشلوا في السيطرة عليها[١١٢]، وربما كان بادجانة قد توقع هذا الهجوم وعمل على إقامة إجراءات ساعدت على صد الحملة.

وعلى أيّة حال فإن من أبرز نتائج فشل حملة بادجانة على عدن هي احتلال الطاهريين للشحر، ولكن بروايتين مختلفتين: الرواية الأولى تقول إن السلطان عامر بن طاهر جهز حملة بحرية من عدن وسيطرت على الشحر سنة (٨٦٥ هـ /١٤٦٠م) [١١٣]. والرواية الثانية الشائعة تقول إن الأمير بادجانة ظل أسيراً لدى السلطان عامر في عدن عامين كاملين حتى سلمت أمه الشحر إلى الطاهريين مقابل إطلاق سراح ابنها وذلك سنة(٨٦٣ هـ - ١٤٥٨م)[١١٤].

أما الكثيريون فلم يظفروا بشيء وظلوا يتوددون للطاهريين لأجل النيابة لهم على الشحر ويبدو أن الطاهريين فضلوا في بداية الأمر إدارة الشحر مباشرة من قبلهم. ولم يكونوا يدركون خطورة منافسيهم آل بادجانة الذين كانوا يحتفظون بقواتهم في حيريج القريبة من الشحر، وفعلاً شنوا هجوماً على الشحر سنة (٨٦٤ هـ /١٤٥٩م) وتمكنوا من السيطرة عليها وأخرجوا نواب الطاهريين منها.[١١٥]

ولم يكن رد السلطان عامر بن طاهر سريعاً فلعله أدرك خطورة مقاتله آل بادجانة بالقرب من مراكز نفوذهم لهذا استعد بعد سنتين من احتلال بادجانة للشحر بحملة كبيرة فقد ذكر بامخرمة أن أجرة الجمال التي حملت الأثقال بـ (١٢) ألف دينار[١١٦] . وعندما أدرك بادجانة حجم الجيش الطاهري غادر الشحر وفضل عدم المقاومة ولم يحدث قتال كما ذكر البعض[١١٧] . ولكن أعمال النهب انتشرت في المدينة عند دخول القوات حتى أمر السلطان بالكف عنها[١١٨].

وكان من أهم نتائج الحملة الطاهرية على الشحر إشراف آل كثير الجزئي على مدينة الشحر وذلك بطلب من السلطان الطاهري عامر بن عبدالوهاب[١١٩] . فلعله أدرك خطأ عدم الاعتماد كلياً على آل كثير في المرة السابقة التي نتج عنها عودة بادجانة للسيطرة على الشحر كما ذكرنا .

وكيفما كان الأمر فإن دور المساعد في الإشراف على الشحر لم يستمر عليه الكثيريون طويلاً فقد استخلفهم الطاهريون على حكم الشحر سنة (٨٦٧هـ/١٤٦٢م) [١٢٠]، وكان الواجب أن ينوب عنهم الأمير بدر بن محمد الكثيري ولكن عم السلطان بدر سبقه وأخذها كما يقول السقاف من غير تعب ولا قتال[١٢١] ولم يثر هذا الإجراء حفيظة الطاهريين. وعلى أية حال فإن السلطان بدر بن عبدالله عين ابن أخيه محمداً نائباً عنه في الشحر عندما اصطلحا بعد صراعات أسرية سبقت الإشارة اليها.

الجدير بالملاحظة أن آل كثير أدوا مرة ثانية دور النيابة في الشحر أهم مدن ساحل حضرموت كما كانوا في بداية عهدهم، أدوا دور النيابة للحبوظي حاكم ظفار ولاشك أن حكمهم للشحر بالإنابة في بداية الأمر جعل لهم أقداماً راسخة فيها وكانت خطوة من خطوات استحواذهم على حكمها . غير أن آل بادجانة ظلوا يثيرون المشاكل لهم ويتحينون الفرص ففي سنة(٨٧١ هـ /١٤٦٦م) قاموا بمحاولة لمهاجمة الشحر[١٢٢].

وأمام هذا التهديد المستمر من آل بادجانة قام الكثيريون باتخاذ إجراءات وقائية بأن هاجموا حيريج سنة (٨٧١هـ /١٤٦٦م) ولكنهم لم يستطيعوا القضاء على آل بادجانة[١٢٣] ، وظلت حلقة الصراع مستمرة وسجالاً بين الفريقين حتى وجدنا هناك خلطاً وتناقضاً بين

المصادر وخاصة في تحديد سنة السيطرة الأخيرة لبادجانة على الشحر. وفي الوقت الذي اختلف المؤرخون في سنة الحملة ، فإنهم اتفقوا على كونها كانت برّية و بحرية وبقيادة سعيد ابن مبارك بادجانة والذي تمكن من السيطرة على الشحر وطرد آل كثير منها.[١٢٤]

جرت محاولة كثيرية سنة (٨٩٨ هـ /١٤٩٢م) لاسترجاع الشحر تزعمها الأمير بدر بن محمد الكثيري ويبدو أنها غير رسمية فقد اعتمد على نفس القبائل التي اعتمد عليها بادجانة في سيطرته على الشحر وهم أفخاذ من قبيلة سيبان، ولأن هدف هذه القبائل هو النهب والسلب فلم تذعن له وسرعان ما دبّ الخلاف بينهم وانفضوا من حوله[١٢٥] .

كان لسقوط الشحر بيد بادجانة أثره الواضح في إضعاف الموقف الكثيري . ويبدو أن عملية الاسترجاع تحتاج إلى قيادة كثيرية جديدة وليست القيادة الكثيرية الهرمة المتمثلة في السلطان بدر بن عبدالله الكثيري والذي حكم مدة ٣٩ سنة . وفعلاً في عهد أخيه السلطان جعفر جهز حملة كبيرة توجهت إلى الشحر في شهر رمضان سنة (٩٠١ هـ /١٤٩٥م) واستعان بحلفائهم من بيت زياد المهري ، وحاصر المهاجمون الشحر لمدة ٢٠ يوما ولكنهم لم يتمكنوا من دخولها [١٢٦]. فانتقلت الحملة إلى قرية تبالة كمحطة لرحلة العودة إلى وادي حضرموت [١٢٧].

ونستطيع القول إن الأمير سعيد بن مبارك بادجانة ويتصرف خاطئ أوجد فرصة القتال بين الفريقين عندما أرسل بعض قواته لقتال الكثيريين في تبالة ، ظناً منه أن ذلك سيقضي على المهاجمين وحتى لا تتكرر محاولتهم ، وكيفما كان الأمر فقد جرت بين الجانبين معركة انتصرت فيها القوات الكثيرية وتشتت شمل قوات بادجانة وتتبعت القوات الكثيرية فلولهم إلى مدينة الشحر[١٢٨] ، وكان لهذا النصر الكاسح وغير المتوقع أثره في قبول الأمير سعيد بن مبارك بادجانة تسليم الشحر مقابل الأمان له [١٢٩]وقيل هرب وجماعته وطلعوا البحر[١٣٠] . ومهما يكن من أمر فبعد هذا الانتصار الكثيري في تبالة احتفظ آل كثير بالشحر حتى نهاية السلطنة الكثيرية الأولى . وقد جرت سنة (٩٠٢ هـ / ١٤٩٦م) محاولة أخيرة ويائسة من قبل سعيد بن مبارك بادجانة بالتحالف مع عبدالودود الكثيري في الريدة [١٣١]وفي رواية أخرى مع عبدالودود بن سدة في ميفعة[١٣٢] ولكنهم تفرقوا بغير طائل[١٣٣] .

لقد تزامنت هذه الانتصارات في ساحل حضرموت مع انتصار ابن السلطان جعفر في معركة الخبّة قرب شبام في أثناء الصراع الأسري الذي ذكرناه . ويعني هذا أن أقدام السلطنة الكثيرية ترسّخت في ساحل حضرموت وداخلها ومثّل هذا مرحلة سابقة لمرحلة التوسع في أطراف حضرموت وخارجها ، ولكن قبل هذه المرحلة الأخيرة كيف تمكن الكثيريون من ترسيخ نفوذهم في داخل حضرموت ، في ظل أمواج من التهديدات المعقدة والمتنوعة ؟ هذا التساؤل سنحاول أن نبحث له عن إجابات في المبحث الآتي.

٢) صراع السلطنتين الكثيرية واليمانية وموقف القوى القبلية المحلية الأخرى منه :

احتل الصراع بين السلطنة الكثيرية والسلطنة اليمانية في داخل حضرموت حيزاً كبيراً من مجمل الصراع القبلي الذي جرى فيها ، بل كان هذا الصراع هو المحور الذي دارت حوله معظم الصراعات والمعارك القبلية . و لأن هاتين السلطنتين تعاصرتا في معظم عهديهما فإن الصراع امتد مع امتداد حكمهما في حضرموت .

و تعدّ سلطنة آل يماني تاريخياً أسبق من السلطنة الكثيرية في الوجود في حضرموت ، لهذا فقد رأى آل يماني في آل كثير قوة جديدة تريد أن تؤسس لها كياناً سياسياً و تتوسع على حسابها ، و كانت الحرب بين السلطنتين في معظمها سجالاً .

فقد تأرجحت مواقف القبائل الحضرمية من هذا الصراع ففي حين استمر تحالف بعض القبائل مع أحد قطبي الصراع لفترات طويلة كآل ابن جسّار حلفاء آل يماني ، نجد أن معظم القبائل الحضرمية الأخرى كانت محايدة أو مشاركة وفقاً لمصالحها الآنية ، وتتغير الولاءات مع تغير المصالح . لهذا نستطيع أن نقول إن القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) هو قرن الصراع بين السلطنتين الكثيرية واليمانية في حضرموت و استمر هذا الصراع حتى العقد الثالث من القرن العاشر الهجري (النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي) عندما تمكن الكثيريون من دخول تريم .

ولعل طول أمد الصراع يجعل السؤال يضع نفسه هنا وهو لماذا طال أمد الصراع ؟ و لماذا لم تتمكن إحدى السلطنتين من القضاء على الأخرى ؟ و للإجابة عن هذه الأسئلة نعتقد أن التوازن القبلي النسبي بين السلطنتين وحلفائهم كان أهم أسباب استمرار التنازع والاقتتال، بل يوجد هناك توازن خارج إرادة الطرفين وهو توازن الصراع الأسري الذي عانت منه السلطنتان من أجل السيطرة على الحكم ، وقد حاول كل طرف الاستفادة من المشاكل الأسرية الداخلية لتحقيق مصالح معينة و قد تزامن الصراع الأسري التقليدي بين السلطنتين حتى أصبح جزءاً من محور الصراع القبلي في حضرموت .

ومن ذلك عندما حدث خلاف سنة (٨٢٢ هـ / ١٤١٩م) بين سلطان تريم دويس بن راصع (٨١٣- ٨٤٤ هـ / ١٤١٠- ١٤٤٠م) و صهره وحليفه محمد بن أحمد بن جسّار سلطان (المسفلة) أدى ذلك إلى اتصال ابن جسّار بابن أخي سلطان تريم وهو يماني بن محمد بن راصع و أثاره على عمه ووعده بالمساعدة ، و عند ذلك وجد آل كثير الفرصة سانحة للتدخل و اشتركوا في الحلف المعادي لسلطان تريم و تمكنوا من الاستيلاء على معظم حصون دويس بن راصع في القرى المجاورة لتريم[١٣٤] ، و ترك لعمه بلدة دمون[١٣٥] .

وكان من نتيجة هذا الصراع أن أوجد تقارباً كثيراً يمانياً مؤقتاً . فقد (عدّل)[١٣٦] يماني بن محمد ابن راصع مدينة سيئون للسلطان عبدالله بن علي الكثيري على الطيب أي جعلها وثيقة على الوفاء . ولكن هذه الصداقة لم تستمر؛ إذ سرعان ما تمكن دويس بن راصع من استعادة معظم الحصون التي خسرها ، الأمر الذي يعني استمرار مسلسل الصراع بين الكثيريين و اليمانيين كما كان .

ففي سنة (٨٢٨ هـ / ١٤٢٤م) احتلت قوات دويس بن راصع قرية خويلة[١٣٧] ، وأخرج منها الكثيري ، ثم تمكن الأمير الكثيري في العام نفسه من استرجاعها . و إمعاناً في الانتقام قام بقطع خريف العجز[١٣٨] ، وأحرق نخيلها واستخدم أسلوب الأرض المحروقة وتخريب المزروعات[١٣٩] الذي يعد أسوأ عادات الحضارم في القتال .

وكان السلطان دويس بن راصع معاصراً للسلطان الكثيري الثاني عبد الله بن علي الكثيري وخصمه القوي ، وقد سجلت المصادر الكثير من الوقائع الحربية بينهما في عهديهما .

ـ شهدت سنة (٨٣٣ هـ / ١٤٢٩م) ازدياد حدة الهجمات المتبادلة و الإغارات الخاطفة من قبل الفريقين ، فالسلطان عبد الله الكثيري كان يأمل أن يضع حداً للنزاع مع آل يماني ويكمل ما بدأه أبوه في بناء السلطنة الكثيرية . أما دويس بن راصع فقد وجد في هذه السلطنة الناشئة التي امتدت في مناطق كانت تحت نفوذ آل يماني و كذلك الخطوات المتدرجة التي قامت بها ، وجد في كل ذلك تهديداً مباشراً لسلطنتهم في تريم و ما جاورها . ففي هذه السنة هجم الأمير محمد بن علي الكثيري (شقيق السلطان) على تريم و كان هدفه الاستيلاء على موسم حصاد الذرة (أو كما يسمى محلياً حصاد الشتاء) ولكن حال دون ذلك وساطة السيد عمر بن عبد الرحمن بن علوي المحضار[١٤٠] الذي توجه إلى السلطان فقبل وجاهته وأطاعه ولم يغير شيئاً[١٤١].

ورداً على هذا الهجوم قام (السلطان) دويس بن يماني بهجوم مضاد على بلدة بور معقل آل كثير في السنة نفسها وقتل ١٥ رجلاً من آل كثير وحلفائهم ، كما خرب قمار نخيل البلدة و أحرق أجزاء منها ، مستغلاً وجود السلطان عبد الله في ظفار لصد هجمة بادجانة عليها[١٤٢] . ويبدو أن توقيت الهجوم كان مقصوداً فمن جهة استفاد من حالة الفراغ المؤقت الذي تركه غياب السلطان عبد الله ، ومن جهة ثانية كان نوعاً من الضغط و الإرباك وخلخلة الجبهة الداخلية حسب التعبير الحديث.

وعلى أيّة حال فإن رد السلطان الكثيري كان سريعاً ، فقد خرج من ظفار و هاجم تريم بمائتي فارس و ٥٠٠ راجل[١٤٣] و قابله السلطان ابن يماني بجنوده ، وجرت بين الفريقين معركة عنيفة في وسط مدينة تريم وداخل ساحة جامعها و في الشوارع ، و قد دافع آل يماني دفاعاً قوياً لأن الهجوم كان في عقر دارهم[١٤٤] . ولم يتمكن الكثيريون من إخضاع تريم بل سيطروا فقط على بعض الحصون وقتل من آل كثير نحو عشرة أشخاص و أشهرهم الأمير بدر بن علي شقيق السلطان ثم خرج السلطان عبد الله من تريم و توجه إلى ظفار لمحاربة بعض أعدائه[١٤٥] .

ومن مظاهر تسارع الأحداث و تلاحقها بين الجانبين ما حدث سنة(٨٣٧ هـ / ١٤٣٣م) عندما سيطر آل كثير على بلدة دمون بمساعدة بعض رجال الحامية اليمانية ، و لكن ابن يماني

استعادها بسرعة[١٤٦]. و تأتي أهمية بلدة دمون بالنسبة لآل يماني لكونهـا تعد البلدة الثانية بعـد تريم ، و بقـاء سـيطرتهم عليهـا يعـد مظهـراً مـن مظـاهر وجـود سـلطتهم في وادي حضرموت. لهذا كان رد آل يماني سريعـاً في استعادتها .

وتدفع التحالفات القبلية للسلطنتين إلى استمرار الصراع والتناحر . فعلى سبيل المثال نجد أن أحد رؤساء قبائل الصبرات وهو عقيل بن عيسى الصبري يذهب إلى ظفار سنة (٨٣٩ هـ/ ١٤٣٥م) و يطلب من السلطان الكثيري المساعدة ضد أعدائه . فلبى السلطان الطلب فتقـدم إلى حضرموت مع الصبري وهاجم منطقة اللسـك التي يوجد فيها آل جسار الخلفاء التقليديون لآل يماني، كما قطعت قواتهما نخلاً كثيراً في اللسك ، وحاصرت بلدة (يـفل) [١٤٧]. وخربت بعض القرى التي بناها آل كثير وتخلوا عنها حتى لا يستفيد منها أعداؤهم[١٤٨].

وعودة إلى محور الصراع نجد في سنة (٨٤٢ هـ / ١٤٣٨م) أن قوات السلطان دويس بن راصع تتحرش بالحصون الكثيرية مستغلة للمـرة الثانية وجود السلطان الكثيري في ظفـار ، ويعود السلطان عبد الله إلى داخل حضرموت ليتابع التطورات الأخيرة ويحاصر تريم و يضيق الخناق عليها ببناء المعاقل حولها[١٤٩].

ثم تابع الكثيري جهوده الحربية و حاصـر سيئون فترة قصيرة حتى تمكن من السيطرة عليها سنة (٨٤٢ هـ / ١٤٣٨م) [١٥٠]، وعلى الرغم من أن مدينة سيئون لا تحتل أهمية كبيرة في حينه، فإنَّ سيطرة آل كثير عليها مثلت خطوة ساعدت على حصر نفوذ سلطنة آل يماني في شرقي حضرموت . وفي هـذه السنة امتد التحرك الكثيري إلى غربي حضرموت وحاولت القوات الكثيرية السيطرة على بلدة الهجرين [١٥١]بوادي دوعن، وحدث بينهم و بين آل محفوظ الكنديين قتال [١٥٢].

و لا ندري سبب إغارة السلطان عبد الله على الهجرين ، و ربما يتعلق الأمر بالمساعدة التي قدمها آل محفوظ و غيرها من القبائل الكندية إلى أبى بادجانة (الكندي) في ساحل حضرموت . وعلى العموم فقد كان السلطان عبد الله متخبطاً في هذه التحركات ، فقد سيطر على منطقة العجز و شرع في بناء حصن لها ثم قام بهدمه وهو على وشك الاكتمال[١٥٣] .

وتنوعت عوامل الصراع في حضرموت ، فالمكائد الأسرية بين آل يماني قد استفحلت ، وحدث داخلها ما يشبه الانقلاب السياسي و ذلك سنة (٨٤٤ هـ / ١٤٤٠م) عندما تعرض السلطان دويس بن راصع لهجوم من قبل أبناء عمه راصع و عبد الله ابني يماني وبمساعدة عبيده ، وسيطروا على الحصن الذي يوجد فيه السلطان دويس[١٥٤] ، و استولوا على ما وجدوه في الحصن من الحلي الفضية والذهبية . وخططوا لشراء بعض الخيول كنوع من الاستعداد الحربي المستقبلي ، وفعلاً خرج عبد الله بن يماني من تريم وسار باتجاه جبال الكسر التي توجد بها قبائل نهد المعادية للكثيريين[١٥٥] .

ولكن الكثيريين لم يكونوا بعيدين عن مجرى الأحداث و الصراعات الأسرية اليمانية في تريم فقد علموا بالتحركات التي ينوي القيام بها عبد الله بن يماني و تابعوه ثم سبقوه إلى وادي العين بالكسر و قتلوه وأخذوا ما معه في عملية تشبه عمليات قطاع الطرق[١٥٦] .

لقد أقلقت الأعمال الجريئة التي قام بها الكثيريون (سواء أكان اعتراض ابن يماني أو أعمالهم الحربية التي قبلها) القوى القبلية المناوئة لهم في داخل حضرموت ، و شعروا بخطورة هذه الأعمال عليهم في المستقبل ، لهذا حدث تقارب في اتجاهين : الأول على صعيد الأسرة اليمانية فقد عقد صلح بين الأسرتين المتنافستين سنة (٨٤٥هـ / ١٤٤١م) (وعدّلت) كل أسرة المدينة التي تسيطر عليها كنوع من إثبات حسن النيات[١٥٧] . و الاتجاه الثاني اجتماع كل من آل ابن جسّار و الصبرات و بعض آل كثير و آل ثعلب وصاحب مريمة القريبة من سيئون ، للتحالف على معاداة السلطنة الكثيرية ، و هاجموا بلدتي بور و شبام كما استولوا على حصن الغرفة[١٥٨] .

لم تقف السلطنة الكثيرية مكتوفة الأيدي تجاه هذه الأعمال الموجهة في الأساس للقضاء على مركزها في وادي حضرموت . فبعد مرور شهرين من تلك الأعمال هاجم الأمير محمد عبد الله الكثيري تريم وأخرج منها سلطانها و حاصر قرية (يفل)[١٥٩] . وتظهر هذه التطورات مدى قوة السلطنة الكثيرية فهي لم تتصد للحلف المعادي بل بادرت بالهجوم.

و يمكن القول أن المعارك الأخيرة هذه تميزت بكثرة أعمال التخريب و الاستنزاف الاقتصادي ، فأقدم كل فريق بما يشبه العمل المدبر بمهاجمة المزروعات لاسيما أشجار النخيل[١٦٠]

التي غالباً ما تكون في بطن الوادي و يصعب حمايتها – كما سبقت الإشارة – . و يبدو أن هذه الحروب التي أكلت الأخضر واليابس لكلا الفريقين المتنازعين جعلتهما يدخلان في صلح غير معلن لمدة عشر سنوات حيث هدأت فيها الأحداث . ولعل المتحاربين لم يجدوا شيئاً يستحق التخريب و الهجوم فانتظروا حتى يستعيد الناس والمزارع عافيتهم .

تجددت المناوشات بين الفريقين سنة (٨٥٤ هـ / ١٤٥٠م) و كانت جموع اليمانيين كثيفة هذه المرة . فإلى جانب أفراد الأسرة اليمانية شاركت معهم قبيلة الصبرات التي كثيراً ما تغير ولاءها بين الفريقين و قبيلة الظلفان النهدية عدوة آل كثير التقليدية . وقد هاجم المتحالفون بلدة بور و بعض الحصون الكثيرية ، أما السلطان محمد بن عبد الله الكثيري فقد أرسل إليهم جيشاً بقيادة ابنه علي و كادت تحدث معركة كبيرة لولا تدخل المصلحين الذين أقنعوا الطرفين بعقد هدنة لمدة سنة [١٦١].

غير أن الهدنة لم تصمد طويلاً إذ اتهم آلُ كثير آلَ يماني بخرق اتفاقية الصلح فنشب القتال بينهما و انتصر فيها الكثيريون ، و في هذه الأثناء توفي السلطان محمد فجأة سنة (٨٥٥هـ / ١٤٥١م) ، فحاول آل يماني استغلال حالة الإرباك التي حدثت بسبب موت السلطان المفاجئ و تشجعوا على شن هجوم محدود و انتقامي لتعويض خسائرهم السابقة[١٦٢].

وبالنسبة لآل كثير فقد تولى السلطنة السلطان بدر بن عبد الله شقيق السلطان السابق ، وكان أول أعماله مواجهة التحركات اليمانية الأخيرة و قاد بنفسه جيشاً توجه به إلى تريم والتقى بقوات آل يماني في معركة مشهورة تسمى بواقعة (باجلحبان) [١٦٣] و هي منطقة سهلية مفتوحة و نموذجية لمعارك السلاح الأبيض وإبراز كل فريق قدراته القتالية.

وعلى أيّة حال فقد انتصر آل كثير وقتل من آل يماني نحو المائة، وبعد شهرين من هذه المعركة عقد صلح بينهما سمي صلح الغدير[١٦٤] توسط فيه السيد عبد الله بن أبي بكر العيدروس العلوي[١٦٥]. وفي سنة(٨٦٠ هـ/١٤٥٥م) تجدد الصلح بين السلطان الكثيري بدر و السلطان اليماني سلطان بن دويس(٨٤٤- ٨٧٢هـ / ١٤٤٠- ١٤٦٧م) بوساطة السيد عبد الله العيدروس نفسه ، و اتفقوا على احترام بعضهم بعضاً ، وممتلكاتهم في منطقة صوح ، أو كما قال المؤرخ شنبل (كل له حلاله) [١٦٦]، وفي السنة التالية عقد صلح آخر عدّل

بموجبه السلطان بدر قرية العجز ، و(عدل) بن جسّار اللسك لبدر[١٦٧] . وضمن ابن كثير جماعة من آل كثير ، وهذا يعني أن من آل كثير من هو متحمس للصلح و يلقى ثقة الفريقين. و لكن سنوات السلام لم تدم طويلاً إذ تفاجئنا المصادر بتجدد الصراع بعد نحو أربع سنوات ، ولكن مصادرنا تضعنا في الإغلب في قلب الأحداث دون سرد تفاصيل للصراعات فهي كعادتها لا تشفي غليلاً و لا تشبع فضولاً ، و ربما تكون أسباب الصراع طفيفة و متكررة بحيث لم يكلف مؤرخو نا المحليون أنفسهم عناء ذكرها .

و كيفما كان الأمر ففي سنة (٨٦٥ هـ / ١٤٦٠م) أغار السلطان بدر الكثيري على تريم على حين غرة و قتل عدداً من رؤساء آل يماني ثم عقد صلح بينهما[١٦٨] . و يبدو أن سيطرة الطاهريين على الشحر في هذه السنة هي التي أنعشت الكثيريين وأرادوا أن يؤكدوا على وجودهم وفاعليتهم في المنطقة .

و الجدير بالإشارة أن هذا الصراع الطويل بين الفريقين في داخل حضرموت تغيرت فيه موازين القوى لصالح الكثيريين لاسيما منذ العقد السابع من القرن التاسع الهجري (العقد السابع من القرن الخامس عشر ميلادي) ، فمعظم الهجمات و المعارك نجدها في تريم أو حواليها ، بمعنى آخر أن السلاطين اليمانيين منذ هذه الفترة كانوا، في الأغلب، في موقع الدفاع ، وحقيقة هذا التغير لم تأت من فراغ فالسلطنة الكثيرية أصبحت مسيطرة على معظم الساحل الحضرمي لاسيما الشحر ثغر حضرموت الرئيس[١٦٩] . ومن أمثلة المعارك التي حدثت في تريم أو مناطق نفوذ السلطنة اليمانية ما حدث سنة (٨٧٢ هـ / ١٤٦٧م) من اقتتال في منطقة (صوح) [١٧٠] حيث تمكنت القوات الكثيرية بقيادة الأمير جعفر بن عبد الله الكثيري من قتل عشرة أشخاص من آل يماني بمنهم ابن السلطان اليماني نفسه[١٧١] .

وفي سنة (٨٧٥ هـ / ١٤٧٠م) أغار آل يماني على بلدة بور وقتلوا دواباً كثيرة ثم انسحبوا[١٧٢]، ويبدو أن هدف المغيرين لم يكن الاستيلاء على البلدة وإنما التخريب و الأذى الاقتصادي ، أعقب هذه الغارة رد كثيري سريع انطلق من بلدة بور و حدثت معركة بموضع من منطقة صوح يسمى (باعطيس) وانتهت بانتصار الكثيريين[١٧٣] .

واستكمالاً لمظاهر الضعف عند اليمانيين نلحظ اشتداد الصراع الأسرى بينهم وانقسامهم على أنفسهم و أصبح الكثيريون وسط هذا الخلاف من خلال تحالفهم مع أحد طرفي الأسرة المتنازعة، ففي أواخر سنة (٨٨٥ هـ / ١٤٨٠م) قام الأخوان عبد الله و يماني ابنا راصع بحصار تريم وبمساعدة من الأمير جعفر بن عبد الله الكثيري و قبائل آل عمر و آل باعمر النهدية وتمكنوا من احتلالها سنة(٨٨٦ هـ / ١٤٨١م)[١٧٤] وظلت بأيديهم إلى أن استردها السلطان محمد بن أحمد بن سلطان اليماني في بداية سنة (٨٨٩ هـ/١٤٨٤م) و أخرج منها خصومه أبناء عمه الذين استنجدوا بحليفهم الأمير محمد بن بدر الكثيري فلبّى وجيّش على تريم بمساعدة بعض القبائل النهدية و دخلوا تريم و أجبروا حكامها على مغادرتها و توجهوا إلى شماليّ اليمن[١٧٥] . أما السلطان عبد الله بن راصع فقد عاد والياً على تريم بتأييد الكثيريين وأخذ شرعية حكمه من رضى الكثيريين عنه . أما آل كثير فأصبحت سيطرتهم موجهة لتريم ، وتعد مرحلة وسطى بين سيطرتهم الكاملة وعدم السيطرة .

ولكن هذا ليس نهاية فصول الصراع ففي سنة (٨٩٣ هـ / ١٤٨٧م) عاد السلطان اليماني المنفي محمد بن أحمد بن سلطان و تمكن من استرجاع بعض الحصون اليمانية وساعدته قبائل آل جسّار والصبرات و آل ثعلب .و بني حارثة . ويبدو أن حشده لهذه القبائل كان مخططاً له قبل عودته . أما مدينة تريم فقد استمر حصار حصنها لمدة ستة أشهر حتى قدم السلطان جعفر بن عبد الله الكثيري من ظفار على رأس قوة وتمكن من دخول تريم و فك حصار حصنها سنة (٨٩٤ هـ / ١٤٨٨م) وكان فيها الأمير عبد الله بن محمد الكثيري [١٧٦] . ورغم هذا النصر الكثيري فإنَّ كثيراً من الحصون ظلت بيد فرع الأسرة اليمانية المعادي لآل كثير ، كما ظلت المعارك تحوم حول تريم ففي سنة (٨٩٥ هـ /١٤٨٩م) حدثت معركة (بريح) وهي موضع شرقي تريم كان قائد القوات الكثيرية الأمير محمد بن عبد الله بن جعفر الكثيري . وما يميز هذا الحلف هو انضمام آل جسار للكثيريين بعد أن كانوا دائماً في الصف المعادي لآل كثير . أما القبائل المتحالفة مع سلطان تريم فهي قبيلة الصبرات مقابلة الولاء وبني حارثه . وقتل في هذه المعركة أكثر من أربعين رجلاً من الطرفين[١٧٧] .

وفي بداية القرن العاشر الهجري (أواخر الخامس عشر و بداية السادس عشر الميلادي) كان آل يماني طرفاً في الصراع الأسري الكثيري و مشاركين في معركة (الخـبه) تحت شبام التي سبقت الإشارة إليها ، وبطبيعة الحال كان هدفهم الاستفادة من هذا الصراع ، و إضعافاً للصف الكثيري. و لا ندري على وجه الدقة كيف كان وضع تريم السياسي بعد معركة بريح المذكورة ، و تذكر المصادر أن تريم (عدلت) للسلطان عبد الله بن جعفر الكثيري من قبل حليفهم عبد الله بن راصع سنة (٩٠٦ هـ / ١٥٠٠م)[١٧٨] ، أي أنها كانت حينئذ تحت سيطرته ، وربما جاءت هذه السيطرة بعد وقوف أبناء عمه في الحلف المعادي للسلطان جعفر في موقعة الخبة و بعد انتصار السلطان جعفر على أعدائه وجدت ترتيبات لصالح السلطان عبدالله بن راصع حليف الأسرة الكثيرية .

وبعد وفاة السلطان عبد الله بن جعفر الكثيري سنة (٩١٠ هـ / ١٥٠٤م) تولى السلطنة ابنه محمد ، وكان أول أعماله بعد توليته السلطنة مباشرة مهاجمة تريم ، التي حاول فيها عبدالله بن راصع و بمساعدة بعض القبائل الخروج عن طاعة الكثيريين . وفي هذا الهجوم انتصرت القوات اليمانية التي كانت متوقعة الهجوم و استعدت بسلسلة من الكمائن[١٧٩] . ثم عقد السلطان عبد الله بن راصع صلحاً مع الكثيريين أعاد بموجبه تعديل مدينة تريم مرة أخرى للسلطنة الكثيرية[١٨٠] . و يبدو أن السلطان عبد الله بن راصع لم يتوقع هذا الرد السريع من السلطان الجديد ، ورغم تصديه لهذا الهجوم فقد فضّل عدم فتح جبهة جديدة هو في غنىً عنها ، فأبناء عمه يتربصون به الدوائر . و لم تطل إقامة السلطان عبد الله بن راصع في تريم ففي سنة (٩١٢ هـ / ١٥٠٦م) دخل أبناء عمه إلى تريم و سيطروا عليها و قتل هو وابنه[١٨١] . وكنوع من إبراز حسن النية تجاه الكثيريين ولكسب الوقت من قبل سلطان تريم الجديد محمد بن أحمد بن سلطان عدّل تريم للسلطنة الكثيرية[١٨٢] كما كانت في عهد سلفه ، وبمعنى آخر كأنه أراد أن يقول لآل كثير إن الصراع على مدينة تريم هو صراع أسري و إن حقوقكم فيها محفوظة .

تغير الوضع في تريم في ١٥ محرم (٩١٤ هـ / ١٥٠٨م) و ذلك بسبب وقوف السلطان الكثيري إلى جانب ابن جسّار عندما دخل الأخير في صراع ضد سلطان تريم ، وعندما قدم السلطان الكثيري الدعم لابن جسّار باعتباره حليفاً لهم انتهت (عدالة) آل كثير لتريم[١٨٣]

لتصبح احتمالات المواجهة مفتوحة . ففي شهر رمضان من السنة المذكورة تقدم آل كثير ومعهم آل جسار إلى تريم وكانوا كما وصفهم شنبل (على نية فاسدة)[١٨٤] وبالقرب من تريم في موضع يسمى (المجف) جرت معركة انتصر فيها أهل تريم في أول الأمر ثم دارت عليهم وانتصر آل كثير و قتل من الطرفين نحو الأربعين[١٨٥] .

ومن الملاحظ أن هذه المعارك العديدة بين الكثيريين واليمانيين لم تتخذ شكل الحرب التي يحقق فيها المنتصر تغييرات جذرية لصالحه ، بل هي لا تعدو كونها معارك ثأرية تشبه حروب الثأر و الإغارة العربية القديمة . وتزخر مصادر الحوليات الحضرمية بذكر الهجمات الصغيرة هنا و هناك ، ولعل من نافلة القول الإشارة إلى أن هذه الصراعات جاءت في غياب الدولة أو السلطة القوية ذات الشوكة الفعالة .

ويبدو أن السلاطين سئموا هذا النزاع فقد اتفق كل من السلطان محمد بن عبد الله الكثيري و السلطان اليماني محمد أحمد بن سلطان على الصلح لمدة ست سنوات و ذلك في سنة (٩١٤ هـ / ١٥٠٨م) أي بعد معركة المجف الأخيرة ، و يعد هذا الصلح من أبرز نتائجها . و بموجب هذا الصلح عدل الكثيري حصن الغرفة و عدّل آل يماني دمون (و كل من حلفه تحت العافية)[١٨٦] أي كل طرف يلتزم بمنع حلفائه من القيام بأي أعمال معادية للطرف الآخر.

وهكذا يتضح من هذا العرض مدى الصعوبات التي واجهها الكثيريون منذ خطواتهم الأولى لتأسيس السلطنة . فقد اصطدموا بالكيانات السياسية القبلية الصغيرة التي كانت قائمة في حضرموت ، التي رأت في التحركات الكثيرية خطراً يهدد سلطتها المحلية ، و لكن الصمود و الإصرار الكثيري أدى نسبياً إلى ترسيخ كيان السلطنة الناشئة لاسيما بعد أن ظهر السلطان علي بن عمر الكثيري الذي بذل جهوداً كبيرة في مد سلطة الأسرة الكثيرية لتشمل مناطق أبعد مما كانت عليه قبله . و قد استمرت محاولات التوسع و تثبيت كيان السلطنة في عهد حلفائه ، ولكن برزت عوامل جعلت التحركات والطموحات الكثيرية تهتز وتتعثر ، منها التنافس الأسري الكثيري من أجل السلطة والنفوذ، و استمرار موقف القوى القبلية المعادي للتطلعات الكثيرية ولكن بوتائر متفاوتة. وكان اليمانيون أهم تلك القوى المنافسة لآل كثير خصوصاً في

حضرموت الداخل . وإذا كان الكثيريون لم ينجحوا في القضاء على السلطنة اليمانية فإنَّ المنازعات المتعددة التي جرت بينهما أدت إلى ضعف السلطنة اليمانية منذ بداية النصف الأول من القرن العاشر الهجري (بداية القرن السادس عشر الميلادي) ، و قد تزامن ذلك مع بروز قوى قبلية أخرى تحدَّت الكثيريين في داخل حضرموت و ظهور أطماع أجنبية في الساحل . والأهم من ذلك بروز دور (الأمير) بدر بوطويرق السياسي على حساب أخيه السلطان محمد، فكيف سارت العلاقة بين الأخوين حتى برز السلطان بدر بوطويرق ؟ ثم قيامه بأهم أدوار السلاطين الكثيريين وأخطرها.

الهوامش :

١) عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف ، بضائع التابوت في تاريخ حضرموت ، مخطوط ج(٣) مكتبة ورثة المؤلف ، سيؤن ، و٤٠٠ ؛ الملك الأشراف عمر بن رسول ، المصدر السابق " (طرفة الأصحاب) ، ص ١٣٥ ، محمد أحمد الشاطري ، الجزء (٢) المصدر السابق ، ص ٢٣٤ ، محمد بن هاشم تاريخ الدولة الكثيرية ، ص١ .

٢) أحمد حسن العطاس، أنساب الأسر الحضرمية القاطنين في وادي حضرموت المبارك ومساكنهم ، مخطوط ، مكتبة الأحقاف للمخطوطات، تريم، مجموعة آل جنيد ، رقم ٣٨٩٨، و٨ ؛ صلاح البكري، تاريخ حضرموت السياسي، ج١ ،ص٨٩ .

٣) سارجنت ، المصدر السابق ص٨١

٤) محمد أحمد الشاطري ، المرجع السابق ، ص٣٧٦

٥) مايلز،ا، الخليج بلدانه وقبائله، ترجمة محمد أمين عبد الله ، ط(٣)، آمون للتجليد والطباعة ، القاهرة، ١٩٨٦ ، ص٤٢٥
The Portuguese off the South Arabian Coast, Beirut,١٩٧٤erjeant.. P٢٥ R.B

٦) للمزيد من التفاصيل عن سكان ظفار ينظر : صلاح البكري ، تاريخ حضرموت السياسي ، ص ص ٢٠٦- ٢٠٩

٧) السرو : ما ارتفع عن الوادي و انحدر عن غلظ الجبل ، و السراء هي الجبال الغربية لشبه جزيرة العرب . وتمتد من اليمن جنوباً و بمسافة طويلة في شبه الجزيرة العربية.

٨) سعيد عوض باوزير ، صفحات من التاريخ الحضرمي ، ص٨٦.

٩) يلاحظ في المصادر الحضرمية التي رجعنا إليها ، وخاصة التي تعتمد على الحوليات كثيرة ما نذكر موجات القحط و الأوبئة التي تفتك بالسكان و التي تترك آثارها الوخيمة على الحياة الاجتماعية بشكل عام و نعتقد أن الهجرات الداخلية كانت بمثابة دماء جديدة أعطت نوعاً من الحيوية لوادي حضرموت .

١٠) محمد عبد القادر بامطرف ، في سبيل الحكم ، ط(٢) ، دار الهمداني ، عدن ، ١٩٨٣ص٥٦

١١)محمد بن هاشم ،المصدر السابق ، ص٣.

١٢) تقع عينات أسفل وادي حضرموت ، تبعد عن تريم بحوالي ٢٣ ميلاً ، و تقع إلى الجنوب من وادي بوح . وهي غير عينات القائمة الآن على السفح الشمالي لهذا الوادي و التي بناها الصوفي الحضرمي الكبير الشيخ أبوبكر بن سالم في القرن العاشر الهجري . محمد بن هاشم ، المصدر السابق ص٦.

١٣)أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، ص٨٥ ؛ محمد علي باحنّان ، المصدر السابق ، ص١٢٦.

١٤) الغيظة : نرجح انها عاصمة محافظة المهرة الحالية .

١٥) عبد الرحمن بن محمد الخطيب ، الجوهر الشفاف، مخطوط ،ج(١) الحكاية ٤٦ و ١٠٠ ، ويذكر الخطيب أن آل كثير كانوا يمارسون النهب على السفن التي تضطر إلى الجنوح في ساحل الغيظة .

١٦) عبد العزيز جعفر بن عقيل ، تاريخ حضرموت في العصور الوسيطة المبكرة و القضايا المتعلقة بتاريخ هذه الفترة ، مجلة الثقافة ، العدد (٣٠) السنة (٥) فبراير- مارس ، ١٩٩٧ ، ص٩٩.

١٧) محمد بن هاشم المصدر السابق ، ص٣

١٨) محمد بن عبد الله باعباد : يلقب بالصفوة ، وهو من صوفية حضرموت ، وكان لآل باعباد دورٌ مؤثرٌ في الحياة الاجتماعية في حضرموت ، وكانوا من مشايخ العلم .

١٩) سالم محمد بن حميد (العدة المفيدة) ، مرجع سابق ، ص ١٠٢

٢٠) محمد بن هاشم ، المصدر السابق ، ص٧

٢١) أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، ص٨٧ ، سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص٨٤

٢٢) مشطة : قرية بالقرب من تريم من جهة الشرق

٢٣) أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، ص٨٨

٢٤) أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، ص ١٠٠- ١٠١ ؛ سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص٩٠

٢٥) علي حسن الخزرجي ، المصدر السابق ، الجزء الأول ، ص٢١٢

٢٦) محمد أحمد الشاطري ، المصدر السابق ، الجزء الثاني ، ص٢٢٦

٢٧) الغرفة : بلدة تقع وسط وادي حضرموت بين مدينتي شبام و سيؤن .

٢٨) سعيد عوض باوزير ، صفحات من التاريخ الحضرمي ، ص٩٥

٢٩) يلاحظ في تاريخ حضرموت في العصور الوسطى تعدد الحكام في بلدات معينه ، وهي ظاهرة منطقية للصراع القبلي، ونعتقد أن السلوك الاستقلالي عند الحضارمة سواء كانوا حكاماً صغاراً أو كباراً متنائرة ظاهرة اجتماعية تستحق الدراسة.

٣٠) أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، ص ١١٦ ؛ الطيب محمد بن عبد الله بامخرمة ، مخطوط ، سابق ، و١٥٣

٣١) تاريخ شنبل ، المصدر السابق ، ص١١٦

٣٢) الطول : قرية صغيرة بالقرب من شبام.

٣٣) تريس : من قرى وادي حضرموت تقع بالقرب من مدينة سيؤن من جهة الغرب.

٣٤)أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، ص ١١٩ . سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص ١٢٥

٣٥)أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، ص ١٣٢ .

٣٦) هينن : بلدة تقع بالجنوب الغربي من شبام ، وشرقي وادي العبر بنحو ثمانين ميلاً .

٣٧) سعيد عوض باوزير ، معالم تاريخ الجزيرة العربية ، ص ٢٧٩

٣٨) أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، ص ١٣٥. سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ج(٢) ، ص ١٣١ .

٣٩) محمد علي باحنّان ، المصدر السابق ، الجزء الثاني ، ص ١٤٦

٤٠)الشهاب بن أحمد الحراني ،و ابن قسمان : لم نعثر لهما على ترجمة .

٤١) أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، ص١٥٧

٤٢) المسفلة : تستخدم المصادر المحلية هذه اللفظة و يقصد بها المناطق السفلى من وادي حضرموت ، ويطلق مقابلها المعلاة على المناطق العليا من الوادي

٤٣) علوي بن طاهر الحداد ، الشامل في تاريخ حضرموت ومخاليفها ، المصدر السابق ، ص١١٢ ، محمد علي باحنّان ، المصدر السابق ، ص ١٥٦ .

٤٤) تكثر الإشارة إلى أعمال التخريب للمزروعات في المصادر الحضرمية ونجد ذلك في ثنايا تناولها لأخبار الحوادث والصراعات القبيلية .

٤٥) محمد بن هاشم ، المصدر السابق ، ص ١٦ ؛ محمد عبد القادر بامطرف ، المختصر في تاريخ حضرموت العام ، ص٢٢. سعيد عوض باوزير ، صفحات من التاريخ الحضرمي ، ص٩٦.

٤٦) سالم بن حميد ، المصدر السابق ،ص ١٠٢ .

٤٧) محمد بن هاشم ، المصدر السابق ، ص١٧

٤٨) أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، ص١٦١ ؛ وينظر صالح الحامد ، الرجع السابق ،ج٢ ، ص٥٢٣

٤٩) لن نتطرق إلى تفاصيل صراع الاسرة اليمانية الداخلي حتى لاتخرج عن الموضوع الذي ندرسه

٥٠) اللسك: تعرف الآن بالقرية، وتقع بين بلدتي عينات ومدينة تريم.

٥١) أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، ص١٦١

٥٢) محمد علي باحنّان ، المصدر السابق ، ص١٥٧

٥٣) أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، ص١٦٣

٥٤) بيحان : تقع إلى الشمال الغربي من حضرموت

٥٥) سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص١٦٣

٥٦) عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف ، بضائع التابوت ، مخطوط ، و٣٧٣

٥٧) يطلق بعض المؤرخين على حاكم اللسك سلطاناً و أحياناً ملكاً و ذلك تماشياً مع ماهو متداول في الواقع انذاك ، ويبدو ان لفظة ملك مرادفة هنا لكلمة (صاحب)، ينظر : علوي بن طاهر الحداد ، المصدر السابق ، ص١١٢

٥٨) موشح : تقع جنوب شبام بوادي بن علي أحد أفرع وادي حضرموت.

٥٩) أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، ص١٦٤

٦٠) الحسيسة : اسم لاكثر من موقع في حضرموت وقد بنيت بالسليل و لانعرف على وجه الدقة أين خرائبها

٦١) سالم محمد بن حميد ، المصدر السابق ، ص ١٤٠

٦٢) أحمد عبد الله بن شنبل ، المصدر السابق ، ص١٦٦ .وقد أورد أسعار السلع في حينه. وينظر : ابن حميد ،ص١٤١

٦٣) صالح الحامد ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص٦٣٣

٦٤) محمد بن هاشم ، المصدر السابق ، ص٢٠

٦٥) سعيد عوض باوزير ، صفحات من التاريخ الحضرمي ، ص٩٦

٦٦) محمد بن هاشم ، المصدر السابق ، ص١٦. ونرى أن في ذلك نوعاً من المبالغة ، وذلك أن إشكالية العلاقة بين السلطة و القبيلة تمثل احدى العوائق في إقامة الدولة المنظمة والحديثة حتى وقتنا الحاضر.

٦٧) انظر شجرة العائلة الكثيرية الحاكمة في الملحق (٤)

٦٨) يلاحظ أن المصادر كانت تطلق على كل أفراد الأسرة الحاكمة الكثيرية لقب السلطان ، وقد أطلقت في الدراسة لفظة الأمير حتى يتم التمييز بين الأمير وبين السلطان الفعلي.

٦٩) أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، ص١٧٩

٧٠) محمد بن هاشم ، المصدر السابق ، ص٢٤

٧١) صالح الحامد المصدر السابق ، ج٢ ، ص٦٩٤

٧٢) أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، ص١٨٥

٧٣) المرجع نفسه ، ص٢٠٤

٧٤) عبد الرحمن بن محمد المشهور ، شمس الظهيرة في نسب اهل البيت من بني علوي ، ط(١) ، ج١ ، عالم المعرفة للنشر و التوزيع ، جده ، ١٩٨٤ ، ص٨٧

٧٥) أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، صص٢١٣- ٢١٤

٧٦) محمد بن عمر الطيب بافقيه ، تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر ، تحقيق محمد عبد الله الحبشي ، ط(١) ، مكتبة الإرشاد ، صنعاء ، ١٩٩٩ ، ص١٩

٧٧) سوف نشير إلى كيفية سيطرة السلطان جعفر على الشحر في المبحث الثالث من هذا الفصل.

٧٨) أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، ص٢١٤

٧٩) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص١٩

٨٠) كان فقيهاً وشاعراً و سياسياً مشهوراً ولد سنة ٨٨٤ هـ / ١٤٧٩م وتوفي سنة ٩٥٢ هـ / ١٥٤٥م نفي وسجن مرات عدَّة حتى حددت إقامته في سيؤن من قبل السلطان بدر بوطويرق

٨١) نص القصيدة كاملاً في : محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص٢٠- ٢٢

٨٢) سالم محمد بن حميد ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص١٥٦

٨٣) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص٤٠

٨٤) يبدو أن مؤرخنا غير مقتنع بأسباب القتل لهذا استخدم لفظة يقال ، أي على ذمة الراوي

٨٥) سنتناول هذا الصراع في الفصل الثاني من هذه الدراسة .

٨٦) علوي بن طاهر الحداد ، المصدر السابق ، ص١١٧

٨٧) أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، ص١٧٠ ؛ سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص١٤١. و ذكر ان الهجوم على ظفار سنة ٨٢٥ هـ / ١٤٢٢م.

٨٨) قسم فلاحو حضرموت السنة على ٢٨ نجماً وعلى هذه النجوم يبني الفلاح تحركه العملي المهني في جسمه ويذره للأرض و يصادف نجم النطح ، ٢٧ أكتوبر إلى ٤ ديسمبر . للمزيد ينظر : عبدالقادر محمد الصبان، الفلاحون. وعاداتهم المهنية ،مطبوع بالآلة الكاتبة من سيئون ، ١٩٨٣ ، ص٢٨ ومابعدها

٨٩) طرايد : نوع من السفن الحربية.

٩٠) محمد علي باحنان ، لمرجع السابق ،ص١٥٩ .

٩١) أحمد عبدالله شنبل ، المصدر السابق ، ص١٧١.

٩٢) سارجنت ، المصدر السابق ، ص١٢٧.

٩٣) سعيد عوض باوزير ، صفحات ن التاريخ الحضرمي ، ص١١٤ ؛ وينظر : صالح الحامد ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص٥٦.

٩٤) أحمد عبدالله شنبل ، المصدر السابق ، ص١٧٣

٩٥) محمد عبدالقادر بامطرف ، الشهداء السبعة ، ص٣٤

٩٦) أحمد عبدالله شنبل ، المصدر السابق ، ص١٧٣

٩٧) صلاح البكري ، تاريخ حضرموت السياسي ، ج١ ، ص٩٢

٩٨) سعيد عوض باوزير ، صفحات من التاريخ الحضرمي ، ص١١٥

٩٩) علوي بن طاهر الحداد ، المصدر السابق ، ص١١٢

١٠٠) أحمد عبدالله شنبل ، المصدر السابق ، ص١٧٩ ؛ وينظر علوي بن طاهر الحداد ، المصدر السابق ، ص١١٢- ١١٣

١٠١) للمزيد من المعلومات عن الدولة الطاهرية ينظر : بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد والفضل المزيد على بغية المستفيد للمؤرخ ابن الديبع الشيباني ؛ ومن أهم المراجع الحديثه : محمد عبدالعال أحمد ، بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما .

١٠٢) بامخرمة ، الطيب بن عبدالله ، قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر ، مخطوط ،و١٩٨ ؛ صالح الحامد ، المصدر السابق ، ٥٦٩

١٠٣) عبدالرحمن بن علي بن الديبع ، بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد ، تحقيق عبدالله الحبشي مركز الدراسات والبحوث ، صنعاء ، ١٩٧٩ ص١٢٧ ص١٢٧ ؛ شنبل ، ص٨٨

١٠٤) محمد عبدالعال أحمد ، بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخرجية في عهدهما ، دار المعرفة الجامعية ، القاهرة ، ص٢٦٣ .

١٠٥) بامخرمة ، قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر ، مخطوط ، و ١٩٨

١٠٦) سعيد عوض باوزير ، صفحات من التاريخ الحضرمي ، ص١١٧

١٠٧) محمد ابو بكر الشلي ، المشرع الروي في مناقب السادة بني علوي ، ج٢ ،ص١٢٤ ؛ محمد يحيى الحداد ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص١٧١ .

١٠٨) يحيى بن الحسين ، غاية الأماني في اخبار القطر اليماني ، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص٥٨٨ ؛ محمد بن إسماعيل الكبسي اللطائف النسبية في أخبار الممالك اليمنية ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٩٨٤ ، ص١٢١

١٠٩) ابن الديبع ، بغية المستفيد ، ص١٢٨

١١٠) محمد عبدالقادر بامطرف ، الشهداء السبعة ، ص٣٥

١١١) بامخرمة ، قلادة النحر ، مخطوط ، و ١٩٨

١١٢) محمد عبدالقادر بامطرف ، الشهداء السبعة ، ، ص٣٤- ٣٥

١١٣) محمد علي باحنّان ، المصدر السابق ، ص١٦٨

١١٤) سعيد عوض باوزير ، صفحات من التاريخ الحضرمي ، ص١١٧

١١٥) بامخرمة ، قلادة النحر ، مخطوط ، و ١٩٨ ؛ محمد عبدالقادر بامطرف ، الشهداء السبعة ، ص٣٥ ويقال إن الأمير محمد بادجانة أعطى جرعة من السم لا يظهر تأثيرها إلا بعد فترة من الزمن وأنه مات في إثرها عندما وصل إلى حيربج .ينظر : صلاح البكري ، تاريخ حضرموت السياسي ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٩٣ .

١١٦) صالح الحامد ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص٥٨٤.

١١٧) بامخرمة ، قلادة النحر ، مخطوط ، ص١٩٩.

١١٨) يحيى بن الحسين ، غاية الاماني ، ص٥٩١.

١١٩) محمد إسماعيل الكبسي ، المصدر السابق ، ص١٢١.

١٢٠) بامخرمة ، قلادة النحر ،و ١٩٩ ؛ ابن الديبع ، بغية المستفيد ، ص١٣٢.

١٢١)صالح الحامد ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص٥٨٧ ؛ serjeant , op.cit.p ٢٥.

١٢٢) عبدالرحمن عبيد الله السقاف ، بضائع التابوت ، مخطوط ، ج٣ ، و ٤٠٠.

١٢٣)أحمد عبدالله شنبل ، المصدر السابق ، ص١٩١ . سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص١٤٩.

١٢٤) صالح الحامد ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص٥٨٧ .

١٢٥) حدد بعض المؤرخين حملة بادجانة على الشحر سنة ٨٨٣ /١٤٧٨. ينظر : محمد بن أبي بكر الشلي ، السناء الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر ، مخطوط ، مكتبة السيد حسين عيديد ، تريم ، و٤٥ ؛ سعيد عوض باوزير ، صفحات ، ١١٧ ؛ صالح الحامد ، ص٥٨٧ في حين صدر البعض الآخر سنة الحملة ١٤٨٨/٨٩٤ . ينظر : محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ،ص١٥ ؛ أحمد عبدالله شنبل ، المصدر السابق ، ص١٩١ ؛ عبدالرحمن السقاف ، المرجع السابق ، و٤٠٠.

١٢٦) أحمد عبدالله شنبل ، المصدر السابق ، ص٢١٠.

١٢٧) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص١٣.

١٢٨) علوي بن طاهر الحداد ، الشامل في تاريخ حضرموت ومخاليفها ، ص١١٧.

١٢٩) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص١٣.

١٣٠) محمد بن ابي بكر الشلي ، السناء الباهر ، مخطوط ، و ٢٥.

١٣١) عبدالرحمن بن عبيد الله السقاف ، إدام القوت ، مخطوط ، و ٤٠٠.

١٣٢) أحمد عبدالله شنبل ، المصدر السابق ، ص١٧٦.

١٣٣) ميفعه : تقع الى الشمال الغربي من الشحر.

١٣٤) علوي بن طاهر الحداد ، الشامل في تاريخ حضرموت ومخاليفها ، ص١١٧.

١٣٥) صالح الحامد ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص٥٢٤

١٣٦) دمون : اسم بلدتين إحداهما في الشمال الغربي من حضرموت غير معروفة الآن . والأخرى بجوار تريم من جهة الشرق وهي المعنية بالتعريف.

١٣٧) عـدّل: يقصد بهذه اللفظة محلياً تقديم الضمان أو الرهن في حالات التحكيم القبلي، ويعني (تعديل) المدن والبلدات القبول بتقسيمها

١٣٨) خويلة : من القرى القريبه من تريم

١٣٩) العجز : تقع اسفل وادي حضرموت إلى الشرق من تريم و بالقرب من قرية اللسك

١٤٠) أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، ص١٦٨

١٤١) السيد عمر عبد الرحمن المحضار : من صوفية حضرموت ذكر صاحب المشرع الروي ، الكثير من كراماته وشيوخه و تلاميذه ، للمزيد ينظر : محمد الشلي ، المشرع الروي ، ج٢ ، ص٢٤١- ٢٤٢

١٤٢) أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، ص١٧١ ؛ سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص١٤٢ وقد أشار صاحب الجوهر الشفاف إلى هذه الحادثة عند ترجمته للشيخ عمر المحضار دون أن يحدد سنة الهجوم ، ينظر : عبد الرحمن بن الخطيب ، مخطوط ، ج٢ ، الحكاية ٤٠٠ ، و١٦٤.

١٤٣) محمد بن علي باحنّان ، المصدر السابق ، ص١٦٠

١٤٤) محمد بن هاشم ، المصدر السابق ، ص٢١

١٤٥) محمد أحمد الشاطري ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص٢٤٧

١٤٦)أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، ص١٧٢

١٤٧) محمد علي باحنّان ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص١٦١

١٤٨) يقل : و تقع إلى الشمال الغربي من سيؤن

١٤٩) أحمد عبد الله شنبل ، المرجع الشابق ، ص١٧٥ ؛ صالح الحامد ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص٥٢٥

١٥٠) محمد بن هاشم ، المصدر السابق ، ص٢١ ؛ محمد أحمد الشاطري ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص٢٤٨

١٥١) أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، ص١٧٦ ؛ محمد باحنّان ، المصدر السابق ،ج٢ ،ص١٦٢ ؛ سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص١٤٣

١٥٢) الهجرين : تقع في أسفل وادي دوعن أحد فروع وادي حضرموت الكبير

١٥٣) محمد علي باحنّان ، المصدر السابق ، ص١٦٢

١٥٤) أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، ص١٧٦

١٥٥) صالح الحامد ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص٥٢٦

١٥٦) محمد بن هاشم ، المصدر السابق ، ص٢٢

١٥٧) أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، ص١٧٦

١٥٨) محمد أحمد الشاطري ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص٢٤٨

١٥٩) سالم محمد بن حميد ، المصدر السابق ، ص١٤٤

١٦٠) أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، ص١٧٧ ؛ محمد أحمد الشاطري ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص٢٤٨

١٦١) محمد بن هاشم ، المصدر السابق ، ص٢٣

١٦٢) أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، ص١٧٧ ؛ سالم بن حميد ، المصدر السابق ص١٤٦.

١٦٣) محمد أحمد الشاطري ، المرجع السبق ، ج٢ ، ص٢٤٨.

١٦٤) أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، ص١٨٣ ؛سالم محمد بن حميد ، المصدر السابق ، ص١٤٦ ؛ محمد بن هاشم ، المصدر السابق ، ص٢٤.

١٦٥) محمد علي باحنّان ، المصدر السابق ، ص١٦٦.

١٦٦) عبد الله أبو بكر العيدروس : (٨١١- ٨٦٥ هـ / ١٤٠٨- ١٤٦٠م)تولى نقابة العلويين في حضرموت بعد السيد عمر المحضار ، له عدد من المؤلفات والرسائل في العلوم المختلفة : للمزيد ينظر: علوي المشهور ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٩٣.

١٦٧) أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، ص١٨٧.

١٦٨) نفسه والصفحة نفسها.

١٦٩) أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، ص١٩٩ ؛ صالح الحامد ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص٥٢٩

١٧٠) سنناقش في الفصل الثاني من هذه الدراسة لماذا صمدت تريم لفترة طويلة .

١٧١) صوح : هي أرض واسعة مفتوحة بين مدينة تريم وبلدة بور

١٧٢) محمد علي باحنّان ، المصدر السابق ، ص١٧٠

١٧٣) أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، ص١٩٤

١٧٤) سالم محمد بن حميد ، المصدر السابق ، ص١٤٩ ؛ صالح الحامد ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص٥٣٣

١٧٥) محمد علي باحنّان ، المصدر السابق ، ص١٧٢

١٧٦) أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، ص٢٠٢

١٧٧) أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، ص٢٠٦

١٧٨) محمد بن هاشم ، المصدر السابق ، ص٣٠ ؛ محمد علي باحنّان ، المصدر السابق ، ص١٧٤

١٧٩) صالح الحامد ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص٥٣٣

١٨٠) أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، ص٢٢٢

١٨١) نفسه ، و الصفحة نفسها .

١٨٢) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص٧٩ ؛ سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص١٥٩.

١٨٣) صالح الحامد ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص٥٣٤.

١٨٤) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص٨٧.

١٨٥) أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، ص٢٣٤.

١٨٦) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص٨٧.

الفصل الثاني

جهود السلطان بدر بو طويرق في توطيد السلطنة الكثيرية وتوسيعها

٩٢٠- ٩٧٥هـ / ١٥١٤- ١٥٦٧م

أولاً : بروز السلطان بدر بوطويرق والصراع الأسري الكثيري.

١) وصول السلطان بدر إلى سدة الحكم :

احتل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) الذي ظهر فيه السلطان بدر بوطويرق أهمية كبيرة ليس فقط على صعيد التاريخ العربي والإسلامي بل على صعيد التاريخ العالمي ككل . وبالنسبة للسلطنة الكثيرية فقد بلغت قمة اتساعها وقوتها فيه ، وقد جرى ذلك في عهد أقوى سلاطين آل كثير على الإطلاق و هو السلطان بدر بن عبد الله بن جعفر الكثيري المكنى (بو طويرق) .

ولد السلطان بدر سنة (٩٠٢هـ/١٤٩٦م)[١] وفي رواية أخرى سنة (٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م)[٢]. شارك في حكم السلطنة إلى جانب أخيه الأكبر السلطان محمد منذ وقت مبكر من حياته ، الفترة منذ ظهوره على الساحة السياسية وحتى إعلانه سلطاناً رسمياً سنة ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م اكتنفها الغموض ، ولا ندري مدى الصلاحيات الممنوحة له في الحكم .وبالنظر إلى الأعمال التي قام بها في هذه الفترة و التي سنشير إليها تجعلنا نرجح أن السلطان محمد ترك لأخيه حرية التصرف في أمور الحكم حتى تطورت الأمور وخرجت عن إرادته ليصبح (الأمير بدر) هو السلطان المتوج وعمره لم يتجاوز الخامسة و العشرين ، في حين أصبح أخوه سلطان الظل، إن صح التعبير، . ولكن كيف تطورت العلاقة المبكرة بين الأخوين حتى وصلت إلى هذا الحد.

بداية يمكن القول إن الأخوين ورثا تركة من مخلفات الصراعات الدامية للسلطنة، وإرثاً كبيراً من الثارات و التمردات القبلية ، بحيث أضحت أرجاء السلطنة في وضع بالغ الصعوبة ، ذلك أن المنازعات أصبحت الشغل الشاغل لزعماء القبائل و العشائر والكيانات الأخرى المنافسة وعامة السكان ، وأنعكس ذلك سلباً على الحياة الاقتصادية و الاجتماعية . وفي هذه الأثناء كانت القوى الرئيسة التي تقاسمت السلطة والنفوذ في اليمن هي الدولة الطاهرية (٨٥٠- ٩٢٣هـ/١٤٤٦- ١٥١٧م) و الأئمة الزيود و المماليك[٣] وبعد أن أسس البرتغاليون لهم قواعد بحرية في الهند بدأوا يعيثون فساداً في سواحل الجزيرة العربية[٤] .

كان من أولويات اهتمام الأخوين ترسيخ نفوذ السلطنة في حضرموت و القضاء على المناوئين لاسيما في المدن الرئيسة مثل مدينتي تريم وشبام. وقد أدرك (الأمير) بدر بوطويرق ولعل ذلك من جوانب نبوغه السياسي المبكر أن القضاء على المناوئين وفرض سيطرة السلطنة في حضرموت لا يمكن أن يتم بطرق الحرب التقليدية [٥] ، لأن ذلك قد يستغرق وقتاً طويلاً ، فقوات السلطنة فشلت في مكافحة الاضطرابات و التمردات القبلية ، في وقت كانت الثقة في هذه القوات غير وطيدة و الروح العسكرية لديهم ضعيفة و خاملة[٦] . لهذا عمل (الأمير) بدر على الاتصال ببعض الضباط العثمانيين ونجح في استقدام فرقة بقيادة ضابط كبير يدعى رجب سنة (٩٢٦هـ/ ١٥١٩م)[٧] ، ولم تشر المصادر من أين قدمت هذه الفرقة على وجه الدقة ، ومن الجدير بالذكر أن هذه الفرقة كانت مسلحة بالبنادق وكان ذلك أول دخول للأسلحة النارية إلى حضرموت[٨]. ولقد قلب استخدام العثمانيين ثم الكثيرين للبنادق موازين القوى في حضرموت رأساً على عقب وفرض حقائق وتكتيكات عسكرية وقتالية جديدة ، ولعل من المناسب ونحن نتحدث عن الصراع القبلي العسكري في حضرموت أن نتعرف على هذه الوسيلة الجديدة في الصراع ونتتبع ولو بشكل سريع ظهورها في اليمن وحضرموت وآثارها الأولية .

كانت أول معرفة اليمنيين للبنادق عندما دخل المماليك الجراكسة اليمن سنة (٩٢٢هـ/١٥١٦م) وكان لها الأثر الأكبر في انتصارهم وإضعاف معنويات خصومهم في اليمن، وعدّ من الأسباب القوية لسقوط الدولة الطاهرية [٩]. وقد وصف ابن الديبع البندقية في حينه بقوله : ((البندقية شيء عجيب ، لا يكاد أحد يقاتل أصحابه إلا غلب وهو شيء يشبه المدفع إلا أنه أطول منه ، ويجعل في جوفه قطعة رصاص كحبة النبق ويحشى من البارود ويدفع بنار في فتيله في أسفل البندقية فلا يصيب أحداً إلا هلك)) [١٠].

وأول ظهور للبندقية في حضرموت كان سنة (٩٢٦هـ/١٥١٩م) كما ذكرنا ضمن أسلحة الفرقة العثمانية التي استقدمها بوطويرق إلى داخل حضرموت .[١١] وقد أحدث ظهور هذا السلاح رجة كبيرة في حضرموت.[١٢]

تجدر الإشارة إلى أن النتائج الباهرة التي حققها مستخدمو السلاح الجديد تكمن في أسبقيتهم في استخدامه، ولكن مع مرور الزمن أصبح سلاحاً عادياً واستخدم جنباً إلى جنب مع أنواع السلاح الأبيض وبالنظر إلى الوقت الذي تستغرقه البندقية للرمي فقد كان غير فعالٍ عندما تلتقي الجموع . وعلى أيّة حال فإن البندقية (بوفتيل) وبعد أن استخدمته القوى المحلية مر بمرحلة يمكن أن نسميها انتقالية وهي استخدامه سلاحاً مساعداً إلى جانب السلاح الأبيض. ثم سادت البندقية ميادين القتال لاسيما بعد أن صنعت أجزاء منها في مناطق مختلفة من اليمن.[١٣]

وتمثلت أولى النتائج العسكرية لاستخدام البندقية (بوفتيل) في حضرموت في استعادة آل كثير لشبام ، ثم سقوط مدينة تريم لأول مرة في أيديهم ، وقفزت بالأمير بدر بوطويرق إلى قمة الحكم وأصبح السلطان المتوج في حضرموت . فبالنسبة لمدينة شبام فقد حاولت الاستقلال بحكمها أسرة آل محمد الكثيرية ، عندما تقدم الأمير بدر بوطويرق إلى داخل حضرموت وبصحبته الفرقة العثمانية بقيادة الضابط العثماني رجب و حاصر شبام [١٤] ، وقد رفض آل محمد في البداية تسليم المدينة ، وعندما استخدم السلاح الجديد لم تستمر مقاومتهم لأكثر من ليلة ، وعادت شبام إلى حظيرة السلطنة سنة (٩٢٦هـ/١٥١٩م). وتشتت شمل آل محمد إلى حين .

أما مدينة تريم فكانت تحت سيطرة آل يماني ، وكانت مسألة السيطرة عليها من أهم المعضلات السياسية التي واجهت سلاطين آل كثير منذ أن نشأت السلطنة الكثيرية كما سبقت الإشارة ، وقد رمز بقاء سلطنة آل يماني في تريم لعجز الكثيريين في بسط سيطرتهم القوية في داخل حضرموت . لهذا تطلع الأمير بدر بوطويرق الى السيطرة عليها مستفيداً من تغير موازين القوى لصالحه ومتشجعاً بالنصر السريع الذي حققه في شبام. ففي ذي الحجة من السنة نفسها تقدم الأمير بدر بوطويرق من مدينة شبام إلى مدينة تريم وحاصرها لمدة عشرين يوماً ومرة أخرى كان السلاح الجديد حاسماً وتمكنت القوات الكثيرية من الدخول إلى تريم فاضطر آخر سلاطين آل يماني محمد بن أحمد بن سلطان إلى تسليمها ومغادرة حضرموت .[١٥] وانتهت بذلك سلطنة آل يماني التي استمرت قائمة لحوالي ثلاثة قرون بين قوة وضعف ومد وجزر . ولم يبق في تريم إلا عبيد آل يماني .

إن طول أمد الصراع بين السلطنتين وأهميته جعلا بعض المؤرخين المحدثين يجتهد في بحث أسباب تأخر الكثيريين في السيطرة على تريم ويعزوه إلى وجود اتفاق بين السادة في تريم وآل يماني نص على محافظة آل يماني واحترامهم لمركز السادة الديني في حضرموت ، وقبول نصيحتهم . واعترف السادة بحق آل يماني في حكم تريم[١٦]. ولكن بلا إشارة إلى مصدره ، ولا نستطيع في غياب المصادر أن نرفض أو نقبل هذا التعليل على وجه الدقة . وخلا ل تتبعنا للصراع الطويل بين السلطنتين الكثيرية واليمانية لاحظنا وجود فرص لصالح الكثيريين في السيطرة على تريم ، بل أثناء الصراع الأسري اليماني كان أحياناً الفرع المتحالف مع آل كثير يأتي إلى الحكم في تريم عن طريق المساندة الكثيرية . ومن جانب آخر نجد علاقة آل كثير بسادة حضرموت قوية . فكانوا في كثير من الأحيان يقبلون شفاعتهم ويوافقون على وساطتهم وتدخلاتهم في فض المنازعات و الاشتباكات .

والسؤال الذي يطرح نفسه ، ما مدى نفوذ وتأثير السادة الروحي عند الكثيريين ؟ . وهل هذا التأثير من القوة بحيث جعل الكثيريين يلتزمون بالاتفاق (المفترض) بهذه الصرامة ؟ في حين تظل خطوط الصراع الأخرى في المناطق الأخرى غير تريم مفتوحة ؟ ثم هل السادة الذين ضمنوا حقهم من الاحترام أعطوا الضوء الأخضر لآل كثير في السيطرة على تريم ؟ حقيقة الأمر يعجز الباحث في الإجابة الدقيقة و العلمية عن هذه الأسئلة ، وأقصى ما نستطيع أن نقوله ، وعلى افتراض صحة الاتفاق بين السادة و آل يماني ، إن أي اتفاق هو ابن عصره وظرفه ، وله عمره المعين ، و الحقائق الجديدة التي ظهرت في القرن السادس عشر الميلادي من وجود قوى أجنبية على السواحل العربية في الجزيرة العربية و الأسلحة الحديثة المزودة بها وبروز شخصية (الأمير) بدر بوطويرق الذي كان يحركه حماس الشباب واندفاعه ، في وقت شارفت السلطنة اليمانية على الانهيار، كل ذلك لابد أن يدفع باتجاه سقوط مدينة تريم بيد الأمير الفتى .

وكيفما كان الأمر، فإن الانتصارات الكثيرية في مدينتي شبام وتريم كانت إيذاناً بتربع (الأمير) بدر بوطويرق على رأس السلطنة الكثيرية على حساب أخيه الأكبر السلطان محمد . وقد ذكر بعض مؤرخي القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) من الحضارم ومن

ردد بعدهم روايتهم بلا تمحيص أن السلطان محمد بعد أن رأى نباهة أخيه أعجب به واغتبط منه وتنازل طواعية عن السلطنة لأخيه بدر ، وكتب إلى خطباء المساجد بإسقاط اسمه من الخطبة وليخطبوا لأخيه السلطان بدر وذلك سنة (٩٢٧هـ/١٥٢٠م) [١٧] .

و الباحث لا يميل إلى هذه الرواية ، فعلى فرضية صحة إعجاب السلطان محمد بأخيه وغبطته به بعد الانتصارات التي حققها يبدو أن أقصى تعبير عن الإعجاب سيظهر عن طريق الإقرار له بولاية العهد مثلاً ، أو تنصيبه على جزء مهم من أجزاء السلطنة . وإذا كانت المصادر لم توضح طبيعة العلاقة بين الأخوين قبل تنازل السلطان محمد لأخيه إلا أننا نستطيع أن نستنتج أن هناك إرهاصات لصراع خفي بين الأخوين لم ترتسم خيوطه وأبعاده في تلك الفترة. ولعل ذلك يفسر صمت المصادر المعاصرة في حين نجدها تسترسل في ذكر صراع الأخوين بعد إعلان السلطان بدر بوطويرق سلطاناً رسمياً للسلطنة وذلك لأن الصراع بين الأخوين تحول من طوره الخفي إلى طوره المعلن. وستؤكد لنا الأحداث التي سنشير إليها كيف أن السلطان محمد سعى جاهداً إلى تأجيج الصراع وحاول استعادة حكمه ، ويؤيدنا في ما ذهبنا إليه السقاف[١٨] عندما أشار إلى انتزاع أبي طويرق الخطبة من أخيه .

وعلى أيّة حال فإن رفع الخطبة في المساجد باسم السلطان بدر بوطويرق يعدّ مرحلةً جديدة في تاريخ السلطنة الكثيرية تكمن أهميتها في أنها أعطت نوعاً من الشرعية الشكلية لحكم السلطان بدر أستكمل بها مرحلة التتويج النهائي لاعتلاء منصب السلطنة الكثيرية الأول .

٢) الصراع السياسي بين السلطان بدر وبين أخيه محمد :

جاء استحواذ السلطان بدر بوطويرق على الحكم في السلطنة الكثيرية كما ألمحنا بعد الانتصارات الميدانية التي حققها في حضرموت الداخل ، التي اضطر أخوه في إثرها للتنازل عن الحكم . ولكن هذا الاستحواذ لم يكن نهاية العلاقة بين الأخوين بل كان إيذاناً بصراع طويل امتد لما يقارب ربع قرن ، أدى إلى تفكيك اللحمة الكثيرية وتمزيق العرى . وتزامن مع فترة حفلت فيها السلطنة بصراعات وتحديات لم تكن معهودة وبأعداء ظلوا يتربصون بها الدوائر .كما تداخلت في الصراع عناصر أجنبية من برتغاليين وعثمانيين .

شهدت السنوات بعد تنازل السلطان محمد هدوءاً نسبياً ، وبدأ فيها موقف السلطان بدر قوياً، وليس أدل على ذلك من ذهاب السلطان محمد (المخلوع) إلى الحج سنة (٩٣٠هـ/١٥٢٣م) ثم استقراره في مدينة زبيد[١٩] والتزوج فيها واتصاله بواليها سليمان التركي[٢٠] . وفي سنة(٩٣١هـ/١٥٢٤م) أرسل الإمام شرف الدين[٢١] رسالة إلى الأخوين وذكر بأنها كانت : ((استطلاعاً لما عندكم من الأنباء وتعريفاً لكم لما كان بين سالف الآباء))[٢٢] وحوت الرسالة قصيدة شعرية تودد فيها الإمام للأخوين ، وربما أقلق الإمام اتصال (السلطان) محمد بالوالي العثماني . ونستفيد من هذه الرسالة على صعيد العلاقة بين الأخوين أن خلافهما لم يظهر بعد على السطح ، فقد أطلق على كل منهما لقب السلطان وذلك حسب ما جرت عليه العادة من إطلاق لقب السلطان على كل أفراد الأسرة الحاكمة المباشرين وقد يكون الإمام شرف الدين غير مطلع على حقيقة الخلاف أو التنافس بين الأخوين .

وكيفما كان الأمر فإن السلطان بدراً رد برسالة قبل فيها دعوة التقارب والوداد وضمّنها مجاملات دبلوماسية وقصيدة شعرية.[٢٣] وعلى أيّة حال فإن اتصال الأخوين مع هاتين القوتين الأساسيتين في اليمن لم يتخذ شكل السياسة الثابتة و المرسومة لكل الأطراف . أما بالنسبة للأخوين فكانت منطقة حضرموت هي الميدان الذي شهد صراعاتهما السياسية . إلا أننا لا ندري متى ولا كيف عاد (السلطان) محمد إلى حضرموت ، ونستدل من الحوليات الحضرمية على أنه كان موجوداً في حضرموت سنة (٩٣٦هـ/١٥٢٩م) وأنه كان ضعيفاً بحيث لم يقم بأية إجراءات عملية ضد أخيه إلا منذ هذا التاريخ[٢٤]. ففي هذه السنة (٩٣٦هـ) استولى السلطان بدر على منطقة غيل بن يمين[٢٥] ، وأخرج منها رؤساءها القبليين ، ولأن علاقة (السلطان) محمد كانت قوية بسكان هذه المنطقة ومنطقة المشقاص[٢٦] على وجه العموم فقد احتج على أخيه وطالبه بالتخلي عن منطقة غيل بن يمين وإرجاع رؤسائها القبليين وأموالهم المنهوبة[٢٧] . وعندما لم يجب أخوه لما أراد بدأ الخلاف بينهما يتخذ شكله السافر وبدأت تحركات (السلطان) محمد العملية ، من ذلك ما قام به من تأليب القبائل ضد أخيه ومحاولة السيطرة على حصون بعض البلدات مثل هينن وتريس وتريم ، ولكنه لم يلق أي استجابة من قبائل هذه المناطق[٢٨] ويبدو أن السلطان بدراً كان متوقعاً هذه الخطوات فاتخذ الاحتياطات التي حالت دون تحقيق أخيه لأهدافه .

على أن السلطان محمداً وجد آذاناً صاغية عند الكثيريين الموجودين في بلدة (بور)، الذين يصفهم بافقيه بأن أكثرهم يود الفتنة بينه وبين أخيه [٢٩] ولا شك أن هذا التجاوب لا يظهر الصراع الكثيري على صعيد الأسرة الحاكمة فقط بل يمتد ليشمل القبيلة الكثيرية كلها، وسنرى كيف اعتمد بوطويرق فيما بعد على عناصر قبلية من خارج حضرموت . وقد تزامنت تحركات السلطان محمد مع موقف آخر لقبائل الحموم في المشقاص الذين وقفوا إلى جانب رؤسائهم القبليين الذين أخرجوا من غيل بن يمين ولاذوا بهم ، وتمثل هذا الموقف في قيامهم بمهاجمة مناطق الأطراف التابعة لنفوذ السلطنة الكثيرية [٣٠] .

وهكذا وجد السلطان بوطويرق نفسه لأول مرة في جبهة معادية امتدت لتشمل مناطق من داخل حضرموت وساحلها ، ولأن مثاوي قبيلة الحموم على الطريق الرئيس الذي يربط حضرموت الداخل بالساحل لهذا كله لجأ السلطان بدر إلى التفاوض مع أخيه وعقد صلح بينهما في يوم الجمعة الثامن عشر من ربيع الثاني (٩٣٦هـ/١٥٢٩م) جعل بموجبه أمر منطقة غيل بن يمين إلى (السلطان) محمد الذي عمل على إرجاعها إلى أهلها وأخرج عامل السلطان بدر والقوات الموجودة فيها [٣١].

تظهر هذه الحادثة وجهات النظر المختلفة بين الأخوين في التعامل مع الأحداث السياسية في حضرموت، ففي حين يميل السلطان بدر إلى القوة العسكرية للتعامل مع المناوئين ، كان السلطان محمد يميل إلى السلم ويخلق لنفسه دعاية وعلاقات جيدة وقد أثمر هذا الموقف عندما تجدد الصراع بين الأخوين في شعبان (٩٣٩هـ/١٥٣٢م) ، واستعد (السلطان) محمد لدخول الشحر حيث كانت قبيلة الحموم المساند الرئيس له ، وفي هذه الأثناء وكإجراء احترازي دعا حاكم الشحر التابع لأبي طويرق الجنود و النقباء في حصن الشحر وطلب منهم تجديد عهدهم للسلطان بدر وأخبرهم إن ذلك جاء بتعليمات من السلطان بدر نفسه[٣٢] .

بمعنى آخر أراد السلطان أن يسبق الأحداث ولكي لا يعطي فرصة في التأثير عليهم، ومن جانب آخر تبرز هذه الإجراءات عدم ثقة السلطان بدر الكاملة في قواته الموجودة في الشحر ، وعلى الرغم من عدم قيام (السلطان) محمد بأي هجوم على الشحر في هذه الفترة فإنه خلق نوعاً من الإرباك لدى أخيه وقواته.

تجدر الإشارة إلى أن هذا الصراع الأسري الكثيري لم يكن يدور بمعزل عن كافة الصراعات القبلية الأخرى في حضرموت و التي كان يخوضها السلطان بدر وإنما كان هذا الصراع جزءًا لا يتجزأ من الصراع القبلي العام في حضرموت ، وقد تداخل هذا الصراع بحيث يكون أحياناً الصراع الأسري الكثيري هو محور الصراع وتدور الصراعات الأخرى حوله وإن تنوعت أهداف المتصارعين ، وأحياناً يحاول (السلطان) محمد الاستفادة من صراعات السلطنة مع القوى الأخرى ليقوى من جانبه ويضعف جانب أخيه كما سنرى.

وكيفما كان الأمر فإننا نجد في هذا الصراع الأخوي السياسي أن (السلطان) محمداً غالباً ما يكون المبادر في الصراع لكونه خارج السلطة الرسمية ويبحث لنفسه عن مكان لائق يرتضيه فيها .فعندما احتدم الصراع بين السلطان بدر و الشيخ العمودي وانشغالهما بكسب أو تحييد موقف قبيلة نهد [٣٣] في داخل حضرموت عمل (السلطان) محمد على الاستفادة من الظروف المستجدة ليفتح جبهة جديدة على أخيه ويزيد من الأعباء والضغوط عليه. ففي ٢٤ محرم سنة(٩٤٠هـ/١٥٣٣م) حشد السلطان محمد قوات قبلية مكونه من ٣٠٠ من بيت زياد المهري وغيرهم [٣٤] وهاجم بهم مدينة الشحر بغرض الاستيلاء عليها ، ويبدو أن الحملة كان ينقصها التخطيط السليم فقد انهالت مدافع الحامية السلطانية في الشحر على المهاجمين وفرقت جمعهم فأصبحوا أهدافاً مكشوفة كما ذكر باحسن ولجأوا إلى بعض المساجد والبيوت لتكون حائلة بينهم و بين ضربات المدفعية[٣٥].

وكرد فعل على هذه الهزيمة هاجم (السلطان) محمد مدينة ظفار وذلك في ربيع الثاني من السنة نفسها أي بعد حوالي الشهرين ونيف من المحاولة الفاشلة على الشحر ، وتمكن من إلقاء القبض على أميرها وقاضيها ، أما حصن مدينة ظفار فلم يستطع اقتحامه[٣٦] وهكذا ظل الأمر في مدينة ظفار معلقاً بين الأخوين. وفي جمادى الأولى سنة (٩٤٠هـ/١٥٣٣م) دخل هذا الصراع عناصر أخرى تمثلت في (المقدم) سعد بن رابضة وهو من وجهاء منطقة غيل بن يمين، وعلي بن محمد بن فارس النهدي اللذين قدما من منطقة الكسر لغرض عقد الصلح [٣٧] وقد أثارت هذه التحركات شكوك السلطان بدر وذلك للعلاقة القوية بين أخيه وهؤلاء المصلحين، لهذا بادر بنفسه وتقدم باتجاه ظفار وفي منتصف شعبان (٩٤٠هـ/١٥٣٣م) عقد صلحاً بينهما

أقر السلطان بدر بموجبه ملكية أخيه لمدينة ظفار وأمر الحامية بتسليم الحصن وما فيه لأخيه[٣٨] وتفادياً لتكرار القلاقل والاضطرابات و لتنقية الأجواء سعى بعض العقلاء من آل كثير في تعزيز الصلح الأخير بين الأخوين بالدعوة لصلح أكبر يضع حداً لصراعهما الطويل والمحتدم في وقت كانت الأساطيل البرتغالية تعيث فساداً في السواحل الحضرمية و العربية بشكل عام. و على الصعيد الداخلي كان العمودي يعزز من مناطق حكمه مستفيداً من هذا الصراع الأسري [٣٩] وقد تكللت هذه الجهود بعقد صلح في شهر صفر(٩٤١هـ/١٥٣٤م) بموجبه تم الاتفاق على أن يكون أسفل وادي حضرموت وظفار (للسلطان) محمد وهينن والشحر للسلطان بدر وعلى أن (تعدّل) ثلاثة حصون في (المعلاه) للسلطان محمد وثلاثة حصون في (المسفله) للسلطان بدر وتحدد بموجب الصلح القبائل الحليفه لكل منهما [٤٠] .

يمثل هذا التقسيم مكسباً سياسياً مهماً (للسلطان) محمد فبموجبه سيطر على نصف حضرموت الداخل تقريباً وإذا كان السلطان بدر قد احتفظ لنفسه بمدينة الشحر ذات الأهمية الاقتصادية ، إلا أن إقراره بأن آل العمودي حلفاء أخيه يجعل مناطق نفوذه محصورة في وسط الوادي وكأنها جيب صغير بين المناطق التابعة لنفوذ (السلطان) محمد ومنطقة العمودي في دوعن.

وعلى أيّة حال فإن الصلح يحمل في طياته أسباب فشله فقد حدثت احتكاكات بين (رعايا) السلطانين الأمر الذي دفع السلطان بدر في جمادى الآخرة (٩٤١هـ/١٥٣٤م) إلى التوجه إلى أسفل وادي حضرموت لإيجاد صيغ جديدة بينه وبين أخيه تحد من حالات الاشتباك و الاحتكاك [٤١] اتفقا على إبطال نظام (التعديل) للحصون ومناطق نفوذ كل منهما لتكون جميعها ملكاً لهما [٤٢] .

لم يضع هذا الاتفاق كسابقه حداً لحالات الاحتكاك بل عمق الخلاف وكاد يدفع باتجاه تكوين سلطنتين متنازعتين في حضرموت تكون اليد الطولى فيها (للسلطان) محمد صاحب التأييد في الأوساط الحضرمية ، ومرة أخرى يتحرك السلطان بدر خشية سحب البساط من تحت أقدامه ويبحث عن صيغة أكثر وضوحاً فبعد حوالي خمسة أشهر من الاتفاق الأخير وبالتحديد في شوال (٩٤١هـ/١٥٣٤م) تم الاتفاق على أن جميع المناطق مناصفة بينهما ما عدا سيئون فهي خالصة لمحمد وهينن خالصة لبدر[٤٣].

تظهر سلسلة الاتفاقات التي تمت بين الأخوين خلال تسعه أشهر فقط و الصيغ الغامضة و المتشابكة التي أتت بها مدى التخبط و الخلاف في العلاقة بين الأخوين المتنافسين ، وتظهر أيضاً أن الطرفين لم تكن لهما نوايا حقيقية في الصلح بل كان كل طرف يسعى لكسب الوقت والحصول على مكاسب على حساب الآخر وليس لمصلحة استتباب الأمر في السلطنة . والنظرة التحليلية لبنود الصلح تبرز عدم منطقية الاتفاقات المتجددة وعلى سبيل المثال استبدل الاتفاق القائم على تقسيم السلطنة بالشراكة في كل مناطق السلطنة . فإذا كان الخلاف نشب عند التقسيم لمناطق السلطنة فمن باب أولى أن يحدث عند تداخل السلطة والشراكة في كل المناطق . وصفوة القول إن خطوات الصلح الأخيرة بين الأخوين لا تحمل من الصلح إلا اسمه ، وكانت البنود المتفق عليها لا تعمل إلا على تعليق الأمور وتضع بذور الخلاف وتقرب نقاط الالتقاء باتجاه المواجهة والصراع .

ولابد من التأكيد أن السلطان محمداً نجح نجاحاً كبيراً في استعادة جزء كبير من نفوذه في السلطنة الكثيرية بعد أن وصل به الأمر سنة (٩٢٧هـ/١٥٢٠م) فأصبح خارج السلطة . وبدأت حضرموت الداخل وكأنها خرجت من يد السلطان بدر خاصةً إذا أخذنا بعين الاعتبار الحلف القوي الذي تم بين السلطان محمد و بين العمودي في دوعن واتخاذه أحياناً شكلاً عملياً كالاشتراك في بعض الأعمال الحربية كما سوف نرى . لهذا نجد (السلطان) محمداً بعد ذلك يتصرف كسلطان قوي في داخل حضرموت ومحرك للأحداث ، ففي سنة ٩٤١هـ/١٥٣٤م وفي خطوة استعراضية لا تخلو من التحدي تقدم (السلطان) محمد إلى منطقة الكسر وذلك لبناء قرية هناك بالقرب من هينن التابعة لنفوذ أخيه [٤٤] . وتعزيزاً لتحالفه مع سكان أسفل حضرموت أعاد بناء قرية مشطة لقبائل الصبرات ، وبلدة اللسك لآل أحمد (آل جسار) .

كما تشجع (السلطان) محمد بحلفه مع العمودي و قام بأعمال عسكرية في دوعن ضارباً بعرض الحائط اتفاقه الأخير مع أخيه ففي ١٧ ذي الحجة سنة (٩٤١هـ/١٥٣م) شارك في عملية عسكرية مع الشيخ العمودي وهاجما حصن (صيلع) بالقرب من هينن[٤٥] وقد جرت تحت الحصن معركة قتل فيها عدد من الفريقين ، ثم استأنفا أعمالهما المعادية للسلطان بدر في بعض المناطق التابعة للأخير منطقة دوعن [٤٦] .

دفعت هذه التطورات الأخيرة و التي تشبه الانقلاب الداخلي على السلطان بدر إلى الاستعانة بقوى قبلية يمنية من خارج منطقة حضرموت وهي قبائل الجوف [٤٧] الزيدية وذلك لإيجاد نوع من التوازن في ميزان القوى بينه وبين أخيه أو مخرج للمصاعب التي يواجهها. وقد كان السلطان بدر قد سبقه في الاستعانة بالعثمانيين و التي جعلت منه الحاكم القوي في حضرموت كما سبقت الإشارة . وكان أول وصول لرجال الجوف في الشحر سنة (٩٤٢هـ/١٥٣٥م) وعددهم اثنان وثلاثون بقيادة الشريف ناصر بن أحمد بن الحسين البهال[٤٨] . وأول عمل عسكري أشركهم فيه السلطان بدر هو مهاجمة (حيريج) التي كانت تحت حكم الأمير محمد بن أحمد بادجانة حليف أخيه ، وتمكن المهاجمون من الاستيلاء عليها في ١١ جمادى الآخرة سنة (٩٤٢هـ/١٥٣٥م) وعاد السلطان بدر ببعض القوات وترك في حيريج عاملاً من قبله[٤٩] .

لقد أثار هذا العمل استياء (السلطان) محمد ، وساهم في تعزيز شقة الخلاف بين الأخوين ، أما السلطان بدر فقد توجه بعد هذا الانتصار إلى داخل حضرموت في خطوة يقول بافقيه عنها(إنه لم يظهر فيها سبب سيره) [٥٠] ويبدو أن الغرض منها جس النبض في داخل حضرموت بعد الانتصار الأخير الذي حققه في ساحلها . والدليل على ذلك أنه لم يصطحب معه إلا عدداً قليلاً من قواته حتى لا يستفز أخاه . وعلى أيّة حال فإن السلطان بدراً عمل على الاتصال ببعض زعماء القبائل لكسبهم إلى جانبه ، ولكنه لم يجد استجابة قوية ، وظهر له أن معظم مناطق الوادي غير موالية له [٥١] . وعندما تجهز للعودة إلى الشحر عبر وادي المسيلة مروراً بأراضي حلفاء أخيه (السلطان) محمد في أسفل وادي حضرموت . أراد السلطان محمد أن تكون له صولة في هذه الحرب النفسية، فقد عمل على تزويد عبيد آل يماني بالبنادق كما اتصل سراً بحلفائه في أسفل وادي حضرموت وهم آل الصبرات وآل بن جسار وطلب منهم الحيطة و الاحتراز في قرية (مشطة) [٥٢] . ويبدو أن السلطان بدر أدرك في زيارته الميدانية هذه لداخل حضرموت مدى قوة نفوذ أخيه ، لهذا اضطر إلى الدخول معه في مراسلات لم تسفر في البداية عن شيء ، ثم قام بخطوة غير متوقعة ودخل على أخيه(السلطان) محمد في مدينة سيئون وذلك في ٢٢ رجب سنة(٩٤٢هـ/١٥٣٥م) واسترضاه ، واتفقا على أن يتنازل

السلطان بدر عن حيريج مقابل أن تكون له بلدة غيل باوزير بدلاً عنها ومن جانبه عمل (السلطان) محمد على رد حيريج لحكامها آل بادجانة[٥٣].

ومرة أخرى تظهر خطوة (السلطان) محمد اختلاف الأسلوب السياسي عند الأخوين ففي حين لجأ السلطان بدر في الغالب إلى الأسلوب العسكري، و الاعتماد على العناصر الخارجية سواء كانت يمنية أو أجنبية ، كان (السلطان) محمد يلجأ إلى تعزيز علاقاته مع القوى المحلية ويتجنب الاعتماد على قوى من خارج حضرموت. وإذا كانت موجات العداء هي السائدة بين الأخوين فإنَّ هذه العلاقة تخللها فترات من الصلح ولكنه غالباً ما يكون هشاً وضعيفاً وأقرب ما يكون إلى الهدنة منه إلى الصلح .

وقد انتقض الصلح بين الأخوين في بداية سنة (٩٤٣هـ/ ١٥٣٦م) وذلك عندما أقدم (السلطان) محمد على إتلاف مزارع لبعض الأسر الكثيرية الموالية للسلطان بدر[٥٤]، وأدى ذلك إلى قيام الطرفين في ربيع الثاني٩٤٣هـ/١٥٣٦م بمفاوضات جديدة لحل النزاع، وقد اتفقا على إلغاء اتفاقية شوال (٩٤١هـ/١٥٣٤م) التي جعلت كل مناطق السلطنة الكثيرية شراكة بين الأخوين باستثناء هينن وسيئون ، وعادا مرة أخرى إلى الاتفاق على التقسيم بحيث تكون ظفار و أسفل وادي حضرموت (للسلطان) محمد ، والشحر وأعلى وادي حضرموت للسلطان بدر [٥٥] . و تنفيذاً لذلك الاتفاق توجه الأمير علي ابن (السلطان) محمد إلى ظفار وبدل حاميتها العسكرية بحامية موالية لأبيه ، وفي هذه الأجواء ازداد انقسام آل كثير على أنفسهم و ذلك بعد أن سيطر الأمير علي بن عمر بن جعفر الكثيري على مدينة شبام[٥٦] فأدى ذلك إلى تعقيد الأوضاع وتدهور الأمور.

لم يقف السلطان بدر مكتوف اليدين تجاه هذا الوضع وتراجع نفوذه في داخل حضرموت، وكذلك تجاه الصعوبات التي تواجهه في الشحر من جراء أعمال القرصنة البرتغالية التي أثرت على النشاط التجاري فيها ، فعمل على اتخاذ أساليب مختلفة لمواجهة هذه التطورات ، فمن جانب زاد من استقدام الجنود من منطقتي الجوف ويافع ، و من جانب آخر بدأ يغازل السلطنة العثمانية ويتودد إليها في محاولة منه للبحث عن قوة مساندة جديدة له، فعندما قدم مبعوث السلطنة العثمانية فرحان صوباشي سنة (٩٤٤هـ/١٥٣٧م) قبل بالتبعية للسلطنة العثمانية [٥٧]،

ويعد هذا من نقاط التحول في تاريخ السلطنة ويحمل معاني كثيرة . فعلى صعيد العلاقات بين الأخوين عززت هذه العلاقة موقف السلطان بدر ووجد فيها منقذاً وأعطته نوعاً من الشرعية، ولا شك في أن لذلك دوراً في رفع معنويات قواته وحلفائه لهذا نجد تطورات الأحداث سارت بعد ذلك باتجاه في غير صالح (السلطان) محمد الذي بدأت تحدث بعض الخلافات بين حلفائه النهديين في بلدة السور في أواخر سنة (٩٤٤هـ/١٥٣٧م). وإذا كان هذا الخلاف [٥٨] ليس غريباً في المجتمع القبلي الحضرمي فإنه يشير، ولو بشكل ضئيل إلى بداية الضعف و الخلخلة في صفوف حلفاء (السلطان) محمد.

ومن جانب آخر نجد السلطان بدراً لا يفوت ما يراه مناسباً لتحقيق أهدافه (فالغاية تبرر الوسيلة) فقد استعان بالبرتغاليين في محاربة المناوئين له في حضرموت ، لاسيما في منطقة دوعن في ٢٩ محرم (٩٤٥هـ /١٥٣٨م) وتمكن بواسطة هذه المساعدة من السيطرة على الكثير من البلدات ، وبمعنى آخر فإن السلطان تحول من الدفاع إلى الهجوم . وقد اضطر(السلطان) محمد في إثر هذه الانتصارات للالتقاء بأخيه السلطان بدر في منطقة تريس لتحقيق المصالحة ، [٥٩] لكن السلطان بدراً استمر في إجراءاته الرامية لاستعادة سلطته في وادي حضرموت ، وابتداء من سنة (٩٤٦هـ/١٥٣٩م) ازدادت تحركات السلطان بدر العسكرية مستعيناً بأشراف الجوف وبعض قبائل البادية من المهرة وآل كثير وقد هاجم بهؤلاء منطقة الكسر التي توجد فيها قبيلة نهد حليفة السلطان محمد ، وقاموا بأعمال السلب والنهب .[٦٠]

دفعت هذه الفوضى (السلطان) محمداً للخروج سراً إلى منطقة المشقاص وذلك في رجب (٩٤٦هـ / ١٥٣٩م)، وقد عبر عن امتعاضه لاستخدام أخيه هذه القوى [٦١] التي عمقت الخلاف بينهما ، وتجدد التنافس في السيطرة على مناطق النفوذ وتعزيز الولاءات القبلية وكسبها وقد حقق السلطان بدر في هذا النزاع الكثير من الانتصارات[٦٢] الأمر الذي جعل أخاه يقوم بمحاولة أخيرة لتعزيز نفوذه في وادي حضرموت، ففي أوائل شعبان (٩٤٧هـ/١٥٤٠م) حشد جمعاً كثيراً مكوناً من آل كثير الموجودين في ظفار ودخل بهم بلدة (قشن)[٦٣] المهرية واستنجد بالقبائل المهرية ، ولكن لضآلة الملبين لدعوته مكث في قشن ينفق على من اجتمع لنصرته دون أن يتقدم بهم إلى حضرموت لقلة عددهم، هذا فضلاً عن الاحتكاكات التي

حدثت بين قواته فأدى ذلك إلى تفرق الجميع .[٦٤] كان من أبرز نتائج فشل هذه المحاولة اضطرار (السلطان) محمد للدخول في طاعة أخيه السلطان بدر وقبوله النيابة عنه في بعض المناطق مثل ظفار و الشحر، على أن نظرة الشك في ولائه ظلت تساور السلطان بدراً تجاهه ، فعلى سبيل المثال عندما ثارت المهرة للمرة الثانية [٦٥] سنة (٩٥١هـ/١٥٤٤م) اتهم بأن له يداً في هذا التمرد واعتقل ، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن قضى على تمرد المهرة في قشن[٦٦] .وربما يكون هذا الاعتقال نوعاً من الإجراء الاحترازي . ولم تشر المصادر بعد هذه الحادثة إلى أي شكل من أشكال الصراع بين الأخوين الذي استمر قرابة ربع قرن [٦٧]. وقد لاحظنا أن هذا الصراع اتخذ شكلاً سياسياً أكثر من كونه عسكرياً .

ولا شك أن هذا الصراع الأسري أضرّ بوحدة السلطنة والأسرة الكثيرية الحاكمة وتماسكها، وعمق الفوضى القبلية و أوجد فرصاً للمناوئين للتحرك في كل الاتجاهات ، كما أوجد قوى جديدة خارجية أثرت في التركيبة السياسية في حضرموت . وعلى العموم انعكس هذا الصراع على الحياة الاقتصادية والاجتماعية وأسهم في تردي الأوضاع وضياع فرصة قيام سلطنة قوية وحديثة في حضرموت في بداية التاريخ الحديث.

٣- صراع السلطان بدر بوطويرق مع الأمراء الكثيريين في مدينة شبام :

كان للمؤازرة العثمانية واستخدام البندقية (بوفتيل) لأول مرة في حضرموت سنة (٩٢٦هـ/١٥١٩م) (كما ذكرنا) الدور الكبير في سيطرة بدر بوطويرق على شبام وخروج آل محمد الكثيريين منها . ولكن ظلت هذه الأسرة تتحين الفرص لاستعادة سيطرتها على شبام وقد أسهم عزل (السلطان) محمد عن الحكم في إيجاد فراغ سياسي في حضرموت الداخل في وقت كان التذمر والسخط سائداً في بعض المدن والبلدات ضد سياسة بدر بوطويرق القائمة على العنف و البطش وبالاستعانة بالقوى الخارجية (العثمانية) .

وأول مظاهر هذا التذمر برز سنة (٩٣٠هـ/١٥٢٣م) عندما أظهر الأميران محمد بن بدر الكثيري ومحمد بن عبد الله الكثيري معارضتهما لسياسة السلطان وخاصة إهمالهما واستبعادهما من وظائف الحكم في السلطنة[٦٨]، واتخذت المعارضة في البداية شكل تيار

سياسي يتدخل في الأحكام و يعاكس أوامر السلطان بدر يؤيدهم في ذلك سكان مدينة شبام.[٦٩] أما السلطان بدر فقد واجه هذه المعارضة الكثيرية بحزم ودخل مدينة شبام بالقوة وألقى القبض على الأميرين وزج بهما في سجن مريمه بالقرب من سيئون[٧٠] . ورغم هذه الإجراءات القوية التي اتخذها السلطان بدر ضد الأميرين الكثيريين ، فإنَّ روح المعارضة ظلت قائمة عند الشباميين ضد السلطان بدر وقد مضى على هذا التذمر وقت بحث خلاله الشباميون عن شخصية كثيرية أخرى تضطلع بالحكم في شبام حتى اتصلوا سراً بالأمير علي ابن عمر بن جعفر الكثيري وبعد مراسلات قبل دعوتهم .[٧١]

تجدر الإشارة إلى أن هذه الموافقة تزامنت مع هبوط مركز السلطان بدر في داخل حضرموت وتمكن أخوه (السلطان) محمد بعد عودته من الاستحواذ على أكثر من نصف حضرموت وبعد التعاطف الواسع الذي حظي به ، فبدأ هذا الأمير الطموح يبحث له عن مكان في هذا التقسيم وعلى خلفية نزاع الأسرة الكثيرية الحاكمة للاستحواذ على الحكم في شبام .

أظهر الأمير علي بن عمر الكثيري تحركاته في ١١ ذي الحجة سنة (٩٤٢هـ/١٥٣٥م) متظاهراً أولاً بموالاة السلطان بدر بوطويرق، وعندما نجح في دخول شبام والاستيلاء عليها أفصح عن نزعته الاستقلالية و أعلن نفسه سلطاناً على شبام ، واتخذ من الشيخ معروف باجمال مستشاراً له[٧٢] . ويذكر الشاطري أن السلطان علياً كان من متصوفة حضرموت ، وأنه أقام دعائم سلطته من ماليته الخاصة [٧٣] . ولعل اختياره الشيخ باجمال مستشاراً له وهو أحد كبار المتصوفة في حضرموت يدعم ذلك ، كما يتماشى مع سياسة الطامحين في حضرموت الذين يحرصون على الاستعانه بعلماء الدين. وعلى أيّة حال فإن السلطان علياً قام ببعض الأعمال اليدوية بنفسه وكأنه بهذا يحاول تطبيق نظام عادل يشتمل على أناس متصوفين قنوعين[٧٤] . وربما جاءت تصرفات سلطان شبام تظاهراً وإجراءً مؤقتاً حتى تستتب الأمور ، وكنوع من التودد وكسب السكان الذين جاء بدعوتهم ودعمهم له .

ظلت السلطنة الجديدة في شهورها الأولى بعيدة عن قطبي الصراع الكثيري وهما الأخوان السلطان بدر ومحمد ، ويغلب الظن أن عدم استفادة السلطان علي من صراع الأخوين لكسب طرف يعضد به موقفه في شبام يكمن في نزعته الاستقلالية وروحه الصوفية

، وكذلك رفض سكان شبام سيطرة السلطنة الكثيرية التي يحكمها حتى ذلك الحين سلطانان متنافسان . وربما كان لهذا الموقف الحيادي أثره في سرعة استعادة السلطان بدر لشبام وطرده السلطان علياً .[٧٥]

ولما كان السلطان بدر مبعثر القوى في نواحي شتى من حضرموت ورجحان كفة أخيه في الصراع تمكن السلطان علي من الدخول إلى شبام للمرة الثانية واضطر السلطان بدر بعقد صلح معه واعترف بسلطنته في شبام [٧٦] .وقد تعززت العلاقة بينهما بعد ذلك حتى أن السلطان علياً أصبح ضمن قادة الحملة التي شنها السلطان بدر على المهرة سنة (٩٥٣هـ/١٥٤٦م). ثم اتخذت العلاقة بينهما منحىً آخر عندما تحولت إلى خصومة أعقبتها حملة للسيطرة على شبام حتى تمكن السلطان بدر من الاستيلاء عليها بنفسه سنة (٩٥٨هـ/١٥٥١م) [٧٧].

ولم تشر المصادر إلى أسباب تجدد العداوة بينهما ويغلب الظن أن تحركات السلطان بدر للسيطرة على شبام جاءت بعد انتهاء صراعه مع أخيه السلطان محمد ، وبعد أن عقد صلحاً سنة(٩٥٥هـ/١٥٤٨م) مع أبرز أعدائه في غربي حضرموت وهو الشيخ عثمان العمودي وهذه التغيرات السياسية لابد أن تدفع السلطان بدراً وتشجعه على استرجاع شبام إلى حظيرة السلطنة بغض النظر عن الحيثيات التي أثارت الصراع.

وعلى أيّة حال فقد ألقى السلطان بدر القبض على سلطان شبام وزج به في سجن مريمة[٧٨]. أما الشيخ معروف باجمال فقد بالغ السلطان بدر في إهانته ، بأن جعل في عنقه حبلاً وطيف به في شوارع شبام وكان ينادي : ((هذا معبود كم ياأهل شبام)) ثم نفي إلى دوعن [٧٩] .

لقد تزامن هذا الصراع الأسري الكثيري مع جهود مضنية قام بها السلطان بدر من أجل توسيع السلطنة الكثيرية وترسيخها فإلى أي مدى نجح السلطان بدر في التوفيق بين محاولات التوسع والقضاء على المناوئين سواء كانوا من داخل الأسرة الكثيرية أم من خارجها ؟ .

ثانياً : حروب السلطان بدر مع القوى المحلية المناوئة :

تعددت وتنوعت الحروب والصراعات التي خاض السلطان بدر غمارها مع القوى المحلية المناوئة له ولم تسر في اتجاه واحد أو فترة معينة من الزمن ، بل شملت منطقة حضرموت كلها وبعض المناطق المجاورة وامتدت بامتداد فترة حكمه (٩٢٠ هـ / ١٥١٤م تقريبا ـ ٩٧٥هـ /١٥٦٧م) فقد أراد السلطان بدر فرض سيطرته الكاملة على حضرموت لوضع حد للأوضاع السياسية والقبلية المتردية ولتحقيق ذلك استخدم أسلوب القوة والبطش والاستعانة ببعض القوى من غير الحضارمة ، ظناً منه أن هذا الأسلوب يمكن أن يحقق أهدافه السياسية المأمولة.

وإذا كان السلطان بدر قد استطاع أن يحتفظ تحت نفوذه في أوقات معينة بمعظم نواحي حضرموت ، فإنَّ هذه السيطرة غالباً ما كانت تصطدم بالقوى المحلية القبلية التي نافسته وكادت في وقت من الأوقات أن تهدد الوجود الكثيري في داخل حضرموت ، كما أن سقوط البلدات والقرى واستعادتها تكاد تكون ظاهرة مميزة للصراعات الجانبية لأبي طويرق ، ولكنها أثقلت كاهل السلطنة وأسهمت مع عوامل أخرى في زعزعة الأمن وقوضت فرصة وجود حكم قوي في حضرموت ، وعلى العموم فإن هذا الصراعات الجانبية إلى جانب الصراعات الأخرى تعطي صورة واضحة المعالم للصراع الدموي في حضرموت الذي أضر بها كثيراً .

وقد سبقت الإشارة عند تناولنا لتأسيس السلطنة الكثيرية إلى أن مراكز الصراع السياسي والعسكري وميدانه الرئيس كانت منطقة شرقي حضرموت وأسفل وادي حضرموت ، وكانت القوى الرئيسة المنافسة لآل كثير هم آل يماني في تريم وحلفاؤهم ، وقد شغلت هذه الجبهة جانباً من اهتمامات السلاطين الكثيريين العسكرية . وقد دخلت المناطق الغربية في داخل حضرموت في قلب الصراع القبلي والسياسي في عهد السلطان بدر بوطويرق الذي عمل على ضم هذه المناطق إلى حظيرة السلطنة الكثيرية بالقوة العسكرية وعلى حساب الرئاسات القبلية القائمة .

وبداية يجب أن نقول إن هناك صعوبة في فصل الصراعات الداخلية وتجزئتها في حضرموت في هذه الفترة عن الصراع الأسري الكثيري وذلك لتداخل عناصر الصراع ، وسنحاول في هذا المبحث تناول صراع السلطنة مع هذه القوى مع إبراز العلاقات المتداخلة لأطراف الصراع المحلية كلما وجدنا ضرورة لذلك وسوف نأخذ في الاعتبار عدم تكرار الأحداث التاريخية .

ومن أبرز القوى التي نافست بوطويرق على الحكم في غربي وادي حضرموت وساحلها :

١. قبيلة نهد في منطقة الكسر وما جاورها .

٢. الشيخ العمودي في منطقة دوعن .

٣. قبيلة المهرة شرقي الساحل الحضرمي .

١- صراع السلطنة الكثيرية مع قبيلة نهد :

اضطلعت قبيلة نهد بدور هام في الحياة القبلية والسياسية في حضرموت في فترة الدراسة . وقد احتفظت هذه القبيلة الكبيرة بسلطتها القبلية في مثاويها وبعض البلدات المجاورة لها ، وكان مركز رئاستها القبلية في بلدة (السور) وقد جاءت علاقة العداء المباشر مع السلطنة الكثيرية في عهد السلطان بدر بوطويرق الذي عمل على توسيع مناطق نفوذه ليشمل مناطق نفوذ هذه القبيلة .

ومن الأعمال العسكرية المبكرة التي قام بها السلطان بدر هي سيطرته سنة (٩٣٤هـ/١٥٢٧م) على بلدة حريضة [٨٠] ، الواقعة تحت سلطة علي بن محمد بن فارس النهدي[٨١]، وشجعت هذه الخطوة الكثيرية سكان بلدة صيف [٨٢] على الخروج عن طاعة محمد بن علي النهدي (وعدّلت) للسلطان بدر [٨٣]. واستمراراً في تقويض سلطة نهد في المناطق القريبة من مثاويها أبعد فارس بن محمد النهدي من منطقة المخارم[٨٤] وردها لأهلها آل شحبل الظنيين .

وهكذا فقد امتازت خطوات بوطويرق المبكرة بالتدرج ، وقد ألقى الصراع الأسري الكثيري بين السلطان بدر وبين أخيه محمد بظلاله على العلاقات النهدية الكثيرية إذ جعلت السلطان بدراً يوافق على عقد صلح مع نهد لمدة عشر سنوات في سنة (٩٣٧هـ/١٥٣٠م) وذلك ليفوت أية فرصة تقارب بينهم وبين أخيه [٨٥] ، ولضمان استمرار هذا الصلح (عدّل) السلطان بدر حريضة لقبيلة نهد (وعدّلوا) له (عنق والمنيظره) [٨٦] . تجدر الإشارة إلى أن هذا الصلح لم يرتق إلى حلف متماسك بين الجانبين. كما تشير المصادر إلى عقد حلف بين قبيلة نهد والسلطان محمد ، ولكن يغلب الظن من خلال استقراء الأحداث أن قبيلة نهد تحالفت سراً مع السلطان محمد . وابتداءً من سنة (٩٣٨هـ /١٥٣١م) أصبح تمرد قبيلة نهد

ضد السلطنة الكثيرية سافراً ، وكانت لهجة التحدي ضد السلطان بدر واضحة في أشعارهم (زواملهم) القبلية ومن ذلك ارتجاز أفراد القبيلة النهدية للبيتين الشعريين الآتيين :

سوار حنا من الفجر رواتع لا يخرس لنا في الكسر مزرع
نقاتل بدر كسار المرافع نوطي هام رأسه حين يرفع[٨٧]

وكانت أول الأعمال النهدية المعادية هجومهم على قبيلة آل عبدالعزيز الكثيرية الموالية للسلطان بدر بوطويرق ، وفي هذه الأثناء تجرأت قبيلة بني هلال وقامت بأعمال السلب والنهب في المناطق القريبة من منطقة الكسر في أعمال تشبه التنسيق بينهما [٨٨] . ورداً على هذه الأعمال جهز السلطان بدر حملة إلى وادي حضرموت ضمت مائة جندي من العثمانيين انطلقت من مدينة الشحر. [٨٩] وقد جرت معركة بين قوات السلطنة والقبائل المتمردة ودحرت فيها قبيلة نهد وألقي القبض على أميرها محمد بن علي بن فارس النهدي[٩٠] . كما استأنف بوطويرق حملته التأديبية على قبيلة بني هلال وشن عليها هجوماً انتهى بهزيمتها وتفريقها في مناطق معينة من السلطنة .[٩١]

أما قبيلة نهد فقد استفزها أسر أميرها ، واستمرت في مناوشات قوات السلطنة ، واستفاد النهديون من صراع السلطنة مع الشيخ العمودي وعملوا على إرباك قواتها المتجهة إلى وادي دوعن والمارة عبر مناطقهم ، الأمر الذي جعل السلطان يدخل في صلح معهم ويطلق سراح زعيمهم في أواخر سنة (٩٣٨هـ /١٥٣١م) [٩٢] .

وقد عملت هذه الخطوة الكثيرية على تنقية الأجواء نسبياً بين الجانبين .ونلحظ ذلك من خلال سعي الأمير النهدي(عند إطلاق سراحه) مع آخرين في التوسط للصلح بين السلطان وبين أخيه .[٩٣] على أن الخطوة الأهم هي تطور صيغة الصلح بينهما إلى ما يقارب الحلف وذلك بأن عرض بوطويرق على آل فارس النهديين بلدة الخريبة وحصنها مقابل مشاركتهم له في أعماله العسكرية . ولقد دخل هذا التحالف دوره العملي عندما ثار أحد الزعماء المحليين الموالين لعثمان العمودي سنة (٩٣٩هـ /١٥٣٢م) فتألبت عليه بعض القبائل النهدية ، وأرسلت للسلطان بدر تخبره بهذه التطورات و أعقب ذلك كما يقول بافقيه(أكاليم وتهديدات) [٩٤]. وكمظهر من مظاهر التحالف بينهما تقدم السلطان بدر سنة (٩٤٠ هـ /١٥٣٣م) مع آل فارس

النهديين وهاجموا بلدة صيف في دوعن . وفي السنة نفسها زحف ثابت بن علي بن فارس النهدي على دوعن واستولى على قرية القرين[٩٥] بعد حصارها .[٩٦]

وعندما واجهت تحركات السلطان بدر مصاعب عديدة في وادي حضرموت حيث أصبح القدح المعلى فيه لأخيه(السلطان) محمد بدأت قبيلة نهد تتنصل من تعهداتها مع السلطان بدر وتتقارب مع أخيه ، كما عمل النهديون على تعزيز نفوذهم في مناطقهم القبلية. على أن الضربة القوية التي وجهت لقبيلة نهد كانت سنة (٩٤٥هـ /١٥٣٨م) بعد أن أعلن بوطويرق ولاءه للدولة العثمانية ثم استعانته بالبرتغاليين ضدهم فتمكن من تشتيتهم في مناطقهم [٩٧] . ويروي صلاح البكري أن حسان بن محمد النهدي توجه إلى الإمام شرف الدين في اليمن الأعلى واستنجد به على السلطان بدر فأنجده بجيش ولكن الجيش عاد بعد وفاة حسان في الطريق[٩٨].

ويبدو أن هذه الرواية ضعيفة فمن جهة لم تذكرها المصادر المعاصرة للأحداث ، ومن جهة أخرى كان الإمام شرف الدين آنذاك يراقب تطورات الأحداث في السواحل اليمنية بعد وصول الأنباء بتقدم الحملة العثمانية إليها[٩٩]، كما أن الإمام شرف الدين لم تكن له مصلحة مباشرة في هذا الصراع . وعلى أيّة حال فإن ما ذكره البكري بعد ذلك من توسط الإمام في الصراع أقرب إلى الصواب فبعد ذلك سمح السلطان بدر لقبيلة نهد بالعودة والبقاء في مناطقها[١٠٠] .

ولم تكن هذه الأحداث نهاية المطاف في العلاقات بين الجانبين بل استمرت المناوشات بينهما و تميزت بسيطرة السلطنة على الموقف العسكري والسياسي ليس فقط على صعيد العلاقات مع قبيلة نهد بل في معظم حضرموت وبعض المناطق المجاورة [١٠١] وكان من أبرز نتائج هذه التغيرات أن اضطر زعيم نهد محمد بن علي بن فارس ، وبعض رؤساء العشائر النهدية الأخرى إلى المثول أمام السلطان بدر في سيئون لعقد صلح بينهما ، وقد اشترط السلطان بدر عليهم أن يبني في بلدة السور حصناً للسلطنة الكثيرية مع بقائهم في البلدة ، وعلى أن يمتنعوا عن الادعاء بحمايتهم للآخرين (و لعاد لهم ربيع) وكل ماله علاقة بالعادات القبلية كفرضهم الإتاوات على القبائل و غيره [١٠٢].

ولاشك أن شروط السلطان بدر القوية تحمل أكثر من معنى، فمن جهة تظهر مدى قوته، ومدى الضعف الذي وصلت إليه قبيلة نهد ، ومن جهة أخرى تحمل هذه الشروط أفكاراً

تطورية فيما يتعلق بالعلاقة بين السلطنة الكثيرية و رعاياها ، فهي تمنح الحق للسلطنة في فرض سيادتها على مناطق نفوذها و إقرارها للأمن و تنظيم العلاقة بين رعاياها ، وفي المحصلة الأخيرة تمثل ضربة للبناء القبلي النهدي . وعلى أيّة حال فإن الوقت كان مبكراً لأن يتحول هذا الاتفاق إلى واقع ملموس وعمل مرسوم ، ذلك لأن النزعة الاستقلالية عند القبائل آنذاك كانت قوية ، و اضطرار قبيلة نهد إلى قبول الشروط كان خطوة مرحلية ، وكان لبناء السلطان بدر حصناً في بلدة السور التي ترمز الى سيادتهم في مناطقهم أثره في تذمرهم وسخطهم .

ولأن مثاوي قبيلة نهد تقع في الوسط تقريباً بين منطق وادي حضرموت الأسفل والأعلى التي ظهر فيها الشيخ عثمان العمودي الخصم اللدود لبوطويرق ، فلم يجد النهديون أمامهم من خيار إلا التحالف مع العمودي [١٠٣] كما اتصلوا بسكان مناطق حضرموت الأسفل وحدث في إثر ذلك تمرد عام في هذه المناطق . و قد أقلقت هذه الجبهة العريضة السلطان بدراً، وعمل على شق عرى هذه التقاربات من خلال الدعوة لصلح عام و ذلك في سنة (٩٤٩ هـ /١٥٤٢م) قدم السلطان بدر بموجبه بعض التنازلات منها تسليمه بلدة السور لآل عامر النهديين و عدلت قبيلة الصبرات (الواسطة) للسلطان بدر و (عدّل) لهم بلدة دمون [١٠٤] كما عدل تريم لعبيد آل يماني و جعلوا الخيار مفتوحاً للعمودي للدخول في هذا الصلح [١٠٥].

لكن التناحر ظل قائماً و الأوضاع الأمنية متردية و كانت أهم الجبهات التي دار حولها الصراع بعد هذا الصلح هي جبهة الحرب مع العمودي غربي حضرموت و مع قبائل المهرة ، و لعل من حسن حظ القوى المحلية المناوئة للسلطنة الكثيرية أنها تجد أحياناً متسعاً من الوقت للهدوء أو تكون طرفاً ثانوياً في الصراع عكس السلطنة الكثيرية ، و عندما تجددت الخلافات النهدية الكثيرية سنة (٩٥٥ هـ / ١٥٤٨م) حدث تقارب بين قبيلة نهد و العمودي [١٠٦] . وعلى العموم شهدت هذه الفترة تراجعاً في موقف السلطان بدر الحربي .

و أمام هذه التداعيات عمل السلطان بدر على اتباع أسلوب التهدئة إذ عقد صلحاً مع قبيلة نهد وصفه بافقيه بأنه ضعيف[١٠٧] ، و يبدو أن السلطان بدراً لم يكن مخلصاً في استمرار هذا الصلح لأنه اتصل سراً بحلفائه أشراف الجوف لتقديم المساعدة له[١٠٨]. ثم عقد صلحاً مع العمودي صمد حتى وفاة السلطان بدر بوطويرق سنة (٩٧٥هـ/١٥٦٧م). أما انعكاسات هذه

التطورات على العلاقة النهدية الكثيرية فنلحظها من خلال الهدوء العام الذي ساد العلاقات بينهما ، ويغلب الظن أن قبيلة نهد قد دخلت في صلح مع السلطان بدر، إذ لم يعد هناك ذكر في المصادر لأية صراعات تذكر بينهما .

و يبدو أن السلطان بدراً أدرك (متأخراً) صعوبة دوام نفوذ السلطنة الكثيرية في منطقة نهد التي يغلب عليها طابع البداوة ، لهذا ركز جهوده في السيطرة القوية على المدن المهمة لاسيما مدينة تريم التي أعادها بشكل كامل إلى حظيرة السلطنة سنة (٩٥٨ هـ / ١٥٥١م)[١٠٩].

٢ - صراع السلطنة الكثيرية مع الشيخ العمودي في دوعن :

يعد الصراع الكثيري – العمودي من أهم الصراعات التي خاضتها السلطنة الكثيرية ضد القوى المحلية . و قد وجدت مميزات جغرافية و دينية صبغت هذا الصراع عن غيره من الصراعات القبلية في حضرموت . فمنطقة دوعن التي ظهر فيها العمودي تمتاز من الناحية الجغرافية بضيق عرض واديهـا بفرعيه الأيمن و الأيسر ، الأمر جعل القرى والبلدات تشيّد على التلال و الجبال المحاذية للوادي و أعطاها ذلك نوعاً من التحصين الطبيعي . والحقيقة الأخرى هي أن آل العمودي جمعوا بين أسلوب الحياة القبلية. وما يستتبعه من حمل السلاح ، وبين المشيخة الصوفية وما يستتبع ذلك من التأثير الروحي في المجتمع . وقد أسهمت هاتان الحقيقتان في دخول آل العمودي و بقوة حلبة الصراع السياسي في حضرموت.

كانت أولى علاقات آل العمودي بالتصوف تعود إلى أحد أجدادهم وهو الشيخ سعيد بن عيسى العمودي المتوفى سنة (٦٧١ هـ / ١٢٧٢م) ، الذي يعد من المؤسسين للطريقة الصوفية في حضرموت بشكل عام ، وفي قرية قيدون بمنطقة دوعن بشكل خاص .كما كان مؤسساً لنظام المنصبة [١١٠] العمودية التي كانت لها حرمتها وقدسيتها[١١١]. و ذكر مؤلف النور السافر آل العمودي بقوله : ((و بنو العمودي أهل إصلاح و ولاية اشتهر منهم جماعة بالعلوم الظاهرة ومقامات الولاية الفاخرة ، ويقال إن نسبهم يرجع الى أبي بكر الصديق)) [١١٢].

وهكذا فقد تقاسم آل العمودي النفوذ الروحي مع السادة في حضرموت ، وإذا كان تأثير السادة في شرقي حضرموت فإن تأثير آل العمودي كان في غربيها .[١١٣] وقد توارث آل العمودي

المنصبة والوجاهة في المجتمع وتحلوا بالعلم وكرم الأخلاق، فأدى ذلك إلى إقبال الناس عليهم، والتف حولهم رؤساء القبائل وكثير من حملة السلاح [١١٤]. و تعد سنة (٩٣٧ هـ / ١٥٣٠م) نقطة تحول في دور آل العمودي الاجتماعي في حضرموت . ففيها خلع الشيخ عمر العمودي نفسه و تولى بدلاً عنه أخوه عثمان بن أحمد العمودي [١١٥]، و يعد ذلك إيذاناً ببروز الدور السياسي لآل العمودي في حضرموت ، مع بقاء تأثيرهم الروحي ، وقد استمر نفوذ آل العمودي الروحي والسياسي في معظم مناطق دوعن بين مد وجزر إلى ما بعد سقوط السلطنة الكثيرية الأولى [١١٦].

كانت الروح العسكرية التوسعية هي الغالبة على شخصية الشيخ عثمان العمودي ، فبعد أقل من عام من توليه المنصبة و بالتحديد في سنة (٩٣٨ هـ / ١٥٣١م) هاجم بلدة الهجرين التي كانت تحت نفوذ قبيلة نهد ، وانتهى الصراع بتعديلها له [١١٧]. على أن حماس عثمان العمودي لم يكن ليوقفه عائق ، فقد هاجم في العام نفسه القرى و البلدات التابعة للسلطنة الكثيرية في منطقة دوعن مثل : الجبيل ، هدون ، القرين ،الخريبة و غيرها و قد ساعده الأهالي في السيطرة على بعضها [١١٨]. كما وسع العمودي عملياته العسكرية ليمتد الى الشحر وضواحيها فقد وصل إلى قرية (تبالة) أحد أتباعه القبليين و يدعى سليمان باهبري في نحو ١٥٠ رجلاً من البدو و قاموا بعمليات النهب و السلب على أموال التجار و الأهالي المحفوظة في تبالة[١١٩] ولاشك في أن هذه الأعمال العدائية المبكرة للشيخ العمودي تنذر بظهور شخصية حضرمية قوية جديدة لا تقف موقف المدافع الذي يقنع بالسلامة لمن ترك له ما تحت يده بل كان يبادئ بالهجوم و يشن الغارات في ساحل حضرموت و داخلها .

لم يقف السلطان بدر بوطويرق مكتوف اليدين إزاء هذه التحديات العمودية ، ولأنها تزامنت مع اشتداد ثورة نهد و بداية خروج أخيه محمد عليه ، فقد لجأ بو طويرق الى طلب المساعدة من عامله في ظفار فوصل إليه على رأس قوة قوامها ٤٠٠ شخص [١٢٠]. و لكن القوات التي جمعها السلطان بدر واجهت صعوبات في منطقة الكسر النهدية بسبب سجنه لزعيم قبيلة نهد و اضطر إلى ترضيتهم و أطلق سراحه (كما ذكرنا) . و تبرز الأحداث تعدد الجبهات التي انفتحت على السلطنة الكثيرية آنذاك .

وعلى أيّة حال فإن قوات السلطنة الكثيرية لم تستطع أن تحقق كل أهدافها . وحاصرت القرين و أدى تلاحق الأحداث و تسارعها إلى حدوث تقارب منطقي بين العمودي و قبيلة نهد ، رغم العداء المؤقت الذي ظهر بينهم بعد أن توسع العمودي في بعض المناطق الدوعنية التابعة لنفوذ نهد . ففي خطوة عمودية ذكية و لمد جسور الثقة مع نهد (عدّل) العمودي لهم بلدة (بضه)[١٢١] على النصرة والمساعدة و هي العاصمة السياسية للعموديين و ذلك في شعبان سنة(٩٣٨ هـ / ١٥٣١م) [١٢٢]، كما اتصل بحلفائه من القبائل الذين قدموا إلى دوعن لفك الحصار على بلدة القرين ، وقد تمكن العمودي من الخروج من بلدة القرين المحاصرة لبحث الصلح بينه و بين قبيلة نهد التي لامها على تأخرها عنه رغم العرض المشجع الذي قدمه لها هو عدالة بلدة بضه [١٢٣].

ولعل تأخر قبيلة نهد عن نصرة العمودي يعود الى سببين : الأول أن قبيلة نهد ترى في العمودي والكثيري قوتين متنافستين و تريد الامتداد على حسابهما ، والثاني أن قبيلة نهد لا تريد أن تسفر عن عدائها للكثيريين في هذا الوقت المبكر من الصراع كما أن تحالفهما مع العمودي سيجعل من أراضيها القريبة من مراكز السلطنة الكثيرية إحدى الميادين الرئيسة للقتال، و يبدو أن العمودي أدرك هذه المخاوف النهدية لهذا قدم عرضاً آخر للنهديين ، وهو الاتفاق على مناصفة دوعن و ذلك في رمضان سنة (٩٣٨ هـ/١٥٣١م)[١٢٤].

يتضح مما سبق أن المستفيد المباشر من الصراع العمودي الكثيري هم النهديون فقد تسابق الطرفان المتنازعان لكسب ودهم و التحالف معهم ، و أمام اتساع الجبهة المعارضة لبوطويرق في حضرموت الداخل أدلى النهديون مع دلائهم و أسفروا عن عدائهم للسلطنة الكثيرية . وفي وسط هذه الفوضى القبلية المناوئة للسلطان بدر التي خففت الضغط على العمودي في دوعن دعا السلطان بدر في شوال ٩٣٨ هـ / ١٥٣١م إلى صلح عام في حضرموت لتحسين موقفه وليفسد مناورات العمودي و جاء في هذا الصلح أن كل من بيده شيء من الحصون فهو له ، أي الإبقاء على الأمر الواقع ، واستمراراً لسياسة التودد والاسترضاء عدّل السلطان بدر بعض البلدات لنهد [١٢٥].

حالف النجاح مناورات بدر إلى حد كبير ، وأوجد شرخاً في العلاقات النهدية العمودية . و لا ندري على وجه الدقة لماذا اختارت معظم العشائر النهدية العرض الكثيري ، و ربما

كانت الاعتبارات الأمنية لقبيلة نهد هي التي رجحت التحالف في هذه الفترة مع السلطنة وليست نسبة العروض المقدمة من الطرفين المتنازعين . و السلطان بدر كان مضطراً لهذا الاسترضاء فبالنظر إلى صعوبة إيجاد تقارب أو صلح بينه وبين أخيه محمد و الشيخ العمودي فإن استرضاءه لنهد يدخل في باب أن لا أكون وحدي في الميدان .

أما العلاقات العمودية الكثيرية فقد تميزت في الفترة بين (٩٤٠- ٩٤٤ هـ / ١٥٣٣-١٥٣٧م) بالهدوء المشوب بالحذر ، وعندما أعلن السلطان بدر تبعيته للدولة العثمانية سنة ٩٤٤ هـ / ١٥٣٧م أعلن الشيخ عثمان العمودي عدم موافقته على تبعية حضرموت للدولة العثمانية ، وكون بذلك اتجاهاً سياسياً في حضرموت يعارض العلاقة العثمانية الكثيرية [١٢٦].

أنعش التقارب الكثيري العثماني السلطان بدراً و جدد نشاطاته المعادية للعمودي في دوعن . ففي صفر سنة ٩٤٥ هـ / ١٥٣٨م دخلت قوات السلطنة قرية قيدون بدون قتال كونها (حوطة)[١٢٧] ثم حاصرت هذه القوات العاصمة العمودية بضه فترات طويلة حتى جرت مفاوضات للصلح ، وعندما تقدم وفد من قبل السلطان إلى بضه لغرض بحث الصلح استخدم العمودي أسلوباً تمويهياً بأن أمر رجاله بنثر الحبوب و الذرة في الدرج الذي يصعد عليه الوفد و أمر بالتظاهر باستئناف الدراسة لطلبة العلم . وكأن أمر الحصار لا يعنيهم في شيء[١٢٨] . ويرى بعض المؤرخين أن هذه الحيلة انطلت على وفد أبي طويرق وعندما أخبر الوفد السلطان بذلك أمر برفع الحصار وانسحاب الجيش[١٢٩] .

ولا شك أن الإجراء العمودي كان نوعاً من الحرب النفسية ، ويبدو أن عدم تمكن السلطان بدر من دخول بلدة بضه والتكاليف الباهظة التي تتطلبها عملية الحصار هي السبب الحقيقي في فشل الحصار أما ملاحظات الوفد فقد ساعدت في دفع أبي طويرق في اتخاذ قرار رفع الحصار . وإذا كان السلطان بدر قد تمكن بعد ذلك من تحقيق انتصارات كبيرة بمساعدة العثمانيين وإشراف الجوف ، وأضعفت جانب أخيه السياسي وخلخلت القبائل النهدية فإنَّ العمودي حاول أن يبحث في ساحة الانتصارات الكثيرية عن حلفاء جدد وذلك عن طريق الاتصال بقبائل أسفل وادي حضرموت . وكان هدفه تضييق الخناق على السلطان بدر وفتح جبهات جديدة له إذا ما عاود الهجوم على دوعن وذلك عن طريق حليفه عمر بن

عبدالرحمن بن جسار الساخط على السلطنة الكثيرية في منطقة اللسك ، فعندما هاجم السلطان بدر دوعن سنة (٩٤٨هـ /١٥٤١م) واستولى على قيدون رغم قدسيتها [١٣٠] أعلن ابن جسار تمرده في اللسك واتصل بالقبائل المعادية للسلطنة الكثيرية في مدينة تريم وما حولها ، ولكن جهوده باءت بالفشل واخفق المخطط المشترك بين بن جسار و بين العمودي في مشاغلة السلطنة في جبهتين في أسفل وادي حضرموت وأعلاه .

وفي محاولة عمودية أخرى للالتفاف على السلطنة الكثيرية في مركز ثقلها الاقتصادي–في الشحر– وانتقاماً من الهجوم على قيدون أرسل الشيخ العمودي في بداية سنة(٩٤٩هـ /١٥٤٢م) حملة عسكرية قبلية ثم وصلت القوات إلى قرية (فوه) الساحلية وأتلفوا فيها بعض المزروعات[١٣١]

ثم عادت الحملة مرة أخرى إلى دوعن رغم اشتداد خوف أهل الشحر منها كما قال بافقيه [١٣٢]. وإذا كانت المصادر كعادتها لم تذكر أسباب عودة القوات العمودية فإنَّ مناورات الشيخ عثمان العمودي في أسفل وادي حضرموت وساحلها رغم فشلها أظهرت العمودي خصماً عنيداً ، وعدت مؤشراً على حنكته ودهائه العسكري والسياسي.

وقد دفعت الفوضى السياسية واضطراب حبل الأمن إلى دعوة السلطان بدر إلى صلح عام وذلك سنة (٩٤٩هـ /١٥٤٢م) . وتجدر الإشارة إلى أن صيغ الصلح والتحالفات القبلية في حضرموت لا تتخذ في الغالب أبعاداً استراتيجية لأطراف النزاع ، فالخيارات تظل مفتوحة أمامها وفقاً لتغير المصالح والمستجدات التي يراها كل طرف مناسبة له . وعلى أيّة حال فقد كان الغرض الأساسي من دعوة الصلح هو عزل العمودي عن القوى المتحالفة معه من خلال استرضائها بتنازلات سبقت الإشارة إليها .

وفيما يتعلق بالعمودي فقد أصبح الخيار أمامه مفتوحاً في الدخول في الصلح ولكنه رفض الدخول في هذا الصلح العام ، ولعله أدرك ما يحمله هذا الصلح من أهداف خفية لصالح السلطان بدر ، فهذا الصلح يجعل مناطق نفوذ العمودي محصورة في مناطق محدودة في حضرموت. ويبدو أن ترك الخيار للعمودي في دخول الصلح كان إجراء مرحلياً يخدم موقف السلطان بدر في إقناع حلفاء العمودي إذ يجعل من رفض العمودي أو قبوله وكأنه خياره الشخصي .

وكان من أبرز النتائج المباشرة لهذا الصلح عزل العمودي عن حلفائه السابقين وجددت تحركات السلطان بدر لإخضاع العمودي وكسر شوكته بعد أن رفض دخول الصلح . ففي ذي القعدة (٩٤٩هـ /١٥٤٢م) كرر السلطان المحاولة للسيطرة على العاصمة العمودية (بضه) وفرض حصاراً عليها ولكن دون جدوى [١٣٣] . ويمكن أن نعزو هذا الفشل الكثيري إلى المناورات الدفاعية التي يتبعها العمودي ولأن جيش السلطان بدر غالباً ما يضم خليطاً من حلفاء مؤقتين هدفهم النصر السريع للحصول على الغنائم وعليه فإن طول أمد الحصار يعني إطعام هؤلاء بلا طائل . و أعقب إخفاق السلطان بدر في دوعن تدهور تحالفه مع أحمد ناصر الجوفي [١٣٤] وفقد بذلك سنداً قوياً [١٣٥] . وفي محرم سنة (٩٥١هـ /١٥٤٤م) انتشرت التمردات والفوضى القبلية في أسفل وادي حضرموت ومنطقة الخموم ، ودفعت هذه التطورات إلى دخول السلطان بدر في صلح مع العمودي في السنة نفسها [١٣٦] . وقد صمد هذا الصلح لمدة أربع سنوات تقريباً ركز السلطان بدر خلالها جهوده في ساحل حضرموت الشرقي . ودخل في صراع مع المهرة[١٣٧] . وفي هذه الأثناء انتقض الصلح بين السلطان وبين قبيلة نهد ودخلت في تحالف مع العمودي. وأمام هذه التداعيات ولتعويض ما خسره في الساحل الحضرمي هاجم السلطان مدينة بضه للمرة الثالثة وذلك سنة(٩٥٥هـ /١٥٤٨م) مستعيناً بقوات عثمانية بقيادة يوسف التركي .

ووفقاً للتحالف الأخير بين قبيلة نهد وبين العمودي فقد أسهم نهد في فك الحصار عن بضه وحدثت اشتباكات قتل فيها عدد من الفريقين [١٣٨] . أما السلطان بدر فلم يدرك خطورة هذه التداعيات ومكث عند وصوله وادي حضرموت في مدينة سيئون ، وفي خطوة غير مناسبة قبل أن يتدخل في الصراع القبلي في مدينة حبان غرب حضرموت بناء على طلب حاكمها ثم عاد إلى الشحر مروراً بهينن وسيئون ولكن بانتصارات مؤقتة [١٣٩] . وقد حرص العمودي على تتبع خطوات السلطان بدر و إفسادها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، فذهب إلى حبان وأصلح المتنافسين فيها وكتل بعض القبائل لصالحه لاسيما تلك التي دخل السلطان بدر في عداء معها بدون مبرر . كما اتصل بشخصيات قيادية في نهد وهاجم بالقوات التي جمعها والتي تحمل مصاريفها بعض البلدات الكثيرية ، و أمعن في تحديه للسلطنة الكثيرية بأن استولى على أهم البلدات وهي هينن وبور [١٤٠] .

وهكذا أظهرت الأحداث السابقة خطورة الشيخ العمودي[١٤١] ومقدرته على الصمود بل وتحريك الأحداث السياسية في حضرموت . ومن جانب آخر كشفت عن مدى التخبط في سياسة بوطويرق التي ساعدت على توسيع جبهة أعدائه وأضرت باستقرار حكمه[١٤٢]. لهذا اضطر السلطان إلى أن يعقد مع العمودي صلحا جديداً في رجب (٩٥٦هـ/١٥٤٩م) بعد أن فشلت محاولاته في القضاء على سلطته في دوعن وقد صمد هذا الصلح إلى أن انتهت حياة السلطان بدر السياسية[١٤٣].

٣- محاولات توسع السلطنة الكثيرية في منطقة المهرة :

نافست أسرة بادجانة المهرية السلطنة الكثيرية في السيطرة على مدينة الشحر . وباستيلاء السلطان جعفر على الشحر سنة (٩٠١ هـ/ ١٤٩٥م) وضع حداً لتطلعات المهرة في السيطرة عليها ، واضطروا إلى العودة إلى قاعدتهم في بلدة حيريج يتحينون الفرص لإعادة ترتيب وضعهم السياسي.

واحتلت منطقة المهرة جانباً مهماً من سياسة السلطان بدر بوطويرق التوسعية ، وأول الأعمال التي قام بها فيها ، كانت في جمادى الآخرة سنة (٩٤٢ هـ / ١٥٣٥م) عندما تقدم على رأس حملة عسكرية ضمت إلى جانب عسكره عناصر من أشراف الجوف ، وقد استولى في هذه الحملة على بلدة حيريج و طرد أميرها احمد بن محمد بادجانة و عاد إلى الشحر بعد أن ترك فيها عاملاً من قبله[١٤٤] . و قد ألقى الصراع الأسري الكثيري بظلاله على هذه العملية فقد ضغط (السلطان) محمد – كما ذكرنا – على عودة حيريج لأهلها .

ولا نعرف على وجه التحديد مصير أسرة آل بادجانة في حيريج بعد ذلك ، ونستدل من حوادث بافقيه لسنة (٩٥١ هـ / ١٥٤٤م) أن هناك أسرة جديدة ظهرت فيها وهي أسرة آل بن عفرار وأنهم تزعموا المقاومة ضد العثمانيين الذين كانوا يجبون السواحل العربية و يطلبون من أصحابها الهدايا و الهبات [١٤٥]، ولأن قاعدة هذه الأسرة هي بلدة قشن فيغلب الظن أن أسرة بن عفرار[١٤٦] سيطرت على حيريج ولم تجعلها قاعدة لحكمها و ذلك لسهولة وصول الكثيريين إليها سواء عن طريق البر أو البحر ، ولم يكن بخاف تطلعات السلطان بدر نحوها . لهذا نجد أن مركز الثقل السياسي للمهرة قد تحول إلى قشن الساحلية فموقعها متوسط بالنسبة لمناطق المهرة وبعدها النسبي لمناطق السلطنة الكثيرية لاسيما الشحر لهذا تزعمت هذه الأسرة و المدينة حركات التمرد و الاستقلال ضد تطلعات السلطنة الكثيرية في المناطق المهرية .

كانت أكبر حملات السلطنة الكثيرية للسيطرة على بلدة قشن هي تلك التي انطلقت من الشحر في ٢٢ رمضان (٩٥٢ هـ / ١٥٤٥م) مكونة من قوات برية وبحرية ضمت عناصر من بادية حضرموت وقوات السلطنة و من أشراف الجوف ، وبعض القبائل اليافعية وعساكر عثمانية [١٤٧] و لضخامة الحملة علق عليها المؤرخ بافقيه بقوله ((فكان تجهيزاً عظيماً لم يعهد مثله)) [١٤٨]. و رغم ضخامة الحملة فإنها قوبلت بمقاومة من قبل قبائل المهرة ، ولكن المقاومة لم تستمر طويلاً ، إذ تمكنت قوات السلطنة الكثيرية من دخول قشن ٨ شوال (٩٥٢ هـ / ١٥٤٥م) و هرب منها أميرها سعيد بن عبد الله بن عفرار [١٤٩]. و ذكر ابن هاشم أن الحملة الكثيرية على المهرة جاءت بعد أن استعد المهرة للهجوم على الشحر [١٥٠]. و لقد اتضح لنا من المادة التاريخية التي وقفنا عليها أن المهرة قبل الحملة الأخيرة قاموا بأعمال حربية بحرية ، و كانوا يتعاونون مع البرتغاليين . ورفضوا تقديم هبات و هدايا لقادة الأسطول العثماني و اشتبكوا معهم، ولعل ذلك يفسر الأسباب الحقيقية لهذه الحملة .

وعلى أيّة حال فإن حملة بوطويرق على المهرة لم تكن نهاية للصراع بين السلطنة و المهرة بل كانت حلقة من صراع طويل انتهى لصالح المهرة – على نحو ما سنرى – ففي سنة (٩٥٣ هـ/ ١٥٤٦م) تمكن المهرة من استعادة قشن و قتلوا عامل السلطنة [١٥١]، أما رد السلطان بدر فكان سريعاً إذ جهز حملة ثانية في ٢٢ ربيع الثاني من السنة نفسها انطلقت من الشحر بمحاذاة الساحل و بالقرب من بلدة سيحوت التقت هذه القوات مع القوات التي أرسلها ابنه من داخل حضرموت عن طريق وادي المسيلة ولأن بلدة قشن بعيدة عن خط المواجهة الأول مع السلطنة فقد واجهت الحملة في بدايتها صعوبات ، وأعطى هذا للمهرة مجالاً للمناورة و ركزوا جهودهم للمقاومة فوق عقبة (لين)[١٥٢] ،وعندما وصلت القوات الكثيرية إلى سفح هذه العقبة واجهت مقاومة قوية من قبل المهريين و انتهت المعركة لصالح الكثيريين [١٥٣].

و يبدو أن المهرة عولوا كثيراً على عقبة لين و جعلوها خط الدفاع الأساسي لهم واجتمع فيها الكثير من مشايخهم و أعيانهم ، لهذا لم يواجه الكثيريون بعد هذه المعركة مصاعب تذكر و دخلت القوات قشن للمرة الثانية في ١٧ جمادى الأولى (٩٥٣ هـ/ ١٥٤٦م)[١٥٤].

لم يكسر هذا النصر الكثيري روح المقاومة عند المهريين وقد تطور هذا الصراع عندما دخلت فيه عناصر خارجية تمثلت في البرتغاليين الذين استنجد بهم الأمير المهري سعيد بن عفرار و تمكن بمساعدتهم من استعادة قشن في ٢٤ صفر (٩٥٥ هـ / ١٥٤٨م) رغم المقاومة التي أبدتها الحامية الكثيرية [١٥٥].

و رغم النصر الذي حققه المهريون في قشن فإنهم كانوا يدركون أن وراءه المساندة البرتغالية غير الدائمة ، لهذا تطلعوا إلى الدخول في مفاوضات مع السلطان بدر تجنباً لرده الانتقامي المتوقع ، و أرسلوا إليه وفداً للتفاوض في الصلح . لكن السلطان بدراً لم يعرّ لهذه الخطوة المهرية أي اهتمام بل قرر مهاجمة قشن للمرة الثالثة[١٥٦] ، و جهز حملة برية و بحرية تحت قيادته تحركت من الشحر في ١٤ ربيع الأول (٩٥٥ هـ / ١٥٤٨م) وعندما وصل السلطان بدر إلى بلدة حيريج تقدم إليه الأمير سعيد بن بن عفرير شخصياً عارضاً عليه الصلح للمرة الثانية[١٥٧] ، و قبل السلطان الصلح ، و اتفقا بموجبه على أن للمهرة قواعدهم الأصلية التي يجب احترامها ومن جانبهم تعهد المهرة بأن لا يتحرشوا بموانئ السلطنة و لا بأي جزء منها [١٥٨].

يعد الصلح مكسباً كبيراً للمهرة فبموجبه اعترف السلطان بدر بسلطة المهرة في مراكزهم الرئيسة ، ولاشك أن قدوم سعيد بن عفرار إلى حيريج كان خطوة ذكية ، كان هدفه منها إيقاف تقدم الحملة الكثيرية عن طريق استرضاء بوطويرق و إشباع غروره . وكيفما كان الأمر فقد كانت هذه آخر الحملات الكثيرية القوية ضد المهرة في عهد السلطان بدر الذي أدرك صعوبة إبقاء منطقة المهرة تحت نفوذ السلطنة ، و مدى استبسال المهرة في القتال في مناطقهم وأثر النصر المعنوي الذي قدمه له بن عفرار .

يتضح مما تقدم أن السلطان بدراً تمكن من تأسيس سلطنة مترامية الأطراف[١٥٩] ، فقد نجح أولاً في الحفاظ على مركزه في السلطنة و قضى على محاولات أخيه المتعددة في إزاحته . كما امتد حكمه ليشمل معظم مناطق حضرموت و المهرة وبعض مناطق العوالق والواحدي غرب حضرموت ، إلا أن هذا الامتداد لم يتم في فترة زمنية واحدة بل رأينا أنه عندما يتوسع في منطقة ما تكون الأخرى قد خرجت من تحت نفوذه أو ضعفت سلطته فيها . و مع هذا فإن أهمية المعارك التي خاض غمارها السلطان بدر تكمن في سيطرته و محافظته على أهم المدن الحضرمية سواء كانت في ساحل حضرموت أو داخلها تحت نفوذه ، و هو بهذا قد حافظ على وحدة السلطنة الكثيرية وتماسكها .

و يبدو أن أبرز أخطاء السلطان بدر أنه امتد بتوسعاته إلى حد لا يتناسب مع إمكانات حضرموت والسلطنة الكثيرية فيها ، بمعنى آخر كانت الطموحات أكبر من الإمكانات ، لهذا حاول أن يعوض ضعف الإمكانات بالاستعانة بالقوى الخارجية و هذا التعويض كان وقتياً ، و لم يكن له طابع استراتيجي . و ما يقال عن أن حضرموت خضعت كلها للسلطان بدر فإن ذلك من قبيل التجاوز و الإفراط في التقريظ ، لأن الواقع غير ذلك . بل لم تشهد حضرموت في تاريخها الحديث كله دولة قوية ذات شوكة فعالة .[١٦٠]

ثالثاً :سياسة السلطان بدر وأبرز إصلاحاته :

يعد السلطان بدر بوطويرق من الشخصيات السياسية الحضرمية التي أثير حولها الجدل ، وتعددت الاجتهادات في تناولها و تقويم عصرها . كما يحتل مكانة خاصة بالنسبة للسلاطين الكثيريين فهو بحق أهمهم و من الحكام الأقوياء وقد بذل جهوداً كبيرة لتوحيد منطقة حضرموت و انضوائها تحت نفوذ السلطنة الكثيرية و في عهده بلغت السلطنة قمة اتساعها.

و كان القرن السادس عشر الميلادي (العاشر الهجري) الذي ظهر فيه السلطان بدر حمل في جنباته الكثير من المتغيرات الدولية التي أفرزتها حركة الكشوف الجغرافية ، وما واكبها من أعمال عسكرية برتغالية على السواحل العربية في الجزيرة العربية ثم تدخل إسلامي مملوكي مصري و عثماني .و لاشك في أن هذه التطورات ربطت تاريخ حضرموت بالتاريخ الدولي ، وقد تعامل السلطان بدر مع هذه المتغيرات بتناقض غريب الأمر الذي يجعلنا نرى من الضرورة بمكان وضع السلطان بدر في الميزان لنحاول أن نستكشف جوانب شخصيته و سياسته لعل ذلك يساعدنا في القراءة الصحيحة للأحداث التاريخية المتنوعة التي شهدتها حضرموت في ذلك الوقت .

وفي أثناء الصفحات السابقة تناولنا جوانب معينة من شخصية السلطان بدر وسياسته لما لذلك من علاقة مباشرة في تحليل الأحداث التاريخية المتناولة ، و لكننا عمدنا إلى الاختصار في بعضها و تركنا الإشارة إلى بعضها الآخر في هذا المبحث .

سياسة السلطان بدر الداخلية والخارجية :

حفلت كتب التراجم و الحوليات الحضرمية بعبارات الإطراء للسلطان بدر بوطويرق ، في حين نجد عدداً قليلاً منها لا يخلو من إشارات النقد الضمني حيناً والمباشر حيناً آخر . و من أمثلة ما قيل في السلطان بدر من قبيل الإطراء ما ذكره العيدروس بقوله : ((كان حسن الأخلاق جواداً كثير الإنفاق وافر العقل ... و هو الذي دان البلاد و خضعت له البلاد و أول من أظهر بحضرموت هيبة الملك بسعده وأسس قواعد السلطنة و مهدها لمن بعده))[١٦١] أما باحسن فيصفه بأنه : ((الملك العادل السعيد... رئيس الملوك و إكليلها و بدرها المشرق))[١٦٢].

ولا يخفى أن كتب التراجم والحوليات غالباً ما يطلق أصحابها لأنفسهم العنان في المدح و الإطراء ، من دون روية و يكتبون على قاعدة اذكروا محاسن موتاكم . وعلى أيّة حال فإن المحك الأساسي لدراسة أية شخصية سياسية وتقويمها هو دراسة مدى نجاحاتها و إخفاقاتها في التعامل مع مجمل التطورات التي شهدها في فترات حكمه ، مع الأخذ بعين الاعتبار عند طرح الأحداث الماضية تحت مجهر الفحص العلمي الحديث عدم معالجتها بمنظار اليوم لأن كل عصر له ملابساته و مجرياته . فالسلطان بدر منذ ظهوره على المسرح السياسي شارك في حكم السلطنة أميراً و تصرف بوصفه سلطاناً متوجاً له كامل الصلاحية قبل أن (يتنازل) له أخوه رسميا عن السلطنة . و كان أول الأعمال التي قام بها هو عزله الأمير مطران بن منصور عن منصبه في ولاية الشحر[١٦٣] ، و سجنه و مصادرة أمواله و ذلك في سنة(٩٢٦ هـ/ ١٥١٩م) وعزا ابن هاشم ذلك إلى ظهور أغراض الرجل و نياته غير المحمودة [١٦٤]. ثم أعاده السلطان بدر على ولاية الشحر و رد أمواله . وفي سنة (٩٢٨ هـ / ١٥٢١م) عزل السلطان بدر (خادم) الغيل علي بن النقيب من منصبه و أمعن في القسوة عليه و سمل عينيه ، متأثراً في ذلك بالوسائل التأديبية البشعة التي يستخدمها الفرس و العثمانيون ، ثم ولاه بعض المناصب و هو أعمى .

تظهر هذه الإجراءات مدى تخبط قرارات السلطان بدر وتسرعه فيها في السنوات الأولى لحكمه ، وإذا قرنا هذه الأعمال بصغر سن السلطان و قلة خبرته و عدم مراسه في شؤون الحكم ، فإنّ لها وجهاً آخر ، فهي تنذر بوجود شخصية كثيرة غير تقليدية . كما أن أسلوب سمل العيون و هو أسلوب لم يعهد مثله في المنطقة بشكل عام على حسب علمنا يفصح عن شخصية تميل إلى العنف و القوة ، و قد لاحظنا جوانب من ذلك عندما تناولنا حروبه المختلفة .

وفيما يتعلق بالصراع بينه و بين أخيه السلطان (المخلوع) محمد وجدنا السلطان بدراً تصرف بخصوصية معينة ، فهو و إن أقلقته تحركات أخيه المبكرة فإنّ لم يقم بإجراءات حازمة ضده ، وتميزت أعماله بردود الفعل و الإجراءات الوقائية . ويبدو أن موقف السلطان هذا مبني على اعتبارات منها الجانب الأسري ، فالسلطان بدر تربى في أحضان أخيه الأكبر ومهما قيل في كيفية وصوله إلى الحكم ومدى صحة التنازل الذي سبق أن ذكرناه ، فإن بوطويرق لابد أن يدرك أن أخاه هو الذي أعطاه فرصة الحكم وحرية التصرف منذ وقت مبكر من حياته في

الوقت الذي كان فيه السلطان محمد في أوج قوته . و الاعتبار الثاني، و هو الأهم، تزامن خروج السلطان محمد على أخيه مع ظهور عدد من الجبهات المناوئة له، والتي امتدت لتشمل حضرموت ساحلها ووادیها ، و تغير العلاقة بين الأخوين و حالات الصلح وفقاً للنجاحات الميدانية التي يحققها أحدهما . وقد لخص السقاف العلاقة بين الأخوين بقوله: ((إن محمداً يجبن عن مكاسرة بدر و منازلته و بدر يعرف لمحمد بعض الحق لاسيما بعد انتزاعه منه الخطبة))[١٦٥].

وفي صورة أخرى من صور تعامل السلطان بدر مع المنافسين له لاحظناأنه اتخذ إجراءات قوية ضد الأميرين الكثيريين اللذين تمردا عليه في شبام ثم مبالغته في إهانة الشيخ معروف باجمال وهو من شيوخ العلم والإصلاح في حضرموت وفي رواية العيدروس لهذه الحادثة نستشف نقداً خفياً لهذا التصرف عندما قال : ((... على أن هذه الطائفة العلية كما قيل في نعوتهم السنية أنهم رضى الله عنهم يتلذذون بالبلوى كما يتلذذ غيرهم بالنعيم))[١٦٦].

إن القراءة السريعة لسياسة السلطان بدر الداخلية ستجعلنا ننحي عليه باللائمة ونتهمه بأنه فتح على نفسه جبهات عديدة اهتز في إثرها الاستقرار في حضرموت وسادت الصراعات . ولكن فحصاً دقيقاً للأحداث وتداخلاتها يمكننا أن نلتمس له بعض الأعذار ، ذلك إن الأعمال التي قام بها لغرض بسط نفوذ السلطنة في حضرموت ربما يعذر عليها ، فمن المنطقي أن يوجد له مناوئون، لاسيما أولئك الذين مستّ هذه الإعمال مصالحهم ونفوذهم . كما أن تأسيس حكم قوي يضع حداً للانقسام القبلي وتعدد الكيانات السياسية تعد خطوة متطورة بكل المقاييس ، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: ما مدى تقبل المجتمع لهذه الخطوة بحيث يضمن لها البقاء والاستمرار ؟ وقد لاحظنا أن المجتمع الحضرمي غلبت عليه الصبغة القبلية ولم يستطع بوطويرق إلا أن يمد نفوذه في أهم المدن والبلدات الحضرمية .

وفي كفة الميزان الأخرى لا نستطيع أن نتجاهل سياسة بوطويرق الداخلية التي بموجبها فقد الكثير من الحلفاء والأصدقاء وقد عبر عن هذا الوضع شاعر شعبي معاصر له[١٦٧] بقوله:

قدها عليه هضه[١٦٨] يضم ويضيع ويوقظ الفتنة وهي نعسانه
ما فادت الحملات قل له هون[١٦٩] الجند فشلت والعرب تلفانه
ضيعت رزق الخلق في كثر السفه ألوف لي ضيعتها حنانه

ومما يؤخذ على السلطان بدر عدم اختياره الأوقات المناسبة للبقاء في إحدى عاصمتيه : سيئون والشحر. ففي الفترة الأولى من حكمه كان يتواجد في داخل حضرموت في وقت كان البرتغاليون يعيثون فساداً في السواحل ، وعندما ماجت حضرموت الداخل بالأعداء والمناوئين للسلطنة كان كثيراً ما يكون في الشحر العاصمة الساحلية للسلطنة وحتى عندما يأتي إلى داخل حضرموت نجده أحياناً يسرع بالعودة إلى الشحر دون أن يتابع ما يستلزمه واجب الحيطة والترقب بعد نهاية الأعمال القتالية.

وعلى العموم، فإن سياسة السلطان بدر بوطويرق وشخصيته تحمل الكثير من المتناقضات ، وعندما أراد مؤرخ محدث أن يمدحه لم يستطع إلا بتوظيف المتناقضات فقال : ((كان شديدا في حكمه قاسياً في أوامره لكن كانت هذه الشدة والقسوة لصالح الأمة ومنفعتها))[١٧٠]. وصفوة القول إن السلطان بدر رافقت سياسته الداخلية التوفيق والفشل وكانت بنت عصرها وبيئتها ، وقد امتدت به أفكاره وتطلعاته إلى مدى بعيد ، وقد حقق أكثر مما حققه السلاطين الكثيريون .

وفي ما يتعلق بسياسة السلطان بدر الخارجية فقد شكلت عملية الاستعانة العسكرية بالقوى من خارج حضرموت حجر الزاوية في السياسة الخارجية للسلطان بدر ، الذي أدرك، ولعله على حق، أنه تعزيز نفوذ السلطنة وتوسيعه في كل مناطق حضرموت وانقاذ موقفه السياسي المتردي يتطلب إيجاد قوى من خارج حضرموت تغير موازين القوى وتضع حداً للانقسام وللفوضى القبلية ، ذلك أن قوات السلطنة الكثيرية من الضعف بحيث لم تستطع أن تضطلع بهذا الدور، كما أن القبيلة الكثيرية لم تكن من القبائل الحضرمية الكبيرة وأكثر من هذا أن قسماً كبيراً من أفراد هذه القبيلة لا يؤيد سياسته ، وحول هذه السياسة الخارجية كتب باوزير : ((كان الأمراء من آل كثير لهم طموحهم في السيطرة وتطلعهم إلى النفوذ كما أن كل قبيلة مسلحة تتحين أي فرصة لإعلان عصيانها وليس هناك وسيلة لإخضاع تلك الرؤوس المتطلعة إلى الفتنة السياسية في تجزئة البلاد غير الالتجاء إلى القوة التي تعتمد على عناصر من الخارج))[١٧١].

لذلك عمل السلطان بوطويرق على أن يكون أكثر أعداد جيشه من عناصر غير حضرمية، فمن القوى اليمنية التي استفاد منها القبائل اليافعية ، وقبائل الجوف الزيدية ، ومن القوى غير اليمنية ، العبيد الأفارقة الحاشية والعثمانيون و أحياناً البرتغاليون . وربما رأى أن هؤلاء أدعى للاطمئنان لهم في عدم منافسته، كما أنهم لا يرتبطون بأواصر القرابة مع القبائل الحضرمية [١٧٢]. وأولى القبائل اليمنية التي استفاد منها بوطويرق هي القبائل اليافعية [١٧٣] ، ويرى بعض المؤرخين[١٧٤] أن السلطان بدر ذهب إلى شماليّ اليمن في شهر ذي الحجة سنة (٩٢٥هـ ١٥١٩م) وطلب من الإمام الزيدي أن يمده بجيشه واختار السلطان من القبائل المهنئة للإمام بالعيد قبيلة يافع واستقدم منهم خمسة آلاف إلى حضرموت واستعاد بهم مدينتي شبام وتريم . ويبدو أن في هذه الرواية سقطاً تاريخياً ففي هذه الفترة استعان بوطويرق بالعثمانيين كما ذكرنا ولا توجد شواهد تاريخية تؤكد وصول هذا العدد الكبير إلى حضرموت ، ومع ذلك لا تخلو المصادر الحضرمية من الإشارة إلى وجود جنود يافعيين عملوا لصالح السلطنة الكثيرية مع بوطويرق[١٧٥] ، وعلى أيّة حال فإن الوجود اليافعي القوي والمكثف في حضرموت سنجده في فترة لاحقة من هذه الدراسة .

أما أهم تحالفات السلطان بدر مع القوى اليمنية التي تركت آثارها الملموسة على السلطنة بشقيها السلبي و الإيجابي فكانت قبائل الجوف بزعامة الشريف ناصر بن أحمد البهال الجوفي، و كان لهؤلاء في البداية دور قوي في تعزيز موقف السلطان بدر السياسي و العسكري المتدهور وتثبيته لاسيما في حضرموت الداخل . كما أن السلطان بدراً أوجد لأشراف الجوف مكاناً للإفادة من الحرب بعد أن تمكن الإمام شرف الدين من هزيمتهم و استيلائه على مدينة صعدة منهم [١٧٦]. و هكذا فقد كان بكل طرف حاجة إلى الآخر، ورسمت هذه الحاجة المشتركة صيغة حلف و مصالح بلغت مدى بعيداً . و قد بالغ السلطان بدر في الإغداق على الشريف ناصر بن أحمد و قد عدد بافقيه ما قدمه له سنة (٩٤٦ هـ / ١٥٣٩م) من ذلك : أعطاه ما في بلدة هينن من المال و العدة، و١٥ عبدا و٣٠٠ أوقية ذهباً و نحو ٥٠ خرقة حرير، و من الدراهم مبلغاً كبيراً و وعده بإعطائه تريم إذا جلب رجالاً لمحاربة أعداء السلطان [١٧٧].

و يبدو أن الإفراط في الافتراضات في تناول صحة أو عدم صحة هذه الروايات سيؤدي في غياب المصادر الأخرى إلى استنتاجات غير علمية ، كما يصعب الشك فيها . فالمؤرخ بافقيه الذي ذكر هذه الرواية كان قريب العهد بها ، وبالنظر إلى شخصية بوطويرق و النجاحات التي حققها لصالح الشريف ناصر بن أحمد كل ذلك يدفع باتجاه قبول جزء كبير من هذه الرواية لاسيما ما يتعلق بالهبات ، أما الوعد بتسليمه تريم أهم مدن حضرموت الداخل فنشك فيه .

وكيفما كان الأمر فإن الاستعانة بالقوى الخر من خارج حضرموت، أضرت بحضرموت أكثر مما نفعتها . فالجندي المنقول بهدف (الرزق) يكون أميل إلى التخريب والسلب ، ومن جانب آخر أظهرت هذه العملية السلطان بدراً و كأنه غريب عن التركيبة السياسية الحضرمية، فبدا كسلطان حضرمي بقوى معظمها غير حضرمية .

وقد أثارت هذه السياسة الخارجية حفيظة المؤرخين و الوجهاء آنذاك و عبروا عن نقدهم إياها . أما السلطان بدر فلم يعبأ بهذه الانتقادات ، فكانت تستهويه سياسة استعراض القوة ، و ربما ترسخت لديه استراتيجية الاعتماد على القوى الخارجية و أثرها القوي والمباشر منذ السنوات المبكرة لحكمه عندما استعان بالعثمانيين سنة (٩٢٦هـ/١٥١٩م)، كما سبقت الإشارة والتي حققت له انتصارات سريعة قفزت به إلى صدارة الحكم الفعلي والرسمي للسلطنة. ولا نستطيع أن نستبعد الروح (الميكافيلية) من شخصية السلطان بدر عند استعانته بهذه القوى ، فهو لم يلتفت إلى خطورة هذه السياسة ليس فقط في تعزيز الانقسام القبلي في حضرموت واستمرار الفوضى ومعاناة السكان. بل حتى على مستقبل السلطنة الكثيرية فهو كمن يستبدل قوى خارجية بأخرى محلية (١٧٨).

وصفوة القول إذا كانت هذه القوى الخارجية سواء كانت يمنية أم أجنبية قد حققت للسلطان بدر بعض الانتصارات وقللت من خطورة أعدائه المحليين وقلبت الموازين العسكرية لصالحه أحيانا فإنَّ نتائجها في المحصلة الأخيرة كانت وقتية، لأن جبهات المناوئين له ظلت قائمة طوال فترة حكمه لكن بوتائر متفاوتة من هذه القوة .

أبرز إصلاحات السلطان بدر :

تطور النظام الإداري للسلطنة الكثيرية في عهد السلطان بدر مقارنة بما هو سائد قبله بحكم التطور التاريخي للسلطنة ، وبعد أن توسعت السلطنة وشملت معظم مناطق حضرموت وبعض المناطق المجاورة، وقد أسهمت القوى القبلية وضعف الاستقرار السياسي في عدم بلوغ هذه التطورات حداً بعيداً. ولعل أبرز المعضلات التي واجهت حكم السلطان بدر هو كيفية التوفيق في معادلة الحكم الصعبة التي تتمثل في العمل على ترسيخ نفوذ السلطنة والقضاء على المناوئين وما سيتبع ذلك من حروب ونفقات وبين عملية البناء المؤسس للسلطنة التي بالضرورة تحتاج إلى الاستقرار السياسي وتركيز الجهود . ولهذا فإننا لو حاولنا أن نعطي ملخصاً لفترة حكم السلطان بدر فيمكن أن نقول إنها صراعات وهي الأغلب ومحاولات بناء. والسؤال الذي يطرح نفسه : إلى أي مدى نجح أو فشل بوطويرق في التفاعل والتعامل مع هذه المعادلة ؟

بداية نريد أن نقول إننا لسنا بصدد دراسة النظم الإدارية والحياة الاقتصادية والاجتماعية للسلطنة الكثيرية لأسباب منها :الالتزام العلمي بموضوع الأطروحة ، كما نشعر أن هذه الجوانب تحتاج إلى دراسة مستقلة وتصدٍّ خاص . وإذا كنا نكرر بث شكوانا من قلة المصادر، والحوليات الحضرمية وبخلها في سرد الأحداث التاريخية ، فلنا أن نتصور مدى الصعوبة في استخراج المادة التاريخية غير السياسية من هذه المصادر، ومع هذا سنحاول بإيجاز أبرز ما جادت به هذه المصادر في أثناء تناولها للأحداث التاريخية.

ففيما يخص الحكم والنظام الإداري نلحظ أن حكم السلطان بدر بوطويرق يعد امتداداً طبيعياً لمن سبقوه من السلاطين الكثيريين من حيث تركز السلطة السياسية في يده وترأسه للأسرة الكثيرية الحاكمة . وكان الابن الأكبر غالباً ما يكون ولياً للعهد ، على أن هذه التسمية لم تذكر في المصادر مباشرة ، ويبدو ذلك ليس إغفالاً منها ، لكنه عملٌ بما هو شائع آنذاك من إطلاق لقب السلطان على كل أفراد أسرة السلطان القائم سواء كانوا قريبين أو بعيدين عن الحكم .

ومن الوظائف المهمة التي استحدثت في عهد السلطان بدر منصب المستشار وهو أقرب ما يكون إلى منصب الوزير ، و أول من احتل هذا المنصب، الشيخ عبدالله بن عمر بامخرمة[١٧٩] ، على أن هذا اللقب لم يكن منصباً رسمياً بحتاً بل اعتبارياً يعتمد في الأغلب على ثقة السلطان الشخصية في الشيخ بامخرمة ، وذلك للمركز الديني والوجاهة الاجتماعية التي يحتلها حتى كان يلقب بالشافعي الصغير[١٨٠].

ويصف مؤلف السنا الباهر[١٨١] هذه العلاقة بقوله : ((... كان السلطان كثير الاعتناء به والتعظيم له والتوقير لمنصبه والاغتباط به والامتثال لأمره والانقياد له ... وكان يكتب عنه الرسائل وجواباتها لسلاطين بن عثمان وباشاتهم ولاة الحجاز)) . ولا مجال هنا لتحليل ما يحمله النص من مبالغة ، وما يهمنا الإشارة إلى أن هناك عناصر جديدة في الحكم بدأت في الظهور . وإذا كنا لا نستطيع أن نذكر باطمئنان أن هناك تطوراً في البناء المؤسسي للسلطنة حدث في عهد السلطان بدر فيما يتعلق بنظام الوزارة ، فإنهُ يمكن القول، وبالمقارنة مع ما كان سائداً قبله، إن هناك تطوراً نسبياً حدث في ذلك الاتجاه .

وبحكم التوسع الذي شهدته السلطنة الكثيرية في عهده زادت السلطنة في تعيين الولاة والقضاة في المناطق المفتوحة ، وقد اختلفت الألقاب الرسمية التي يحملها هؤلاء الولاة وفقاً لأهمية المنصب فالبلدات غير الرئيسة كان يطلق على العامل فيها (خادم) كخادم غيل باوزير – خادم غيل بن يمين ، في حين نجد اللفظة في المدن المهمة كالشحر تختلف ويلقب العامل فيها بالأمير . ولعلاقة السلطان بدر الضعيفة بالأمراء الكثيريين وربما لخوفه منهم فقد كان معظم خدامه وأمرائه من خارج القبيلة الكثيرية .

ونستدل من الوثيقة التي كتبها السلطان بدر للشيخ عمر بن عبدالله باوزير[١٨٢] أنه كان للسلطنة الكثيرية بعض الدواوين المساعدة في إدارة الحكم أهمها الدواوين المتعلقة بتحصيل الضرائب و العشور لأنها تعد مصدر الدخل الرئيس للسلطنة .

وإذا كان من المنطقي بحكم الفترة التي ظهرت فيها السلطنة وطبيعة المجتمع القبلي الحضرمي أن لا تظهر فيها المؤسسات أو المجالس المساعدة في الحكم، فإنَّ لعصر بوطويرق نظمه وتقاليده الخاصة التي أسهمت ولو بشكل طفيف في الضغط وتوجيه السياسة العامة في

السلطنة ، وتمثل ذلك في أصحاب النفوذ الروحي في المجتمع وهم المشايخ والسادة ، فهؤلاء يتستر في كثير من الأحيان طابع دعواتهم الإصلاحية والمعارضة برداء النصيحة والصالح العام للسلطنة والمجتمع ولا يستطيع أي سلطان تجاهلها بالكلية . وكان التقرب أحياناً من هؤلاء وقبول شفاعتهم أو إجزال العطايا لهم يعد شكلا من أشكالاً مهادنة السلطة لهم ليعملوا على تحسين صورتها والدعاية لها . أو على الأقل لتكف خيرهم وشرهم .

أما إصلاحات السلطان بدر على الصعيد الاقتصادي فالصعوبة في إبرازها ، إن وجدت ، لا تكمن فقط في قلة المصادر فحسب بل أيضاً في البحث عنها تحت كومة الأنقاض التي خلفتها معاركه المختلفة ، وما يعنيه ذلك من نفقات عسكرية باهظة لهذا لم تذكر المصادر التي وقفنا عليها أي إصلاحات اقتصادية ذات طابع نفعي عام كتمهيد طريق أو استصلاح أراض زراعية أو حفر آبار وغيرها من أشكال البناء الاقتصادي باستثناء بناء الحصون والقلاع الحربية . أما المؤرخ باحسن ولعله بالغ عندما أشار إلى تطورات اقتصادية حدثت في عهد السلطان بدر في سياق مدحه العام للسلطان بدر فمما قاله : ((... واتسع نطاق الحضارة وامتد العمران وراجت سوق الزراعة وفاضت ينابيع النعم وأحدقت بالناس مجاري الثراء)) (١٨٣).

وحقيقة الأمر لا يمكن أن نغفل الإشارة إلى فترات توسع السلطنة وحالات الاستقرار التي تشهدها هذه فضلاً عن موارد السلطنة من موانئ الشحر وظفار والعشور الزراعية والضرائب المختلفة كل ذلك لا بد أن ينعش اقتصاد السلطنة وقتياً ولكن الحروب العديدة التي خاضتها السلطنة والعناصر الداخلية والخارجية التي جندتها وما يستلزم ذلك من نفقات سيترك آثاره السلبية على اقتصاد السلطنة . ولأن طبيعة المجتمع الحضرمي تقوم على أساس الاقتصاد الطبيعي ، فإن أي اهتزاز في مقومات هذا الاقتصاد كانحباس الأمطار تظهر نتائجه مباشرة في المجتمع ، ولهذا نلحظ أن كتب الحوليات الحضرمية تزخر بذكر سنوات المجاعات وارتفاع الأسعار. وهكذا فإن الصراعات القبلية والظروف الطبيعية ألقت بثقلها على الحياة الاقتصادية وتزداد الأمور سوءًا عندما يجتمع هذان العاملان في وقت واحد ويدفع الثمن غالباً السكان الحضريون .

ومما يستوجب الذكر عند هذا التناول المختصر للحياة الاقتصادية في حضرموت في عهد السلطان بدر هو صكه للعملة الخاصة بالسلطنة وتعد هذه سابقة في التاريخ الحضرمي، ورغم أهمية هذا العمل فإن المصادر لا تسعفنا إلا بإشارات عابرة ، وكان بداية صدور هذه العملة سنة (٩٣٤هـ /١٥٢٧م) بعد الأمر الذي أصدره السلطان بضرب الفلوس في الشحر والتعامل بها [١٨٤]. وهذه العملة عبارة عن ريالات من الفضة وفئاتها الريال – نصف الريال– وربع الريال. وللريال أجزاؤه النحاسية ووحدتها تسمى بقشة وقد ضربت لاحقاً [١٨٥] ، ولا ندري إلى أي مدى كان التعامل بهذه العملة [١٨٦] . ويغلب الظن أن انتشارها كان وقتياً ومحدوداً ، وقد لاحظنا أن الهبات التي يقدمها لبعض الأفراد بعد تاريخ صدور عملته كان يصرفها بالعملة السائدة في اليمن وهي الدينار الأشرفي الرسولي [١٨٧]، وربما جاء ذلك بعد إعلان السلطنة الكثيرية تبعيتها للدولة العثمانية إذ أصبحت العملة العثمانية ضمن العملات المتداولة في حضرموت. وعلى الصعيد الثقافي يعد عصر السلطان بدر من أكثر العصور التاريخية احتفالاً بالعلماء والأدباء الذين اشتهروا في مجالات التصوف والشريعة واللغة والتاريخ [١٨٨]. ومن أبرز إسهامات السلطان بدر الثقافية بناؤه للمدرسة البدرية سنة (٩٥٩هـ/١٥٥١م) وهي ملحق مسجد الشيخ باعمران في مدينة الشحر ، وقد أوقف لها صدقات كثيرة وتخرج فيها الكثير من الطلاب [١٨٩]. ويلحظ ان المدرسة بناها السلطان بدر بعد عام من مذبحة عبيد آل يماني المذكورة، ولعله أراد أن يحسن من صورته ويظهر بمظهر الحامي للشريعة.

إن فترة حكم السلطان بدر بوطويرق تمثل العمق التاريخي والحضاري للسلطنة الكثيرية لهذا احتلت مساحة واسعة من هذه الدراسة ، وقد امتد حكمه حتى إقالته سنة (٩٧٥هـ /١٥٦٧م) ، على أن التحديات التي واجهتها السلطنة الكثيرية في فترة حكم السلطان بدر لم تكن مع القوى المحلية فقط بل أيضاً مع القوى الأجنبية التي جعلت من السواحل العربية للجزيرة العربية أحد أهم مسارح تنافسها وصراعها كما ربطت السلطنة الكثيرية بالتاريخ الدولي، فكيف تعاملت السلطنة الكثيرية مع هذه المستجدات وما آثارها وانعكاساتها عليها؟

الهوامش :

١) عبد القادر شيخ العيدروس، تاريخ النور المسافر عن أخبار القرن العاشر ، بغداد، ١٩٣٤ ، ص ٣٢٧، سعيد عوض باوزير ، صفحات من التاريخ الحضرمي ، ص ١١٩ ؛ محمد بن هاشم المصدر السابق ، ص ٣٤.

٢) محمد عمر بافقيه، المصدر السابق، ص ٣٦، عبد الرحمن بن عبيدالله السقاف، بضائع التابوت ، مخطوط ، و٤٠.

٣) محمد بن أبي بكر الشلي ، السنا الباهر ، مخطوط ، و ٤٤٥.

٤) سنتناول العلاقة بين السلطنة الكثيرية و بين القوى الأجنبية في الفصل الثالث .

٥) سالم محمد بن حميد ، المصدر السابق ، ص ١٦٤.

٦) محمد بن هاشم ، المصدر السابق ، ص ٣٧.

٧) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص ١٤٩- ١٥٠ ، محمد عبد القادر بامطرف ، المختصر في تاريخ حضرموت العام، ص٢٤ ويرى العض أن القوة العسكرية التي استفاد منها بوطويرق هي ضمن قوات الأسطول المملوكي الذي وصل مدينة الشحر في تلك السنة، ولأن المماليك أعلنوا ولاءهم للسلطنة العثمانية عدت تحركاتهم ضمن التحرك العسكري العثماني قبل القدوم الفعلي لهؤلاء في مرحلة لاحقة.

٨) سالم محمد بن حميد ، المصدر السابق ، ص ١٦٤.

٩) حسين بن محمد الإبريقي، الآداب المحققه في معتبرات البندقية ، تحقيق ودراسة عبد الله محيرز بدون مكان طبع ، ١٩٨٨ ، ص ٢٩.

١٠) ابن الديبع ، الفضل المزيد على بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد ، ص ٢٨٠.

١١) عبد الله بن محمد باحسن ، النفحات المسكية في تاريخ الشحر المحمية ، مخطوط ، مكتبة الأحقاف للمخطوطات، تريم، مجموعة الكاف، رقم ٢٢٠١، و ١١٤.

١٢) محمد بن هاشم ، المصدر السابق ، ص ٣٧.

١٣) للمزيد من المعلومات عن البندقية من حيث استخدامه وأجزاؤه وأنواعه ، ينظر: حسين محمد الابريقي ، المصدر السابق.

١٤) عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف ، بضائع التابوت في تاريخ حضرموت ، مخطوط ، و ٤٠٤.

١٥) عبد الله بن محمد باحسن، المصدر السابق ، مخطوط، و ١١٤ ، محمد بن علي باحنان، المصدر السابق ،ص١٨٦.

١٦) صالح الحامد ، المصدر السابق ، الجزء الثاني ، ص ٥٣٠.

١٧) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص ١٥٤ ، محمد بن هاشم ، المصدر السابق ، ص ٣٢- ٣٣.

١٨) عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف ، بضائع التابوت ، مخطوط ، و ٤٠٤.

١٩) زبيد : وادي مشهور يصف في تهامة ثم البحر الأحمر ، وبه سميت هذه المدينة

٢٠) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص ١٦٠.

٢١) الإمام شرف الدين : دعا لنفسه بالإمام سنة ٩١٢هـ/١٥٠٦م ولقب نفسه المتوكل على الله ، دخل في صراع طويل مع الدولة الطاهرية ، ثم بعد الاحتلال العثماني لليمن تزعم حركة المقاومة اليمنية فترة من الزمن .ينظر : محمد بن على الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، ج (١) ، دار المعرفة للطباعة ، ص٢٧٨.

٢٢) عيسى بن لطف الله بن المطهر ، روح الروح في ما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن و الفتوح ، مخطوط ، دار صدام للمخطوطات، رقم ١٠٧٦ ، بغداد ، و٤٨٦. وقد جاءت هذه الرسالة أيضاً بعد الانتصارات التي حققها الإمام شرف الدين في كثير من المناطق اليمنية مستفيداً من تدهور حكم الدولة الطاهرية ، وضعف نفوذ المماليك بعد سقوط دولتهم في مصر، وإعلان تبعيتهم للدولة العثمانية.

٢٣) عيسى بن لطف الله المطهر ، المصدر السابق ، و٤٩٠ ؛ عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف، بضائع التابوت، مخطوط، و٤٢٤

٢٤) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق، ص ١٩٢.

٢٥) غيل بن يمين : وهي المركز القبلي لقبائل الحموم وتقع إلى الشمال الشرقي من الشحر.

٢٦) المشقاص : هي المنطقة الساحلية الشرقية من حضرموت ،و الممتدة من الشحر إلى سيحوت وكذلك المرتفعات الجبلية القريبة و التي تقطنها قبيلة الحموم.

٢٧)سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص ١٦٢

٢٨) عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف ، بضائع التابوت ، مخطوط ، و ٤٠٩.

٢٩) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص ١٩٢.

٣٠) سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص ١٦٢.

٣١) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص ١٩٢.

٣٢) المصدر نفسه، ص ٢١٤.

٣٣) سنتناول الصراع بين السلطان بدر وكل من قبيلة نهد و آل العمودي في مباحث هذا الفصل.

٣٤) سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص ٢١٨ ؛ محمد على باحنان ، ص ١٩٤.

٣٥) عبد الله بن محمد باحسن ، المصدر السابق ، مخطوط ، و ١١٧.

٣٦) نفسه و الصفحة نفسه.

٣٧) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص ٢١٩.

٣٨) محمد بن هاشم ، المصدر السابق ، ص ٣٣.

٣٩) محمد علي باحنان ، المصدر السابق ،ص ١٩٠.

٤٠) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص ٢٢٤.

٤١) المصدر السابق، ص ٢٢٥

٤٢) سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص ١٧٨.

٤٣) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص ٢٧٧ ؛ محمد بن هاشم ، المصدر السابق ، ص ٣٣.

٤٤) محمد علي باحنان ، المصدر السابق ، ص ١٩١.

٤٥) سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص ١٧٩.

٤٦) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص٢٢٧ ؛ محمد علي باحنان ، المصدر السابق ، ص ١٩٠

٤٧) تقع الجوف إلى الشرق الشمالي من صنعاء وتقوم بين جبلين على وادي الجوف الذي يوجد به الكثير من الآثار التاريخية لحضارة مملكة معين القديمة.

٤٨) عبد الله محمد باحسن ، النفحات المسكية ، مخطوط ، و١١٧ ؛ صالح الحامد ، المصدر السابق ، ص ٥٨٩.

٤٩) عبد الله محمد باحسن ، المصدر السابق ، مخطوط ، و ١١٧ ، محمد بن هاشم ، المصدر السابق ، ص ٣٢.

٥٠) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص ٢٣٢.

٥١) المصدر نفسه ، ص ٢٣٢.

٥٢) صالح الحامد ، المصدر السابق ، ص ٥٨٩.

٥٣) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق، ص ٢٣٢.

٥٤) نفسه و الصفحة نفسها .

٥٥) سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص ١٨٢.

٥٦) سنتناول هذا الصراع في المبحث القادم.

٥٧) سيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني الأول لليمن ، ط١٣ ، معهد البحوث و الدراسات العربية ، ١٩٧٨ ، ص ٣٥.

٥٨) المصدر نفسه، ص ٢٥٧ .

٥٩) المصدر نفسه ، ص ٢٧١.

٦٠) سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص ١٨٨ .

٦١) سالم عبدالحميد، المرجع السابع، ص١٨٨.

٦٢) عبد الله محمد باحسن ، المصدر السابق ، مخطوط، و ١٢٢ ؛ محمد عمر بافقيه، المصدر السابق، ص ٢٨٢.

٦٣) قشن : بلدة ساحلية تقع إلى الشرق من الشحر.

٦٤) عبد الله محمد باحسن ، النفحات المسكيه ، مخطوط، و ١٢٢ ؛ محمد بن هاشم ، المصدر السابق ، ص ٣٣.

٦٥) سنتناول صراع السلطنة الكثيرية مع المهرة في المبحث اللاحق.

٦٦) محمد علي باحنان ، المصدر السابق ، ص ١٩٧ ؛ محمد عمر بافقيه، المصدر السابق، ص٣٢٢، وذكر ذلك في حوادث٩٥٢هـ.

٦٧) توفى السلطان محمد بن عبد الله الكثيري في الشحر سنة ٩٧٥هـ/ ١٥٦٧م.

٦٨) عبدالرحمن بن عبيد الله السقاف، بضائع التابوت ، مخطوط، و ٤٠٤ ؛ محمد بن هاشم ، المصدر السابق ، ص ٥٩.

٦٩) صلاح البكري ، تاريخ حضرموت السياسي، ص ٩٨.

٧٠) ظل الأميرمحمد بن بدر مسجوناً حتى وفاته سنة ٩٤٦هـ/١٥٣٩م ، أما الأمير محمد بن عبد الله فقد أطلق سراحه سنة ٩٥١هـ/١٥٤٤م بعد توسط بعض من كبراء آل كثير وبشرط خروجه من حضرموت للمزيد ينظر: محمد عمر بافقيه، المصدر السابق، ص ٢٣٤ ؛ سالم بن حميد ، المرجع السابق ، ص ١٨١ ؛ محمد بن هاشم ، المصدر السابق، ص ٦٠.

٧١) عبد الله السقاف ، تاريخ الشعراء الحضرميين ، الجزء (١) ، ط(٣) ، مطابع جاد ، الرياض ، ١٤١٨هـ،ص ١٥٠.

٧٢) محمد أبوبكر الشلي، السنا الباهر ، مخطوط ، و ٢٧٤ ؛ سالم بن حميد ، المصدر السابق، ص ١٨١.

٧٣) محمد أحمد الشاطري ، المصدر السابق، ج(٢)،ص ٢٤٣ ؛ محمد علي باحنان ، المصدر السابق، ص ١٩٢.ولمزيد من المعلومات عن الشيخ معروف ينظر : جمال الدين عمر بن عبدالرحمن بن سراج الدين جمال ، مواهب الرب الرؤوف في مناقب الشيخ معروف ، مخطوط مكتبة الأحقاق للمخطوطات ، تريم ، رقم ٢١٨٩ .

٧٤) محمد بن هاشم ، المصدر السابق، ص ٥٥ ؛ محمد احمد الشاطري، المصدر السابق، ص ٢٤٣.

٧٥) عبد الله محمد باحسن ، النفحات المسكيه ، مخطوط ، و ١١٩.

٧٦) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق، ص ٢٤٠.

٧٧) عبد الله السقاف ، تاريخ الشعراء الحضرميين ، الجزء الأول ، ص ١٥٦ ؛ محمد أحمد الشاطري ، المصدر السابق، ج (٢)، ص ٢٤٢ .

٧٨) لم يطلق سراحه إلا في عهد السلطان عبد الله بن بدر بوطويرق وبعد أن تعهد بعدم التعرض للشؤون السياسية . ينظر: سعيد عوض باوزير ، صفحات من التاريخ الحضرمي، ص ١٣١ ؛ محمد بن هاشم ، المصدر السابق، ص ٥٠.

٧٩) محمد أبوبكر الشلي، السنا الباهر ، مخطوط ، و ٢٧٤.

٨٠) حريضة : تسمى قديما مذاب ، وتقع اسفل وادي عمد الى الشمال الغربي من مدينة شبام

٨١) عبدالرحمن بن عبيد الله السقاف، بضائع التابوت مخطوط ، و ٤٠٥

٨٢) عبدالله محمد باحسن ، النفحات المسكية ، مخطوط ، و ١١٦ ؛ محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص١٨٦

٨٣) سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص١٦٦

٨٤) المخارم : تقع شمال رخيه

٨٥) محمد عمر بافيقيه ، المصدر السابق ، ص١٩١

٨٦) عنق والمنيظره : من قرى وادي عمد

٨٧) محمد بن هاشم ، المصدر السابق ، ص٣٩

٨٨)محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص٢٠١ .

٨٩)عبدالرحمن بن عبيدالله السقاف ، بضائع التابوت ، مخطوط ، و ٤٠٥.

٩٠) محمد عمر بافقيه، المصدر السابق ، ص٢٠١ ؛ سالم بن حميد، المصدر السابق ، ص١٧٠ .

٩١) صلاح البكري ، في جنوب الجزيرة العربية ، ص١١٧.

٩٢) سعيد عوض باوزير ، صفحات من التاريخ الحضرمي ، ص١٢٩ ؛ محمد بن هاشم ، المصدر السابق ، ص٤٠ .

٩٣) محمد علي باحنان ، المصدر السابق ، ص١٨٨ ؛ محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص٢٠٥ .

٩٤) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص٢١٥ .

٩٥) القرين : من قرى وادي دوعن .

٩٦) عبدالرحمن بن عبيد الله السقاف، بضائع التابوت، مخطوط ، و ٤٠٥ ؛ محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص٢١٨- ٢١٩ .

٩٧) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص٢٥٣.

٩٨) صلاح البكري ، تاريخ حضرموت السياسي ، ج١ ، ص٨٣.

٩٩) سيد مصطفى سالم، لمرع السابق ، ص١٦٠- ١٦١.

١٠٠) صلاح البكري ، تاريخ حضرموت السياسي ، ج١ ، ص٨٣ ؛ محمد علي باحنان ، المصدر السابق ، ص١٩٤

١٠١) عبد الله محمد باحسن ، النفات المسكية ، مخطوط ، و١٢١- ١٢٢ ؛ صالح الحامد ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص٦٣٤ ؛ محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص١٨٦.

١٠٢) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص٢٨٧.

١٠٣) سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص١٠٩.

١٠٤) عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف ، بضائع الثابوت ، مخطوط ، و٤٠٦

١٠٥) محمد علي باحنان ، المصدر السابق ، ص٢٠٠

١٠٦) لاهمية الصراع الكثيري العمودي سنتناول موقف قبيلة النهد منه عند تطرقنا لهذا الصراع في المبحث القادم .

١٠٧) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص٣٣٣

١٠٨) نفسه والصفحة نفسها.

١٠٩) جاءت خطوة السلطان بدر في السيطرة على تريم بعد أن استفحل أمر ما يعرف في حضرموت بعيد آل يماني في تريم ، فهاجمهم في عملية اتسمت بالسرية و المباغتة حيث هاجم ٥٠٠من عناصرهم تجمعوا دفع واحدة في قرية الجرب القريبة من تريم و أبادهم جميعاً و تعرف هذه المعركة بموقعه الجرب.ينظر : عبد القادر بن الشيخ العيدروس ، المصدر السابق ، ص٢٥١ ؛ محمد علي باحنان ، المصدر السابق ، ص٢٠٠ ؛ محمد بن هاشم ، المصدر السابق ، ص٥٢- ٥٣.

١١٠) المنصبة : مفردها منصب وهو لقب يتخذه بعض أسر المشايخ و السادة المؤثر في حضرموت، ويعني الزعيم الروحي لأسرة أو لمنطقة معينة ، أو قبائل، وللمنصب مكانته الاجتماعية و يحترم الجميع المنطقة التي يقيم فيها ، ومن أبرز مهامه الإصلاح بين المتخاصمين و استقبال الضيوف و غيرها .

١١١) صلاح البكري ، في جنوب الجزيرة العربية ، ص١١٩.

١١٢) عبد القادر بن شيخ العيدروس ، المصدر السابق ، ص٢٦١.

١١٣)آربي.سارجنت حول مصادر التاريخ الحضرمي، ترجمة سعيد عبدالخير النوبان ، مطبعة جامعة الكويت ، بدون تاريخ، ص٣٥.

١١٤) سعيد عوض باوزير ، صفحات من التاريخ الحضرمي ، ص١٥١.

١١٥) محمد ابو بكر الشلي، السناء الباهر ، مخطوط ، و١٤٧ ؛ علوي بن طاهر الحداد ، الشامل في تاريخ حضرموت و مخاليفها ، ص١٦١.

١١٦) سعيد عوض باوزير ، معالم تاريخ الجزيرة العربية ، ص٢٨٣.و استمرار آل العمودي حكاماً في منطقة دوعن حتى سيطر القعيطيون عليها سنة ١٨٩٩م.

١١٧) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص١٩٨.

١١٨) المصدر نفسه ، ص٢٠٣.

١١٩) سعيد عوض باوزير ، صفحات من التاريخ الحضرمي ، ص١٥٣

١٢٠) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص٢٠٥

١٢١) بضه : تقع أسفل الفرع الأيمن لوادي دوعن

١٢٢) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص٢٠٦

١٢٣) المصدر نفسه ، ص٢٠٧

١٢٤) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص٢٠٧ .

١٢٥) سبق و تناولنا الصراع الكثيري النهدي في هذا الفصل

١٢٦) سعيد عوض باوزير ، معالم تاريخ الجزيرة العربية ، ص٢١٨ ؛ محمد علي باحنان ، المصدر السابق ، ص١٨٩

١٢٧) الحوطة : في ظروف الصراع القبلي المزمن في حضرموت كان بعض أصحاب الوجاهة الدينية و الاجتماعية يختط قرية أو منطقة معينة و يعلنها (حوطه) أي من دخلها فهو آمن و كان الغرماء في حضرموت يحترمون هذه الحوط و لا يقومون بأي أعمال حربية فيها . للمزيد : ينظر : سارجنت ، المصدر السابق ، ص١١٢- ١١٣

١٢٨)علوي بن طاهر الحداد ، الشامل في تاريخ حضرموت ومخاليفها ، سنغافورا ، ١٩٤٠ ، ص٢٠٩ ؛محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص٢٥٣ ؛ عبدالرحمن بن عبيد الله السقاف ، بضائع التابوت ، مخطوط ، و ٤٠٨

١٢٩) محمد علي باحنان ، المصدر السابق ، ص١٩٥ ؛ علوي بن طاهر الحداد ، الشامل غي تاريخ حضرموت ، ص٢٠٩

١٣٠) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ص٢٩٣

١٣١) عبدالله محمد باحسن ، النفحات المسكية ، مخطوط ، ص١٢٣ ؛ محمد علي باحنان ، المصدر السابق ، ص١٩٥

١٣٢) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص٢٩٤

١٣٣) محمد عمر بافقيه، المصدر السابق ، ص٢٩٦ ؛ سعيد عوض باوزير ، صفحات من التاريخ الحضرمي ، ص١٥٤

١٣٤) دخل السلطان بدر في علاقة زواج ومصاهره مع ناصر أحمد الجوفي وساهم فشل هذه المصاهرة في تدهور العلاقة بينهم ، بمعنى أن الصداقة التي عمقتها ميادين القتال أفسدتها علاقات الزواج .

١٣٥) سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص١٩٤ ؛ محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص٣٠١

١٣٦) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص٣٠٣ ؛ محمد بن هاشم ، ص٤٧

١٣٧) في المبحث اللاحق سنبحث الصراع الكثيري المهري

١٣٨) عبدالرحمن بن عبيد الله السقاف ، بضائع التابوت ، مخطوط ، و ٤٠٨ ؛ سعيد عوض باوزير ، صفحات من التاريخ الحضرمي ، ص١٥٤

١٣٩) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص٢٣٣

١٤٠) محمد علي باحنان ، المصدر السابق ، ص١٩٩

١٤١) توفي الشيخ العمودي سنة ٩٨٦هـ / ١٥٧٨م ببلدة بضه. ينظر: محمد أبوبكر الشلي ، السنا الباهر ، مخطوط ، و٧٤٦

١٤٢) محمد احمد الشاطري ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص٢٤٢

١٤٣) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص٤٢٠

١٤٤) المصدر السابق ، ص ٢٣٢ ؛ صالح الحامد ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص٥٨٩

١٤٥) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص٣٠٥

١٤٦) استمرت حكم أسرة بن عفرار للمهرة و جزيرة سقطرى حتى سقوط السلطنة سنة ١٩٦٧ ، وللمزيد حول كيفية سيطرة آل عفرير للحكم في المهرة ينظر : حمزة علي لقمان ، تاريخ الجزر اليمنية ، مطبعة يوسف وفليب الجميل ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص٧٥- ٧٩ ؛ محمد عبد القار بامطرف ، تاريخ ما أهمله التاريخ لمحات من تاريخ جزيرة سقطرى ، ط١ ، دار حضرموت للدراسات و النشر ، المكلا ، ٢٠٠١م ، ص ص ٥٧- ٦٢

١٤٧) سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص١٩٧

١٤٨) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص٣٢١

١٤٩) سعيد عوض باوزير ، صفحات من التاريخ الحضرمي ، ص١٣٠ ؛ محمد بن هاشم ، المصدر السابق ، ص٤٨

١٥٠) محمد بن هاشم ، المصدر السابق ، ص٤٨

١٥١) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص ٣٢٢

١٥٢) عقبة لبين : تقع بالقرب من بلدة قشن .

١٥٣) سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص١٩٧

١٥٤) محمد بن هاشم ، المصدر السابق ، ص٤٨ ؛ حسن صالح شهاب ، البحار اليمني سليمان المهري مرشد الملاحة العربية في المحيط الهندي ، مركز الشرعبي للطباعة ، صنعاء ، ٢٠٠ ، ص٦- ٧

١٥٥) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق، ص٣٢٩ ؛ سالم بن حميد، المصدر السابق، ص١٩٩ ؛

١٥٦ Serjeant , OP. Cit.P

١٥٦) عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف ، بضائع التابوت ، مخطوط ، و٤١١

١٥٧)محمد عمر بافقية ، المصدر السابق ، ص٣٣٠،عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف، بضائع التابوت، مخطوط ، و٤١٢

١٥٨) سعيد عوض باوزير ، صفحات من التاريخ الحضرمي ، ص١٣١ ؛ محمد باحنان ، المصدر السابق ، ص١٩٨

١٥٩) سعيد عوض باوزير ، صفحات من التاريخ الحضرمي ، ص١٢١

١٦٠) شهدت حضرموت السلطة القوية في تاريخها المعاصر سقوط السلطنتين القعيطية والسلطنة الكثيرية سنة ١٩٦٧م وبعد أن أصبحت محافظة ضمن جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية .

١٦١) عبد القادر بن شيخ العيدروس ، المصدر السابق و ص٣٢٧

١٦٢) عبد الله محمد باحسن ، النفحات المسكية ، مخطوط ، و٨٠

١٦٣) سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص١٦٤ ؛ عبد الله محمد باحسن ، النفحات المسكية ، مخطوط ، و١١٤

١٦٤) محمد بن هاشم ، المصدر السابق ، ص٣٧ . و يبدو أن مؤرخنا لم يجد سبباً مقنعا غير هذا التخمين العام

١٦٥) عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف ، بضائع التابوت ، مخطوط ، و٤٠٤

١٦٦) عبدالقادر بن شيخ العيدروس ، المصدر السابق ، ص٢٧٤

١٦٧)هو الشاعر عبدالرحمن بن عبود مذحج . ينظر : محمد عبدالقادر بامطرف ، الشهداء السبعة ، ص٨١

١٦٨) الهتفة : هي الدعوة من أحد الأولياء والصالحين على أحد الأشخاص بالشر ، والمهتوف من حلت به نتائج الهتفة

١٦٩) أي تروّ وتمهّل .

١٧٠) صلاح البكري ، تاريخ حضرموت السياسي ، ج١ ، ص٩٧

١٧١) سعيد عوض باوزير ، صفحات من التاريخ الحضرمي ، ص١٢٠ .

١٧٢) السلطان غالب بن عوض القعيطي ، تأملات عن تاريخ حضرموت ، ط١ ، مطبعة كنوز المعرفة ، ١٩٩٦ ، ج٥ ، ص٥٤

١٧٣) تقع منطقة يافع الى الشمال الشرقي من عدن ، في المنطقة المعروفة باسم سر وحمير . إبراهيم أحمد المقحفي ، معجم المدن والقبائل اليمنية ، ط٢ ، دار الكلمة ، صنعاء ، ١٩٨٥ ، ص٧٥٣، وهي هضبه صخرية مرتفعة وتسمى القبائل التي تستوطن هذه الهضبة القبائل اليافعية وهي من أمنع قبائل اليمن وقد اكتسبوا صفات الجلافة وقوة الشكيمة من وعورة منطقتهم الجبلية . ينظر حسين علي الويسي ، اليمن الكبرى ، مطبعة النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص١٣ ؛ حمزة علي لقمان ، تاريخ القبائل اليمنية ، ج١ ، ط١ ، دار الكلمة ، صنعاء ، ١٩٨٥ ، ص١٦٩- ١٧٠

١٧٤) صلاح البكري ، تاريخ حضرموت السياسي ، ج١ ، ص٩٧ ؛ ناصر صالح حسين بن سبعة ، من ينابيع تاريخنا اليمني وإشعار الشيخ راجح هيثم بن سبعة ، ط١ ، مطبعة الكاتب العربي ، دمشق ، ١٩٩٤ ، ص١٠٢

١٧٥) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص٢٣٥ . ويشير الشيخ عبدالله الناخبي إلى أن وجود يافع موغل في القدم وأن بعض اليافعيين اندمجوا مع القبائل الحضرمية وأصبحوا جزءا منها . ينظر : عبدالله أحمد الناخبي ، الكوكب اللامع في ما أهمل من تاريخ يافع ، دار الأندلس الخضراء ، جدة ، ١٩٩٩ ، ص٢٠

١٧٦) سيد مصطفى سالم ، المصدر السابق ، ص١٣٤- ١٣٥

١٧٧) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص٢٧١

١٧٨) حول سياسة بوطويرق مع القوى الأجنبية سواء أكانوا برتغاليين أم عثمانيين فسيتم تناولها في الفصل الثالث من هذه الدراسة .

١٧٩) سعيد عوض باوزير ، صفحات من التاريخ الحضرمي ، ص١٣٧

١٨٠) محمد احمد الشاطري ، المصدر السابق ، ص٣١٨ ؛ محمد عبدالقادر الصبان ، الحركة الأدبية بحضرموت ، ص٨٦

١٨١) محمد أبوبكر الشلي ، السنا الباهر ، مخطوط ، و ٦٤٦

١٨٢) نص الوثيقة في الملحق (١)

١٨٣) عبدالله محمد باحسن ، النفحات المسكية ، مخطوط ، و ٨٢

١٨٤) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص١٨٦ ؛ عبدالله محمد باحسن ، النفحات المسكية ، مخطوط ، و ١١٥

١٨٥) محمد أحمد الشاطري، المصدر السابق، ج٢ ، ص٢٤٠ ؛ سعيد عوض باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي، ص١٢٢

١٨٦) لم نعثر على نموذج لهذه العملة في المتاحف اليمنية ، ومن خلال استفسارنا لبعض المختصين المهتمين أكدوا عدم وجود نموذج لها في المتاحف الأوربية

١٨٧)محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص٢٧١

١٨٨) للمزيد من المعلومات عن الشخصيات الثقافية والدين في هذه الفترة ينظر : سعيد عوض باوزير ، الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي ؛ محمد أحمد الشاطري ، أدوار التاريخ الحضرمي ، ج٢

١٨٩)عبدالقادر بن شيخ العيدروس ، المصدر السابق ، ص٢٥١ ؛ عبدالله محمد باحسن ، النفحات المسكية ، مخطوط ، و٧٦

الفصل الثالث

حضرموت والتدخل الأجنبي

أولاً : علاقة السلطنة الكثيرية بالبرتغاليين :

الغزو البرتغالي على السواحل العربية وموقف المماليك والطاهريين إزاءه:

كان العرب على مدى العصور الإسلامية (الوسطى) سادة التجارة البحرية في المحيط الهندي ، وكان الانتقال و التجارة يتمان فيه بحرّية ، ولم يفقد هذا المحيط أمنه واستقراره إلا بوصول البرتغاليين و القوى الأوربية الأخرى.[1]

وتعد البرتغال الدولة البحرية الأولى التي كرست أكبر قدر من جهودها في البحث عن طريق ملاحي يوصلها إلى الشرق دون المرور بالخط الملاحي الذي يسيطر عليه العرب .[2] وحدث ذلك منذ بداية العصر الحديث إذ بدأت تزول أوهام وخرافات كانت تغلق أذهان الأوربيين . كما ساعد على التقدم البحري الملاحي البرتغالي تشجيع ملوكها وأمرائها على ذلك النشاط .[3] ولا مجال لتتبع تفاصيل أسباب حركة الكشوف الجغرافية وخطواتها المبكرة . ومن أشهر الرحلات الكشفية البرتغالية بهذا الخصوص رحلة كل من بارثلميودياز الذي وصل إلى أقصى الطرف الجنوبي لقارة أفريقيا سنة (١٤٨٧م) ، ثم رحلة فاسكو دي جاما الذي تمكن من الوصول إلى الهند سنة (١٤٩٨م) .[4] ولقد فتحت هذه الرحلة الأخيرة (التي وصفها لوريمر بأنها أخطر الرحلات في التاريخ) [5] الطريق البحري إلى الهند عبر الدوران حول أفريقيا .

وقد أحدثت حركة الكشوف الجغرافية تغييرات جذرية في الأوضاع القائمة في البحار الشرقية بوجه عام و السواحل العربية في شبه الجزيرة العربية بشكل خاص ، فهي لم تؤدِّ إلى تدهور السيادة الإسلامية على التجارة الدولية ونظمها الاقتصادية فحسب [6] ، بل أحدثت أيضاً تغيرات في موازين القوى العالمية ووضعت أول ركيزة للاستعمار الأوربي في سواحل المحيط الهندي، ومنها السواحل العربية ، ووجد العرب أنفسهم يهاجمون من الخلف وأصبحت جزيرتهم و سواحلهاالجنوبية على وجه الخصوص في قلب الأحداث.[7]

وكان لنجاح فاسكودي جاما في الوصول إلى الهند أثره في تشجيع الملك البرتغالي عمانويل الثاني على مواصلة إعداد الحملات وإرسالها إلى الهند لتأكيد السيطرة البرتغالية

على البحار الشرقية وتنفيذ الأهداف البعيدة التي قامت حركة الكشوف من أجلها [٨]. وفي البداية ابتعد البرتغاليون عن السواحل العربية واقتصرت رحلاتهم على المنطقة فيما بين القرن الأفريقي و الساحل الغربي للهند ، وانتهجوا أساليب سلمية فلم يتعرضوا للسفن التجارية العربية بسوء ، وقد ساعدتهم هذه السياسة على إخفاء نياتهم الحقيقية ، وركزوا على زيادة قطع الأسطول البرتغالي وإقامة المراكز التجارية و القلاع والحصون في شرق أفريقيا و الهند قبل الدخول في عمل مباشر ضد السفن العربية .[٩]

وابتداءً من سنة (٩٠٨هـ/١٥٠٢م) أي بعد خمس سنوات من وصولهم إلى الهند نشطت الأعمال العدائية البرتغالية ضد الملاحة العربية في السواحل العربية و المحيط الهندي ، وقد استخدم البرتغاليون أسطولهم المزود بالمدفعية ليس في أعمال القرصنة ضد السفن التجارية العربية في عرض البحر فحسب بل في العمل على إغلاق منافذ البحر الأحمر و الخليج العربي أيضاً ، وشجعهم على ذلك عدم تعرضهم لأية مقاومة جادة ضدهم .[١٠] وهكذا لم تمض هذه السنوات الخمس حتى اشتدت وطأة البرتغاليين في ضرب التجارة الإسلامية واستخدم فاسكودي جاما أبشع أساليب القرصنة ضد التجار و الحجاج المسلمين.[١١]

وقبل الحديث عن موقف المماليك و الطاهريين من هذا الغزو علينا أن نذكر أن المصادر العربية لم تهتم بذكر أمر البرتغاليين إلا في حوليات متأخرة بعض الشيء ، وكانت الحوليات الحضرمية أسبق في تناولها للأعمال البرتغالية في المحيط الهندي ، وأقدم إشارة وجدناها عند المؤرخ شنبل في حوادث سنة (٩٠٤هـ/١٤٩٩م) [١٢] إذ ذكر في هذه السنة وصول (الإفرنج)[١٣] إلى سواحل مقديشو، والهند ، ويليه بافقيه الذي أورد أول إشارة له عن البرتغاليين في حوادث سنة (٩٠٦هـ/١٥٠١م) [١٤] وإذا كان الشك يساورنا في دقة إشارة شنبل فإن هذا الشك يرتفع في رواية بافقيه إلى درجة الرفض لها ، فما ذكره عن تجهيز حسين الكردي في تلك السنة ليس دقيقاً و الصحيح أن التجهيز كان في سنة (٩١١هـ/١٥٠٦م) . وأدق إشارة إلى البرتغاليين في الحوليات اليمنية نجدها عند ابن الديبع في حوادث سنة (٩٠٨هـ/١٥٠٣م) فقد أشار (في هذه السنة ظهرت مراكب الإفرنج في البحر بطريق الهند وتلك النواحي وأخذوا سبعة مراكب وقتلوا أهلها قتلاً ذريعاً) [١٥] . وقد نقل كل من بامخرمة[١٦] والشلي[١٧] هذه

الحادثة عن ابن الديبع مع تغيير طفيف في صياغتها. وعلى العموم كانت الإشارات الأولية مقتضبة وخالية من التفاصيل مما يدل على عدم توافر المعلومات عن البرتغاليين. أما ابن إياس وهو أيضاً من الذين عاصروا الغزو البرتغالي للسواحل العربية فأقدم إشارة وردت عنده هي في سنة (٩١١هـ/ ١٥٠٦م)[١٨].

لقد حاول العرب من جانبهم منذ البداية مقاومة هذا الغزو الأوربي الجديد واسترداد سيطرتهم على نقل التجارة العالمية بين الشرق و الغرب ووقع عبء المقاومة على الدولة الطاهرية في بداية الأمر بحكم سيطرتهاعلى السواحل الجنوبية وتأثرها المباشر بهذا الغزو.[١٩] فبعد ازدياد أعمال القرصنة البرتغالية والتعرض للسفن التجارية وما بها من التجارة و التجار و الحجاج اضطر السلطان الظاهر عامر بن عبد الوهاب الطاهري إلى إعداد حملة بحرية مكونة من ١٤ مركباً فيها ٦٠٠من المحاربين بينهم عدد من طلبة العلم، وقد أبحر هذا الأسطول من عدن في (٢٧ شوال ٩١٢هـ/ ١٢مارس ١٥٠٧م)[٢٠] ، ولكننا لا نعلم شيئاً عن مصيره بعد ذلك ، وأغلب الظن أن هذا الأسطول كان فريسة سهلة للأسطول البرتغالي لأن سفن الأسطول العربي ليست إلا سفن نقل عادية وليست من النوع الحربي الذي يمكنه الصمود أمام الأسطول البرتغالي المزود بالأسلحة النارية [٢١].

وهكذا كانت الحملة ضعيفة وغلب عليها الحماسة دون الإدراك لحقيقة قوة الغازي الجديد . وقد عجز السلطان عامر بعد ذلك عن إرسال حملة أخرى إلى الهند لضعف إمكاناته الحربية و المالية، واتبع الطاهريون أسلوب الدفاع و المقاومة لحماية السواحل اليمنية. وعندما جاءت قوات المماليك المصرية تحت ستار القضاء على البرتغاليين ، استخدم الطاهريون الأسلوب الدبلوماسي بأن غيروا تحالفاتهم مع هاتين القوتين لإبعاد خطر الأخرى.[٢٢]

أما موقف المماليك في مصر من الغزو البرتغالي فقد كان أكثر إيجابية من موقف اليمن رغم عجز المماليك في النهاية عن صد هذا الغزو الأوربي من مناطق الشرق . وقد استنجدت الدولة الطاهرية والأمراء الهنود بالسلطان المملوكي قنصوة الغوري لإبعاد الخطر البرتغالي[٢٣]، وذلك لارتباط المصالح وكون المماليك يمتلكون الأسلحة النارية وقد ركز السلطان قنصوة الغوري جهوده أول الأمر في مواجهة البرتغاليين عن طريق التنسيق مع البندقية وطلب مساعدتها .[٢٤]

وبعد هذه الجهود ذات الطابع السياسي لم يجد السلطان الغوري بداً من محاربة البرتغاليين في المياه الهندية، لهذا بدأ بإعداد السفن الحربية إذ تم إنشاء ٥٠ سفينة جهزت بالمدافع و الأسلحة النارية ،وقد غادرت الحملة القاهرة في (٦ جمادى الآخرة سنة ٩١١هـ/٤تشرين الثاني ١٥٠٦م) وأسندت قيادتها إلى الأمير حسين الكردي[٢٥] الذي جعله السلطان نائباً عنه في جده.

ركز الكردي جهوده في البداية على تحصين مدينة جدة لكونها مفتاح المناطق المقدسة في الحجاز[٢٦]، ثم أكمل الخطة بأن سيطر على الساحل الغربي للبحر الأحمر . ثم توجهت الحملة بعد ذلك إلى الموانئ اليمنية فمرت بجيزان ثم جزيرة كمران ومنها إلى المخا ثم عدن حيث استأذنت الأمير مرجان الظافري في الدخول إلى منطقة حقات وزودهم بالماء والطعام[٢٧]. كما أرسل هدية خاصة إلى الأمير حسين الكردي[٢٨]، أما مصير الحملة المملوكية في الهند فقد اشتبكت مع قوات الأسطول البرتغالي ، وفي البداية حقق الأسطول المملوكي بعض الانتصارات ولكنه مني بهزيمة كبيرة في معركة ديو سنة (١٥٠٩م) [٢٩].

ولاشك في أن انتصار البرتغاليين في معركة ديو ثبت أقدامهم في المياه الهندية ، وحدث في أواخر سنة (١٥٠٩م) ما دعم هذا الانتصار وما جعله انطلاقة لانتصارات أخرى حققت للبرتغاليين السيطرة على التجارة الشرقية حتى النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي . فقد تم في ذلك الوقت تعيين الفونسودي البوكيرك نائباً للملك البرتغالي بدلاً من دا الميدا ، ويعدّ البوكيرك أول مؤسس للاستعمار الأوربي في الشرق[٣٠].

تقوم سياسة البوكيرك على أساس السيطرة المباشرة على المراكز التجارية وإقامة الاستحكامات العسكرية حولها ، وتنفيذاً لهذه السياسة حرص البوكيرك على السيطرة على عدن ليتخذها قاعدة بحرية لأسطوله ولخدمة السياسة التوسعية البرتغالية في البحر الأحمر، والقضاء على الأسطول المصري في البحر الأحمر [٣١] وبالتالي قطع الأمل على الأمراء الهنود في وصول إمدادات عسكرية مملوكية ولتفتر مقاومتهم ويتحقق الاستقرار للبرتغاليين في الهند[٣٢].

لهذا جهز البوكيرك حملة انطلقت من الهند في ١٨فبراير(١٥١٣م /٩١٩هـ) بقوة قوامها عشرون سفينة[٣٣] تحمل ١٧٠٠ برتغاليٍّ و٨٠٠ هنديٍّ توجهت إلى عدن ، وقد نزلت القوات البرتغالية إلى بر عدن بالسلالم وجرت في أطراف عدن معركة بينهم وبين الأهالي استمرت

أربعة أيام ، انهزم في إثرها البرتغاليون نتيجة استبسال أهالي عدن في المقاومة [٣٤] . وبعد حوالي ستة أشهر جدد البوكيرك المحاولة للسيطرة على عدن التي عززت تحصيناتها وجددت استحكاماتها وحدث تراشق بالنيران ، ولم تستطع القوات البرتغالية دخول المدينة ثم عمدوا إلى إحراق بعض المراكب الراسية قبالة ساحل عدن[٣٥].

أما المماليك فقد بلغوا من الضعف حداً حاولوا أن يتخطوه بالسيطرة على شواطئ البحر الأحمر ليعوضوا خسائرهم في المحيط الهندي وفرضوا على اليمنيين تقديم التجهيزات لجيوشهم[٣٦]. وهكذا فإن سياسة التقدم البرتغالية القوية تجاه البحر الأحمر والسواحل العربية وما قابلها من تقدم مملوكي ضعيف تجاه هذه المنطقة لا بد أن يحصر مراكز الصراع الرئيسة فيها وسيكون لكل منهما أهدافه القريبة و البعيدة وسيتحمل الثمن الباهظ الدولة الطاهرية .

وتنفيذاً لهذه السياسة المملوكية جهز السلطان قنصوه الغوري حملة في رجب سنة (٩٢١هـ/ ١٥١٥م) برئاسة سلمان العثماني إلى حين وصول الحملة إلى جدة حيث يتولى رئاستها حسين الكردي ، وتكونت الحملة من نحو ٢٠ سفينة عدد أفرادها حوالي ستة آلاف[٣٧] . وفي أثناء مرورها بالموانئ اليمنية اتصل حسين الكردي بالسلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهري طالباً مساعدته في تزويد الحملة بالمؤن و الطعام[٣٨]، وقد تردد السلطان عامر في الرد على الحملة المملوكية واستشار مساعديه ، وقد برزت وجهتا نظر ؛ إحداهما ترى رفض التعاون مع المماليك حتى لا تكون عادة يُطالَبُ بها كل سنة ، والأخرى تفضل التعاون مع المماليك حتى لا تنفتح عليهم جبهة جديدة في الساحل اليمني [٣٩]. وقد عمل السلطان عامر بالرأي الأول [٤٠] ، وبناءً على ذلك أرسل أوامره إلى عماله في الموانئ بعدم السماح للحملة البحرية المملوكية باستخدام الموانئ اليمنية وأوقف تقديم المساعدات لها ، كما حثهم على الاستعداد و التصدي لها إذا ما حاولت الرسو في أي من هذه الموانئ[٤١] .

شكل هذا الموقف انعطافاً خطيراً في العلاقات المملوكية الطاهرية تغيرت في إثره بعض الحقائق التاريخية و التحالفات ، فنجد المماليك بعد ذلك بدلاً من أن يستأنفوا أهدافهم المعلنة في القضاء على البرتغاليين في الهند أصبحوا في قلب الأحداث العسكرية اليمنية الداخلية لاسيما بعد أن فشلت محاولتهم في السيطرة على عدن سنة (٩٢١هـ/١٥١٦م)[٤٢] وقد

شجعت هذا الصراع وعمّقته القوى اليمنية المناوئه للطاهريين لاسيما الإمام شرف الدين الذي كان يراسل المماليك ويطلب منهم المساعدة ضد السلطان عامر[٤٣]، وأدى ذلك في المحصلة الأخيرة إلى سقوط الدولة الطاهرية ومقتل السلطان عامر بن عبد الوهاب سنة (١٥١٧م) لينحصر نفوذ الدولة الطاهرية بعد ذلك تدريجياً في عدن .[٤٤] على أن فشل الحملة المملوكية في السيطرة على عدن أوجد فكرة أن عدن هي مفتاح لأية عمليات بحرية في المحيط الهندي ، وهذا ما أخذ به العثمانيون[٤٥] .

موقف السلطنة الكثيرية من الاعتداءات البرتغالية على عدن :

أدرك الأمير مرجان الظافري الظروف الصعبة التي تمر بها الدولة الطاهرية ، وإن حماية عدن فيما لو تعرضت لغزو مملوكي أو برتغالي يتطلب ترتيبات دفاعية جديدة، لاسيما أن صمود عدن الأخير ضد الغزو المملوكي كان وراءه المدد العسكري الذي تلقاه من مدينة تعز العاصمة الطاهرية ، وبفضل العون الضخم الذي تلقاه من السلطان محمد بن عبد الله الكثيري[٤٦] . وأمام استحالة الاعتماد على الدولة الطاهرية في داخل اليمن تطلع الأمير مرجان الظافري مرة أخرى نحو السلطنة الكثيرية واستعان بالشيخ عبد الكريم بانافع وهو من كبار تجار الحضارم المقيمين في عدن لمكانته عند السلطان الكثيري لإقناع الأخير بإرسال جانب من جيشه للتمركز المؤقت في عدن حتى تتم عمليات الترميم والإصلاح لقلعة عدن ، وفعلاً توجه الشيخ بانافع وأقنع السلطان الكثيري بأهمية مساندة السلطنة لعدن.[٤٧]

وقد أراد البرتغاليون في هذه الظروف أن يدخلوا في هذا الصراع لتحقيق مصالح وأهداف بعيدة المدى ، وكانوا يراقبون تطورات الموقف في عدن وماحو لها من المناطق باهتمام كبير ، وقد علموا بوصول المساعدة التي قدمتها السلطنة الكثيرية لعدن بواسطة بحارة السفن الهندية التي كان البرتغاليون يبعثونها إلى الشواطئ العربية لمراقبة الأحوال هناك وإطلاعهم عليها أولاً بأول.[٤٨]

وفي غمرة هذه الأحداث تقدمت حملة برتغالية جديدة لاحتلال عدن بقيادة (لوبوسواريس) على رأس أسطول تكون من ٢٧ سفينة تحمل ١٢٠٠ جندي برتغالي و ٦٠٠

هندي في (٤ فبراير (شباط) ١٥١٦م) في وقت لم تكتمل عملية بناء تحصينات المدينة ولم تصل بعد النجدة العسكرية الحضرمية.[٤٩] وجرت بين الأمير مرجان و القائد البرتغالي مفاوضات أثارت الكثير من الجدل عند المؤرخين المحدثين ، بل وجدنا أن الاختلاف أخذ مكاناً في المصادر المعاصرة التي تناولت هذه المسالة ، وتركزت وجهات النظر في رأي يقول إنَّ الأمير مرجان عرض تسليم عدن للبرتغاليين[٥٠] ، ووجهة النظر الثانية تقول إنه تعامل معهم بدبلوماسية وقدم لهم الضيافة الكاملة وزودهم بالمؤن و الطعام كنوع من المناورة [٥١] ووجهة النظر الثالثة ترى أن الأمير لم يكن ينوي تسليم عدن ودليلهم على ذلك أنه عندما أعاد تحصين المدينة لم يسلمها للبرتغاليين بعد عودتهم لتسلمها منه.[٥٢]

ويبدو أن وجهة النظر الأولى أقرب إلى الصواب لسببين أحدهما يتعلق بضعف الدولة الطاهرية التي كانت آنذاك في أصعب مراحلها السياسية [٥٣] ، كما أن الدعم المتوقع من السلطنة الكثيرية لم يصل بعد ، ولم يكتمل بناء استحكامات المدينة فربما رأى الأمير في هذه الخطوة أهون الشرين ، على أن السبب الثاني الذي يجعلنا نرجح رواية التسليم ما جاء في المصدر الحضرمي الذي اعتمد على مدونات البحارة الهنود (الروزنامات) المرافقين للحملة فمما جاء في رواية الشيخ بامعيبد عن هذه الحادثة :(جمع الأمير مرجان أعيان عدن وتشاور معهم ، وكان أكثرهم يرون ان يسلم الأمير مرجان عدن للفرنجي ويحقن الدماء ووافقهم الأمير مرجان الذي كان يشعر بضعف مركزه ولا أحد يدري كيف تكون خاتمته لأنه يعلم أن الإفرنج الملاعين لا يرعون عهداً ولا ذمة . وخرج الأمير مرجان ومعه شيوخ عدن لتسليم البلد ..... والفرنجي استغرب تسليم عدن بهذه الصورة السهلة وقال للأمير مرجان ....ونطلب منك أن تبقى محتفظاً بالقلعة إلى أن نعود إليك بعد أسابيع) [٥٤].

ورغم ما يحمله هذا النص من وضوح في قيام الأمير مرجان بعرض تسليم عدن فإنَّ الرواية تثير بعض التساؤلات منها: هل كانت خطوة الأمير مرجان نوعاً من الخداع والمناورة؟ بحيث يجعل القائد البرتغالي يطمئن له ويؤجل السيطرة على عدن؟ يلمح بلاي فير إلى ذلك عندما ذكر أن لوبوسواريز لم يشك لحظة في النيات الطيبة لحاكم عدن[٥٥] . أما بامعيبد فيزيد في روايته (أن الأمير مرجان إنسان داهية)[٥٦] وعلى أية حال فإن الموضوع يأخذ أكثر من

وجه، ولا مجال هنا للدخول في تفصيلات أخرى ، فما يهمنا هو علاقة هذه الحادثة بالسلطنة الكثيرية التي وصلت أمدادها إلى عدن في (١٨ فبراير (شباط) ١٥١٦م) أي بعد الاتفاق الأخير بين الأمير مرجان و القائد البرتغالي بنحو نصف شهر .

تكون المدد الحضرمي من ألف مقاتل من قبائل الحموم و المهرة قدموا على متن (٣١) سفينة مؤجرة من المناطق الآتية :

١٤ سفينة من الحامي

٧ سفن من الشحر

٦ سفن من المهرة

٤ سفن من صور العمانية [٥٧]

وبعد وصول هذه الإمدادات وغيرها من المناطق المجاورة لعدن وضع الأمير مرجان خطة للدفاع عن عدن حيث جدد الاستحكامات العسكرية . وعندما عاد لوبوسوارين بما تبقى من أسطوله إلى عدن ليتسلمها من الأمير مرجان رفض الأخير تسليم المدينة مستنداً في ذلك إلى تغيير موقفه العسكري[٥٨]. على أن أبرز نتائج الفشل البرتغالي في السيطرة على عدن هو إدراكهم أن سر صمود مدينة عدن لا يكمن فقط في تحصيناتها ودفاعاتها بل أيضاً في المساعدات التي تتلقاها من القرى والموانئ الساحلية القريبة لاسيما من ميناء الشحر[٥٩]، لهذا توسعت أعمال القرصنة البرتغالية شملت هذه المناطق ودفعت مدينة الشحر الثمن الأكبر إزاء موقفها المؤازر لعدن.

الحملة البرتغالية على مدينة الشحر :

لم تثر السواحل الحضرمية على وجه العموم ومدينة الشحر على وجه الخصوص اهتمام الغزاة البرتغاليين في بادئ الأمر ، إذ ركزوا جهودهم الأولية كما ألمحنا لتحقيق سيادتهم على المحيط الهندي عن طريق مهاجمة المراكز التجارية العربية و المنافذ الحيوية في الخليج العربي والبحر الأحمر . وقد بدأت الأعمال البرتغالية البحرية ضد السواحل الحضرمية منذ عام (٩٢٩هـ/ ١٥٢٣م) [٦٠] ، بعد أن عزل لوبوسوايز عن قيادة البحرية البرتغالية في المحيط الهندي وتعيين(لويزدي متزيس) بدلاً عنه ، فقد تقدم الأخير على رأس حملة بحرية برتغالية

انطلقت من ميناء (جوا) الهندي مكونة من تسع قطع بحرية ، وعندما وصلت الحملة إلى قرية الحامي الساحلية القريبة من الشحر أحرقت خمس سفن كانت راسية فيها [٦١]. وفي صباح يوم الخميس التاسع عشر من ربيع الثاني (٩٢٩هـ/ ٢٧ فبراير (شباط) ١٥٢٣م) وصل الأسطول البرتغالي قبالة ميناء الشحر ، وفي هذه الأثناء كان السلطان بوطويرق في وادي حضرموت مستصحباً معه معظم رجال حامية الشحر وأناب عنه فيها الأمير مطران بن منصور السياسي المحنك[٦٢]. وبعد وصول الحملة البرتغالية مباشرة أرسل القائد البرتغالي رسالة إلى السلطان بوطويرق استلمها الأمير مطران ، فحواها أن هناك تاجراً برتغالياً توفي قبل خمسة أشهر في الشحر و أن السلطان الكثيري صادر أمواله وعليه أن يردها بلا تأخير [٦٣].

أدرك الأمير مطران النوايا الهجومية للبرتغاليين فأراد أن يكسب الوقت بدبلوماسية معينة، فكتب رسالة إلى القائد البرتغالي أخبره فيها بعدم معرفته بأمر هذا التاجر ، وأن السلطان بدر قادم بعد أيام وأنه سيعطي الموضوع حقه من الاهتمام ، كما أرسل له هدية[٦٤]. وفي هذه الأثناء وصلت أنباء مهاجمة البرتغاليين لقرية الحامي [٦٥] ، لهذا دعا الأمير مطران أعيان مدينة الشحر لتدارس التطورات وقد أيقن الجميع أن الهجوم البرتغالي على الشحر هو الخطوة البرتغالية الثانية ، وبناء على ذلك اتخذ المجتمعون عدداً من القرارات و الإجراءات الاحترازية و الدفاعية منها :

١- ترحيل النساء و الأطفال و الممتلكات الثمينة إلى قرية تبالة

٢- أن يكون الجميع على استعداد لأي نداء تقتضيه الضرورة [٦٦].

ومن جانب آخر أعاد القائد البرتغالي هدية أمير الشحر وأرسل إنذاراً شديد اللهجة هدد فيه إذا لم تصل ممتلكات التاجر البرتغالي قبل غروب شمس ذلك اليوم فإنه سينزل إلى الميناء ويأخذه بنفسه[٦٧]. ويذكر سارجنت ((أن منزيس عندما قرر مهاجمة الشحر كان متظاهراً بعذر واحد هو أن الشحر خاضعة لملك عدن[٦٨])).

وسواء كانت قصة التاجر البرتغالي ملفقة أو صادقة فإن هناك سؤالاً يطرح نفسه، وهو: هل كان البرتغاليون يبحثون عن حجة لغزو الشحر ؟ وإذا كان الجواب بالنفي (وهو الذي نرجحه) فلماذا لم يهاجموا الشحر مباشرة ؟ ويبدو أن الأعمال العسكرية البرتغالية لم تأت مباشرة لأسباب قائمة على أساس المناورة فمن جهة كانت الرسالة البرتغالية الأولى جس نبض لحاكم

الشحر ، فعندما وجدوا الرد الذكي و المناور أدركوا أن الوقت ليس في صالحهم ، أما الرسالة الثانية فكانت نوعاً من الابتزاز سواء قدم الأمير مطران بعدها الممتلكات المطلوبة أو لم يقدمها فإن البرتغاليين سيهاجمون الشحر وهذا ما حدث .

وعلى أيّة حال فإن مساحة المناورة البرتغالية رغم قصرها قدمت خدمة عظيمة لأمير الشحر استعد خلالها للدفاع عن المدينة في وقت كادت تكون خالية من حاميتها العسكرية ، فبعد تلقيه الإنذار الأخير طلب حضور بعض الشخصيات الاعتبارية للتشاور وهي :

- الفقيه الشيخ يعقوب بن صالح الحريضي مدير مدرسة
- الفقيه الشيخ أحمد عبد الله بالحاج بافضل = =
- الفقيه الشيخ فضل بن رضوان بافضل = =
- الشيخ أحمد بن رضوان بافضل تاجر
- الشيخ سالم بن صالح باعوين تاجر
- الشيخ حسين عبد الله العيدروس (الجمحي) تاجر [٦٩]

نستنتج من اختيار الأمير مطران لهذه الشخصيات الاعتبارية المقسمة وظائفها الاجتماعية بين التجارة والعلم مدى حنكته ، فالتجار أول المتضررين في حالة الغزو ، ورجال العلم تكمن أهميتهم في التأثير الروحي و المعنوي على السكان وهكذا فإن المصالح وواجب الدفاع ستندمج وتكون شعوراً بضرورة المقاومة وكيفما كان الأمر فإن المجتمعين قرروا اتخاذ الإجراءات الآتية :

١- إعادة تنبيه الأهالي إلى الإسراع بنقل نسائهم و أطفالهم إلى تبالة و القرى الأخرى المجاورة .
٢- تكوين قيادات من مقادمة الحارات[٧٠] للمقاومة في الأقسام الرئيسة من المدينة .
٣- تخصيص فرق لمكافحة الحرائق ولإغاثة الجرحى ودفن الموتى .
٤- حث الناس على اجتناب السرقة و النهب و السطو على أفراد الجاليات .
٥- إرسال رسالة مستعجلة للأمير عطيف بن دحدح لطلب النجدة السريعة.
٦- الاتصال بالقائد البرتغالي و الدخول معه في حوار مطول لكسب الوقت .
٧- إرسال تقرير إلى السلطان بدر عن الموقف في الشحر [٧١] .

ولاشك في أن ساعات ليل ذلك اليوم كانت عصيبة وثمينة وفيها جرت الاستعدادات لتنفيذ القرارات السالفة [٧٢].أما البرتغاليون فقد تحركوا في فجر اليوم التالي العاشر من شهر ربيع الثاني (٩٢٩هـ/٢٨ فبراير (شباط) ١٥٢٣م) ونزلوا إلى مدينة الشحر في زوارق صغيرة على دفعات قدر عددهم بأربعمائة مقاتل مسلحين بالبنادق النارية ومعدات الحريق[٧٣]، وخلال ثلاثة أيام متوالية جرت معارك في كل أحياء مدينة الشحر ، مارس خلالها البرتغاليون كل أعمال التخريب و السلب و القتل [٧٤]. أما سكان مدينة الشحر غير المتعودين على القتال و الذين لا يملكون من الأسلحة إلا السيوف و الرماح و العصي فقد صمدوا في الدفاع عن مدينتهم [٧٥].

ولعله من المفيد أن نقتبس بعض ما رواه المؤرخ باسباع المعاصر لهذه الأحداث والذي أنفرد بذكر تفصيلات المقاومة وقال بأسلوبه العامي : ((هدّت [٧٦] الناس يد واحدة....كل واحد يشوف دار الثاني داره والعار عاره و الخو [الأخ] خوه وإذا شافوا جماعة من البردجيز[٧٧] الملاعين حملوا عليهم وذي [الذي] سقط سقط وذي يقوم يقوم والناس صابهم شيء من الغرام [٧٨] لأن الهدة شيء ما نعهده في أهل الشحر))[٧٩].

أما المؤرخ بافقيه و الذي يعد مصدراً لاحقاً للمؤرخ باسباع فقد أورد حادثة الهجوم البرتغالي على الشحر برواية مغايرة لاسيما ما يتعلق بالمقاومة، فمما جاء في روايته : ((ابتدأ القتال فجر يوم الجمعة ولم يثبت له أحد من الناس بل انهزموا انهزاماً قبيحاً واستشهد أمير البلد)) [٨٠]. وقد اعتمد المستشرق سارجنت على هذه الرواية وقال لم يقاوم الناس البرتغاليين [٨١]. وبرغم افتراضنا لمبدأ المقاومة ضد البرتغاليين ، فإن من المناسب الوقفة عند رواية بافقيه خاصة أنه من أبناء مدينة الشحر . وبداية يمكن القول إن هذه الرواية غير دقيقة لسببين : أحدهما أنها جاءت لاحقة نسبياً عن رواية باسباع المعاصرة والآخر أنها حوت تناقضاً ملحوظاً ، فمن جهة يقول إن الناس انهزموا انهزاماً قبيحاً وفي السياق نفسه يذكر استشهاد أمير الشحر وبعض وجهاء المدينة .

وقد قدر باسباع عدد الشهداء بسبعمائة وأحد عشر، مع أبناء الجاليات الأجنبية المقيمة في الشحر [٨٢] ، و الزعامات الشعبية السبعة التي قادت حركة المقاومة [٨٣]. أما الخسائر المادية فقد وصل عدد المنازل التي تهدمت من الحرائق ٣٢٠ داراً وكوخاً و الحوانيت التي نهبت وأحرقت سبعمائة وأربعين[٨٤]. وكيفما كان الأمر فإن انسحاب البرتغاليين من الشحر جاء بعد

وصول قوات من منطقة المشقاص بقيادة الأمير عطيف بن دحدح وهي النجدة التي استعجلها الأمير مطران ، وقد عمل عطيف بعد وصوله إلى الشحر على حفظ الأمن ومعالجة آثار الغزو البرتغالي وقام بأعمال الإمارة ثم قرره السلطان بدر على ذلك[٨٥].

ونعتقد أن السلطان بدر بوطويرق هو المسؤول عن الخسائر البشرية و المادية ، فقد ترك مدينة الشحر بلاحماية عسكرية ، كما كان موقفه بعد الحادثة ضعيفاً وسلبياً فلم يركز جهوده على إقامة أية استحكامات أو تحصينات للمدينة خاصة أن مدينة الشحر مفتوحة من جميع الجهات ، ولا توجد بها أشكال الحماية الطبيعية كما هو الحال في مدينة عدن [٨٦]. فضلاً عن أنه لم يستغل حماسة السكان وإقدامهم على المقاومة في وضع ترتيبات احترازية لتنظيم المقاومة عند عودة الأعمال العدائية البرتغالية المتوقعة على المدينة ، كما لم يتجاوب مع المواقف المساندة التي أبداها العمودي في دوعن للجهاد عندما استأنف البرتغاليون أعمالهم البحرية ضد السفن التجارية العربية[٨٧].

والملاحظ أن الأسلوب الغالب في تعامل أبي طويرق مع البرتغاليين هو المهادنة وغض الطرف عما يقومون به .على أن هذا الموقف الضعيف لأبي طويرق يقابله موقف قوي ضد المناوئين له في مناطق حضرموت الأخرى . وقد دفع موقف السلطنة السلبي تجاه البرتغاليين سكان الشحر لاسيما تجارها إلى وضع أموالهم في قرية تبالة المجاورة للشحر كإجراء احترازي [٨٨].

على أن أهم نتائج المقاومة الشعبية الأخيرة ضد البرتغاليين هي عدم تجرؤ البرتغاليين على القيام بأية أعمال هجومية داخل المدن و البلدات الساحلية ، أما في عرض البحار وقبالة السواحل وأطراف المدن فقد استمرت الأعمال البحرية البرتغالية ، ويورد بافقيه نماذج متعددة منها كثيراً ما تحدث في وقت انهماك السلطان بدر في حرب أعدائه في داخل حضرموت .

ففي سنة (٩٣٥هـ/١٥٢٨م) استولى البرتغاليون على مركب تجاري محلي متوجه إلى الهند ، ولم يطلقه البرتغاليون إلا في قرية حيريج وبعد أن دفع صاحبه مبلغاً من المال[٨٩]. أما الموقف الرسمي للسلطنة فقد استمر في اتباع سياسة التودد الضعيفة ومن ذلك سماح أمير الشحر (لغراب)[٩٠] برتغالي يحمل مجموعة من الأسرى المسلمين بالبيع والشراء دون اتخاذ أي إجراء لصالح الأسرى [٩١].

ولم تكن السلبية هي السائدة عند السكان في السواحل الحضرمية كما حصل في الموقف الرسمي للسلطنة ، فأمام غياب وضعف دور السلطنة في التصدي للبرتغاليين شرع الأهالي في

الدفاع عن ممتلكاتهم بالاعتماد على أنفسهم بل والقيام أحياناً بالهجوم على السفن البرتغالية، من ذلك ما قام به بعض أفراد قرية (حصويل)[٩٢] من التسلق ليلاً إلى سفينة برتغالية راسية بالقرب من قريتهم استولوا عليها وقتلوا جميع من فيها من البرتغاليين وذلك في رجب (٩٣٧هـ/١٥٣٠م).[٩٣] كما حرص أصحاب السفن المحلية التجارية على تزويد سفنهم بالأسلحة النارية وصار بعضهم يعترض السفن البرتغالية في عرض البحار ويشتبك معها بالأسلحة الخفيفة. ونستنتج ذلك من حوليات بافقيه لسنة (٩٣٧هـ/١٥٣٠م) فقد أشار إلى: ((أن جلبة [٩٤] محلية تصدت قرب قرية الحامي لغراب برتغالي نهب سفينة قرب الشحر ونتج ذلك عن مقتل ثلاثة من أفراد الجلبة المحلية)) ولم يحقق البرتغالي أي نصر يذكر[٩٥]. وعلى أيّة حال فقد شجع الناس على المقاومة ورود الأنباء بقرب وصول الأسطول العثماني، وكان الغراب البرتغالي متجهاً إلى الهند ليبلغ نائب الملك بهذه التطورات[٩٦].

وتتجلى صور السلبية و التخاذل الرسمية للسلطنة من البرتغاليين عندما هاجم هؤلاء ميناء الشحر في ٢١شعبان ٩٣٧هـ/١٥٣٠م وعملوا على الاستيلاء على بعض المراكب الراسية فيه ومنها مركب للمدعو يوسف التركي الموجود في الشحر آنذاك. كما حاول البرتغاليون إحراق بعض المراكب التي اضطر أصحابها إلى إغراقها قبالة الساحل، غير أن جماعة من المدافعين تصدوا لهم ولم يمكنوهم من تحقيق أهدافهم[٩٧].

وبعد حوالي عشرين يوماً من هذه الأحداث عاود البرتغاليون الهجوم على ميناء الشحر واستولوا على الكثير من السفن، وقد حاول يوسف التركي وأتباعه صدهم بالمدافع إلا أن رجال السلطان بدر منعوه من القيام بأي عمل مقاوم للبرتغاليين بل ألقوا القبض على عدد من رجاله، وقد علق بافقيه على هذه الحادثة بنقد لاذع إذ قال ((ارتجت البلاد ارتجاجاً عظيماً من فعلهم وحزن المسلمون لذلك وحصلت شناعة عظيمة، ذلك كله ظناً منهم أن ذلك مما يرضي الإفرنج ومما يتقربون به إليهم وهيهات لا الإفرنج راضين عنهم و لا الرومي ولا المسلمين ولا حول ولا قوة إلا بالله))[٩٨].

وظلت هذه الممارسات البرتغالية مستمرة على مرأى ومسمع من السلطات المحلية، التي باتت عاجزة عن التصدي لها، بل كان أسلوب الترضية هو الأسلوب الرسمي لرجال

السلطنة الكثيرية كما رأينا حتى في أثناء الأعمال البحرية البرتغالية السابقة . ولم يعر السلطان بدر بوطويرق أي اهتمام للأصوات المعارضة التي ظهرت هنا وهناك وطالبت بمواقف أكثر إيجابية وعبرت عن نفسها بأشكال مختلفة ، فالمؤرخ باسباع سجل جانباً من هذه المعارضة عندما قال: ((إن الناس كانت تنتقد السلطان سراً وجهراً ويركّبون l يشنعونا عليه)) [٩٩].

ويبدو أن السلطان بدراً كان واقعاً تحت تأثير الشعور بعدم المقدرة على مواجهة البرتغاليين ، فاستمر يجاملهم ويسكت عن تصرفاتهم في حق رعاياه ، وتزامن هذا الموقف مع ضعف مركزه السياسي في داخل حضرموت ، ومن أمثله أسلوب السلطان بدر في التودد للبرتغاليين ما قام به في بداية سنة (٩٤٢هـ/١٥٣٥م) من تزويد سفينة برتغالية بأعداد من الأبقار والأغنام وهدية خاصة لقائدها وخواصه ، ورسالة إلى نائب الملك البرتغالي يعرض فيها عليه الصلح [١٠٠] ولم تشر المصادر إلى مضمون هذه الرسالة ، ويغلب الظن أن السلطان بدراً طلب فيها الأمان لسواحل السلطنة وتجارتها ، على غرار المناورات التي قام بها حاكم عدن مع البرتغاليين في هذه الفترة[١٠١].

وكيفما كان الأمر فإن الأعمال البحرية البرتغالية استمرت في السواحل الحضرمية، وحدث في اثرها تطور خطير في العلاقات الكثيرية البرتغالية ، فقد تحولت سياسة التخاذل الكثيري إلى سياسة المساعدة غير المباشرة . ذلك أن السلطان بدراً عمل على شراء المراكب التجارية المستولى عليها وما تحمله من بضائع من البرتغاليين ، ثم باعها بضعف الثمن الذي يدفعه للبرتغاليين [١٠٢].

لقد زادت هذه الأعمال من سخط الأهالي و التجار . وألقى الشاعر الشعبي عبد الله مدحج (إمام مسجد بالشحر) قصيدة طويلة انتقد فيها سياسة السلطان بدر تجاه البرتغاليين رغم كثرة جنوده وماله ومما قال فيها: [١٠٣]

وين [١٠٤] باتصل بالملك قل للشنفري وآخـــرتها قـــبر في جبانـــه
ويـن بـاتودي الوجـوه و الحربيـه [١٠٥] حولـك ضـعف [١٠٦] وخزائنـك مليانـه
ربعك هم أصـحابك وساعدك القوي هم باب حصنك و الغلق واللانه [١٠٧]

ويذم تودده للبرتغاليين

مـــا ينفعـــوك عيـــال الكفـــــرة أطلـــب مـــن الله العلـــي غفرانـــه
ذهنـك[١٠٨] تظـن البردجيـز صحابـك شـف كـل واحـد هـام في صـوانه [١٠٩]

وفي ٥ رمـضان سـنة (٩٤٢هـ/١٥٣٥م) قـام الـسلطان بـدر بـأول عمـل إيجـابي ضـد البرتغاليين في الشحر ،حيث كـانوا يتـاجرون بأمـان في مـوانئ الـسلطنة الكثيرية [١١٠] فمـا هـي حيثيات هذه الخطوة غير المتوقعة؟ وفيما يتعلق بخلفية هـذه الخطوة نجد أن الـسلطان بـدراً في تلك الأثناء استعان بقوة يمنية وهـم زيود الجوف الذين ساعدوه في السيطرة على قرية حيريـج الساحلية في وقت كان موقفه العسكري والسياسي في داخل حضرموت ضعيفاً ،[١١١] ربما أراد السلطان بدر قبل أن يدخل بثقله داخـل حـضرموت فـضّل القيـام بعمـل قـوي ومفـاجئ ضـد البرتغاليين ليأمن ظهره ويحسن من سمعته .

أما السبب المباشر الذي دفع السلطان بـدراً للقيـام بمهاجمـة البرتغـاليين حسـب مـا يرويـه مؤرخ معاصر وهو حدوث عراك بمدينة الشحر بين برتغالي وتاجر هندي مقيم في الشحر على قطعة من القماش ، وقـد اشترك في هذا العراك إلى جانب الهندي بعض أهـالي الـشحر الـذين كما يصفهم باسباع، (في كبادهم نار عليهم)[١١٢] . وعندها وصل الخبر إلى السلطان بدر الذي كان موجوداً آنذاك في الشحر مع جميع قواته أمر عساكره بقتل البرتغـاليين الموجـودين في الـشحر وتشارك السكان و العسكر في هذه العملية [١١٣] حيث قتل مـن البرتغـاليين نحـو الـستين [١١٤] ، كما تم الاستيلاء على ١٤ سفينة برتغالية [١١٥] أما الأسرى فقد فرق بعضهم على عسكره على النحو الآتي:

عشرة عند أشراف الجوف .
عشرة عند العساكر اليافعين
عشرة عند العسكر الزيدية
عشرة عند عبيد السلطنة [١١٦]

وبالنظر إلى جرأة العملية التي قام بها السلطان والقوة الموجودة لديه آنذاك ، نعتقد أن العملية كان مخططاً لها ، أما العراك الذي حدث في الشحر فكان بمثابة الشرارة الأولى التي استفاد منهـا

السلطان بدر . ويرى بعض المؤرخين أن هجوم السلطان بدر الأخير على البرتغاليين جاء : ((بعد أن صالحهم واستأنس بالبعض منهم وصاروا من ندمائه تآمروا عليه وحاولوا قتله وعندما اكتشف المؤامرة بطش بهم))[١١٧] .أما بافقيه فلم يشر إلى الروايتين لا من قريب ولا من بعيد ، وذكر عملية هجوم السلطان على البرتغاليين بلا مقدمات ونستفيد من الرواية أن السلطان هاجمهم فجأة [١١٨].

كيفما كان القول فإن السلطان بدراً لم يتخذ قرار الهجوم على البرتغاليين بناء على ضغط الرأي العام بشكل أساسي بل بعد استناده إلى قوة يمنية من خارج حضرموت كما أشرنا ، وساعدته مواقفه المتخاذلة السابقة على اطمئنان البرتغاليين إليه [١١٩] وتحقيق عنصر المفاجأة وبالتالي سهولة الانتصار عليهم ، لقد أسهم هذا العمل الإيجابي الكثيري ضد البرتغاليين في تغيير ملحوظ في العلاقة بينهما ، وبدأ البرتغاليون يدخلون لأول مرة في مفاوضات مع السلطنة الكثيرية . ففي شوال سنة (٩٤٤هـ/١٥٣٧م) وصلت سفينتان برتغاليتان نزل منهما وسيط من قبل البرتغاليين يدعى عبد الله بن الزمن [١٢٠] . وذكر بافقيه أن البرتغاليين كانوا ينزلون ساحل الشحر بحذر وعلى دفعات صغيرة ، وقد تم الاتفاق على إطلاق سراح الأسرى وعلى أن يكون ثلث خراج الشحر للبرتغاليين ويبقى في الشحر كاتب برتغالي يتابع تحصيل هذا المبلغ [١٢١].

تجدر الإشارة إلى أن هذا الصلح جاء بعد أقل من خمسة أشهر من اعتراف السلطان بدر بتبعيته للسلطنة العثمانية وقبل وصول الحملة العثمانية المزمع وصولها إلى السواحل الهندية لضرب البرتغاليين ، ولهذا ربما جاء قبول السلطان بدر بهذه الاتفاقية ((التي لم نجد لهم تطبيقاً عملياً)) تماشياً مع السياسة التي درج عليها في التعامل مع البرتغاليين ، ومن جانب آخر أراد أن يكسب الوقت ويتجنب أية مشاكل معهم . وما يثير الاستغراب أن السلطان بدراً في هذه الأثناء طلب المساعدة البرتغالية لتعزيز مركزه السياسي في داخل حضرموت لهذا يمكن القول إن سياسة السلطان بدر مع القوى الأجنبية لم تسر باتجاه واحد لاسيما بعد وصول العثمانيين إلى عدن واحتلالهم لها سنة (٩٤٥هـ/١٥٣٨م) فكيف تعامل السلطان بدر مع هاتين القوتين الأجنبيتين الطامعتين اللتين لهما مصالح متناقضة ؟

ثانياً : علاقة السلطنة الكثيرية بالعثمانيين :

ظلت اليمن من سنة (٩٢٣هـ/١٥١٧م) وهي السنة التي احتل فيها العثمانيون مصر وحتى سنة (٩٤٥هـ/١٥٣٨م) بعيدة عن الاستراتيجية العثمانية ، واكتفوا بسيادتهم الاسمية على المناطق اليمنية الخاضعة لسلطة المماليك بعد أن اضطر هؤلاء إلى إعلان ولائهم للدولة العثمانية .[١٢٢] وكان متوقعاً عقب الاحتلال العثماني لمصر أن يبدأ العثمانيون صراعهم ضد البرتغاليين في البحر الأحمر و المحيط الهندي لاسيما بعد أن أمر السلطان سليم الأول في أثناء وجوده في مصر ببناء ترسانة بحرية كبيرة في ميناء السويس[١٢٣] .

دلت الأحداث التي تعاقبت بعد وفاة السلطان سليم سنة (٩٢٦هـ /١٥٢٠م) على أن هذا الصراع لم يدخل مرحلة التنفيذ الفوري إذ وجه السلطان سليم اهتمامه عقب عودته إلى إسطنبول إلى تعزيز الأسطول العثماني في البحر المتوسط ، وسار على نهجه السلطان سليمان القانوني الذي جعل الأولوية في برنامجه العسكري للجبهة الأوربية[١٢٤] .

وقبل أن يلقي العثمانيون بثقلهم في اليمن بحجة القضاء على البرتغاليين في السواحل العربية والإسلامية كان لهم بعض الإجراءات التمهيدية المحدودة منها : الحملة البحرية التي أمر بتجهيزها الوالي العثماني إبراهيم باشا التي تكونت من أربعة آلاف جندي وعشرين سفينة وهي أول حملة بحرية عثمانية تخرج من السويس ، وصلت هذه الحملة إلى اليمن في سنة (٩٣٢هـ/١٥٢٢م) ، ولكنها فشلت في تحقيق أهدافها لانشغال قادتها وأتباعهم بخلافاتهم .[١٢٥]

وبعد أن تمكن العثمانيون من احتلال غالبية المناطق العربية و منها مدينة بغداد سنة (١٥٣٤م) ، كان من البديهي أن تتجه أنظارهم إلى الخليج العربي والبحر الأحمر لاسيما اليمن التي يشكل موقعها الاستراتيجي خطاً دفاعياً مهماً عن حدود الدولة العثمانية من جهة الجنوب،[١٢٦] كما أن سيطرتهم على اليمن تجعلهم يضمنون سلامة الأماكن المقدسة الإسلامية في الحجاز ، والتحكم في البحرين الأحمر و العربي وسيحصلون إلى جانب ذلك على موطئ قدم صالح للوثوب على البحرية البرتغالية في البحار الشرقية وتطويق أعدائهم الصفويين في إيران من الجنوب ، وتحقيق أحلامهم بمد سيطرتهم شرقاً إلى أقاصي العالم الإسلامي[١٢٧] .

وبالنظر إلى ضعف السلطنة العثمانية في اليمن وعدم انصياع الولاة المماليك لأوامرهم والاعتراف بسلطة الولاة العثمانيين المبعوثين من قبلهم في الفترة من (١٥١٧- ١٥٣٨م) ، الذين كانوا غير مسنودين بقوة عسكرية تدعم حكمهم في اليمن[١٢٨] فقد رأت الدولة العثمانية أنه لا سبيل إلى ضمان سيادتها على اليمن إلا بالاحتلال الفعلي وإقامة حكم عثماني مدعم بالقوة العسكرية ليحقق من خلاله أهدافهم الدفاعية و التوسعية ويبدو أن خطة العثمانيين الاستراتيجية لمواجهة البرتغاليين هي نفسها التي كانت ترتكز على تدعيم سيطرتهم في البحر الأحمر واليمن واتخاذ عدن قاعدة لهم في جنوبه .

وفيما يتعلق بالعلاقات الكثيرية العثمانية فإنها تعود إلى فترة مبكرة لاسيما منذ سنة (٩٢٦هـ/١٥٢٠م) عندما استعان السلطان بدر بوطويرق بقوة عثمانية مسلحة بالبنادق حققت له انتصارات سريعة على مناوئيه في داخل حضرموت، كما سبقت الإشارة . وأمام التهديدات البرتغالية للسواحل العربية والإسلامية تطلعت السلطنة الكثيرية كغيرها من الإمارات الإسلامية في الساحل الهندي إلى الدولة العثمانية بعد سقوط الدولة المملوكية في مصر لتضطلع بأعباء المقاومة الإسلامية ضد البرتغاليين في المحيط الهندي.[١٢٩]

وعند غياب الدور العثماني الفعلي في التصدي للبرتغاليين في الفترة من سنة (١٥١٧- ١٥٣٨م) فإن أمراء هذه السواحل، وفي ضمنها السلطنة الكثيرية، حاولوا الدفاع عن أنفسهم تارة و المهادنة تارة أخرى ثم خضوع بعض منها للسيطرة البرتغالية سواء عن طريق قبول السيطرة البرتغالية على بعض المراكز أو قبولهم شروط جائرة لاتفاقيات مفروضة . وسبق أن ألمحنا إلى أن السلطنة الكثيرية اتبعت هذه الأساليب الثلاثة ، إلا أن الأسلوب المتهاون و المتخاذل كان هو الأسلوب السائد في سياستها .

وبعد هجوم السلطان بدر بوطويرق وانتصاره على البرتغاليين في مدينة الشحر سنة (٩٤٢هـ/١٥٣٥م) ، عمل على استثمار هذا النصر بالتقرب إلى العثمانيين وذلك من خلال إرساله خمسة وثلاثين أسيراً برتغالياً إلى السلطان العثماني [١٣٠] . وقد هدف السلطان بدر من هذه الخطوة إلى تشجيع العثمانيين للقدوم إلى السواحل العربية الجنوبية وحمايتها من البرتغاليين ، على أن الهدف الأهم هو تقوية جانبه من خلال كسب تأييد هذه الدولة

الإسلامية الفتية فيما لو قام البرتغاليون بعمل عسكري جديد ضد السلطنة ، لاسيما أن عداءه للبرتغاليين أصبح سافراً ، وهو أمر كان يتجنبه طويلاً ، ولهذا استمر السلطان بدر يراسل السلطنة العثمانية ويحسن علاقته بها [١٣١].

وقد تركت هذه الاتصالات أثرها الإيجابي في العلاقات الكثيرية العثمانية وتطورت تطوراً ملحوظاً ، إذ نظرت الدولة العثمانية إلى السلطان الكثيري بوصفه صديقاً، على عكس حاكم عدن الأمير عامر بن داود الطاهري الذي حاول أن يجمع بين التودد الحذر للعثمانيين و المحافظة على استقلال عدن عن أي حاكم أجنبي[١٣٢].

تجدر الإشارة إلى أنه قبل وصول الحملة العثمانية المزمع إرسالها إلى الهند ، أرسل والي مصر سليمان باشا الخادم سنة (٩٤٤هـ/١٥٣٧م) رسولاً يدعى (فرحات صوباشي) حمل رسالة لكل من السلطان الكثيري و الأمير عامر الطاهري مفادها إنه خارج بنفسه لجهاد البرتغاليين في سواحل الهند[١٣٣]. وفي ١٨ ربيع الأول سنة (٩٤٤هـ/١٥٣٧م) وصل الغراب العثماني إلى الشحر يحمل إلى جانب الرسول فرحات صوباشي ٣٠ رجلاً عثمانياً معهم مرسومان وخلعتان للسلطان بدر بوطويرق وقد استقبل السلطان بدر المبعوث العثماني استقبالاً حاراً باعتباره ممثلاً للدولة العثمانية ، وقرئ المرسومان في جامع مدينة الشحر ، وقد تضمنا أخبار الحملة العثمانية وعددها بحضور السلطان بدر وعساكره وقرأهما الفقيه عبد الله عمر بامخرمة [١٣٤] وكان الجميع قائمين عند قراءتهما (إكباراً وإجلالاً للباب العالي ومنصب الخلافة)[١٣٥].

وفي هذا الحفل قدم السلطان بدر ولاءه رسمياً للسلطان حيث أكد في كلمته التي ألقاها أنه سوف يأمر الخطباء في جوامع حضرموت ومساجدها أن يخطبوا للسلطان العثماني سليمان القانوني قبله ، وقد صادف يوم (٢٤ ربيع الأول ٩٤٤هـ/١٥٣٧م) أول جمعة خطب فيها للسلطان العثماني في حضرموت .[١٣٦] كما كان السلطان بدر كريماً مع الوفد العثماني ، فقد أرسل إلى الوالي العثماني في مصر فصاً من الألماس وخمسمائة مثقال عنبر وأعطى أعضاء الوفد كمية كبيرة من البهارات [١٣٧] . واستكمالاً لتحضيرات الحملة العثمانية ، وصلت إلى الشحر سفينة عثمانية في جمادى الأولى من السنة نفسها تحمل مواد غذائية ومعدات حربية.[١٣٨]

واستمرت المراسلات بين السلطنة و سليمان باشا الخادم ففي بداية سنة ٩٤٥هـ/١٥٣٨م تسلم السلطان بدر رسالة شكر منه رداً على رسالته وهديته وطمأنه بقرب خروج الحملة العثمانية.[١٣٩]

وفي هذه الأثناء كان البرتغاليون يمارسون ضغوطاً قوية على السلطان بدر من أجل أن ينبئهم بأخبار الحملة العثمانية ، ويذكر بافقيه أنهم أظهروا الاكتفاء بما وجدوه في الشحر من أخبار الحملة .[١٤٠] اما بالنسبة إلى الأمير عامر الطاهري فإنه لم يكترث بالوفد العثماني ، وتعمد عدم مقابلته بعد عودته من الشحر .[١٤١]

وهكذا فإن الإجراءات العثمانية التمهيدية قبل أن تبدأ تحقيق أهدافها المعلنة في الهند جعلت الشحر محطة عسكرية عثمانية مؤقتة بالطرق السلمية ، في حين أصبحت عدن الأكثر أهمية من الشحر من الناحية الاستراتيجية الهدف الأول للحملة العثمانية للسيطرة عليها بالقوة العسكرية .

وتنفيذاً للسياسة العثمانية الجديدة، تحركت من السويس في (١٥ محرم ٩٤٥هـ/ يونيو ١٥٣٨م) حملة عثمانية قوامها سبعون غراباً وثلاثة وثلاثون سفينة شحنت بالجنود و المدافع، وقد وصلت إلى جدة بعد سبعة أيام[١٤٢] ، ومنها سار سليمان الخادم إلى جزيرة كمران ثم إلى عدن التي وصل إليها في (٧ ربيع الأول ٩٤٥هـ/ ٣ أغسطس ١٥٣٨م) . وقد طلب سليمان باشا الخادم من أمير عدن السماح لجنوده بدخول عدن لقضاء حوائجهم من المؤن و الطعام .[١٤٣] ولما رأى الأمير الطاهري أنه لا قبل له بمقاومة هذا الجيش ولرغبته في نصرة سليمان باشا الخادم له على الإمام شرف الدين [١٤٤] ، فقد سمح للجنود بدخول عدن وقبل دعوته لمقابلته في سفينته ، وتوجه إليه على رأس وفد من كبار رجاله ، وبعد أن تيقن سليمان أن المدينة صارت تحت قبضة جنوده أظهر غدره بعامر بن داود الطاهري وأصحابه وشنقهم على صاري السفينة .[١٤٥] كما أمر سليمان بقتل من بقي من آل طاهر في عدن ومصادرة ممتلكاتهم بتهمة أنهم عملوا على تسليم عدن للبرتغاليين[١٤٦] .

ومن المفارقات والمتناقضات العجيبة أنه عندما كان العثمانيون يهاجمون عدن ويعيثون فيها فساداً كان السلطان بدر بوطويرق الذي أعلن طاعته للدولة العثمانية يخوض معارك مع خصومه المحليين مستخدماً القوة العسكرية البرتغالية .[١٤٧]

وكيفما كان الأمر فإن أسلوب الغدر الذي اتبعه سليمان باشا مع عامر الطاهري أثر على سير الحملة، إذ نفّر الناس منه لاسيما الأمراء الهنود الذين فقدوا ثقتهم بالعثمانيين ، وضاعت على الأخيرين فرصة تكوين جبهة إسلامية موحدة تتولى الدفاع عن المحيط الهندي و السواحل العربية .[١٤٨]

وقد أخفى سليمان باشا أسلوبه الغادر في عدن عن المسؤولين العثمانيين في الأستانة ، وذكر في رسالة بعثها إلى السلطان العثماني (إنه أخذ عدن قهراً) [١٤٩] . واستمراراً لسياسة التضليل التي اتبعها سليمان باشا الخادم أرسل رسالة إلى السلطان بدر بوطويرق في الشحر أخبره بوصول الحملة إلى عدن وسيطرته عليها وقتله لعامر الطاهري بتهمة موالاة البرتغاليين. [١٥٠]

وقدم السلطان بدر دعماً محدوداً لهذه الحملة بعد أن اتصل به وهو في سيئون قائدان عثمانيان أعاقت الرياح تقدم سفنهما واللحاق بالحملة العثمانية ، فأعطى أوامره إلى أمير الشحر بتزويدهم بغرابين وعدد من البرتغاليين المأسورين لتسليمهم إلى سليمان باشا الخادم .[١٥١]

ولا مجال هنا لتتبع سير الحملة العثمانية المتوجهة إلى الهند وعلاقاتها مع الأمراء الهنود والحروب التي خاضتها[١٥٢] . على أنه يتوجب القول إن الحملة لم تحقق أهدافها ، وتكمن أهم أسباب فشلها في ضعف شخصية قائدها وسوء تدبيره للأمور وتهوره في اتخاذ القرارات واعتماده على سياسة الغدر و الفتك حتى بالخلفاء مما أفقده ثقة الجميع.[١٥٣] وقد أشاع سليمان أن سبب انسحابه من الهند يعود إلى عدم تعاون الهنود معه ، ويبدو أن بافقيه أخذ بهذه الحجة الواهية وذكرها عند تبريره لأسباب فشل الحملة .[١٥٤]

وعلى أيّة حال فإن السلطان بدراً فقد الثقة أيضاً بسليمان باشا ، اذ تعمد عدم لقائه بعد انسحاب الحملة العثمانية من الهند ووصولها إلى الشحر ، إلا أن عامله على الشحر الأمير أحمد بن مطران استقبل الحملة استقبالاً حسناً ، وصعد على سفينة سليمان حاملاً هدية له ، كما سمح للجنود العثمانيين بالنزول إلى الشحر للبيع و الشراء .[١٥٥] وعلى ظهر السفينة أخبر سليمان باشا أمير الشحر عزمه على إرسال ولاية للسلطان بدر من عدن إلى مدينة ظفار[١٥٦] .

لقد كان لكل من الوالي العثماني و الأمير (ابن مطران) أهدافه ، فما قام به الأخير يعد تطبيقاً لسياسة السلطنة القائمة على قبول السيادة العثمانية الاسمية التي تجنبها الاحتلال

المباشر كما حدث في عدن ، أما أهداف الوالي العثماني فهي تغطية خسارته في الهند من خلال الادعاء بتمكنه من تحقيق تبعية السواحل العربية الجنوبية للسيادة العثمانية ، لهذا فرض على السلطنة الكثيرية خراجاً سنوياً يبلغ عشرة آلاف أشرفي.[١٥٧] وتنفيذاً لذلك ترك سليمان قبل مغادرته الشحر (سنجقاً) وعدداً من العثمانيين لمقابلة وإخبار السلطان بدر في داخل حضرموت بهذه الأعمال [١٥٨].

كما حرص سليمان باشا على أخذ بقية الأسرى البرتغاليين الموجودين في منطقة (عرف) شرقيّ الشحر و كان عددهم ثلاثين أسيراً ، ثم عمل سليمان على قتلهم بالقرب من جدة ، وأرسل رؤوسهم إلى السلطان العثماني بشارة لنصره المزعوم [١٥٩].

وتأكيداً لتبعية السلطنة للدولة العثمانية أرسل سليمان باشا الخادم في ذي القعدة سنة (٩٤٥هـ /١٥٣٨م) من مصر (شاؤوشان) [١٦٠] إلى الشحر ثم توجها إلى داخل حضرموت لمقابلة السلطان بدر لتأكيد الخلعة له ، و الإشراف على جباية الضرائب .[١٦١] وتجدر الإشارة إلى أن الفرمان الذي أعطى للسلطان بدر من باب عدن إلى نهاية ظفار لم يتخذ أية صيغة عملية في أي وقت من الأوقات.[١٦٢] ونعتقد أنه لا يتعدى أن يكون نوعاً من الامتنان لهدايا السلطان بدر، و التعاون و الانصياع الذي أبداه لهم .

لقد ألقت العلاقات الكثيرية العثمانية بظلالها على الصراع السياسي القبلي في حضرموت ، لاسيما في صراع السلطنة الكثيرية مع الشيخ العمودي في منطقة دوعن[١٦٣]، الذي رفض الاعتراف بتبعية حضرموت للدولة العثمانية . وإذا كنا لا نستطيع أن نرصد موقف الأهالي من هذه العلاقة ، إلا أننا نستطيع أن نستنتج من خلال المصادر الحضرمية التي وقفنا عليها أنه لم يكن هناك اعتراض يذكر على تبعية حضرموت الاسمية للدولة العثمانية لأسباب عديدة منها : أن هذه المصادر لم تحتوِ نقداً ضمنياً أو صريحاً لهذه العلاقة مثلما حصل عندما دخلت السلطنة في علاقة معينة مع البرتغاليين ، والسبب الثاني أن النظرة العامة تجاه العثمانيين في البداية إيجابية باعتبارهم يمثلون أكبر دولة إسلامية ، ونظروا لها كمنقذ لهم من التحديات الأوروبية لاسيما البرتغالية التي برزت آنذاك ، فضلاً عن المكانة الدينية التي كان يتمتع بها السلطان العثماني .

وقد أشاد الشاعر الحضرمي عبد الصمد باكثير[١٦٤] بالعلاقات الكثيرية العثمانية ضمن قصيدة طويلة يمدح فيها السلطان عمر بن بدر(بوطويرق) ومما قاله فيها :

هذا هو الفخر و المجد الصميم وذا ... وفعالكم أبداً ما ذا بالعجب
قمتم بحق ابن عثمان وطاعته ... محبة هي منكم عن أب فأب
كمثل من أسر الإفرنج من قدم ... أبوك بدر بن عبد الله ذو الحسب
ساريهم في وثاق الأسر قد صفدوا ... بعضاً وبعضهم قد غل باللبب
هناك كان إلى اسطنبول مقدمهم ... إلى سليمان يا الله من عجب
أن العشا منه الغر الكرام لكم ... ركن قويم وظل غير منجذب[١٦٥]

ولاشك في أن شعر المدح المباشر للسلاطين، يعبر عن الموقف الرسمي للدوائر الحاكمة و لا يعبّر بالضرورة عن نبض السكان[١٦٦] ، ومع هذا يمكن القول إن تحديات الوجود البرتغالي و المحاولات العثمانية في التصدي لها ، كانت تفرض على السلطنة التعامل مع أحد الطرفين المتصارعين و الطامعين ، و لأسباب تتعلق بالسياسة البرتغالية ولأسباب دينية كان لابد أن يكون التعاطف و الميل إلى جانب العثمانيين .

والسؤال الذي يطرح نفسه : هو لماذا لم يحتل العثمانيون مدينة الشحر على غرار احتلالهم لمدينة عدن ؟ بداية يمكن أن نعزو عدم احتلال العثمانيين المباشر للشحر لنجاح السياسة الخارجية للسلطان بدر بوطويرق، فمن خلال استعراضنا للعلاقات الكثيرية العثمانية وجدنا أن السلطان بدراً عمل على كسب رضى السلطان العثماني ووالية على مصر ، من خلال تقديمه كافة التسهيلات الممكنة ثم إعلانه تبعية السلطنة للدولة العثمانية. أما العثمانيون الذين كانوا راضين عن السلطان بدر نتيجة لمواقفه الإيجابية تجاههم فكان الأهم عندهم إعلان الطاعة و الالتزام بدفع الخراج السنوي ترجمةً للسياسة العثمانية العامة ، وهي الاعتراف بالزعامات المحلية في داخل إمبراطوريتهم طالما قبلت هذه الزعامات بتبعيتها للعثمانيين وسيادتها على مناطقهم[١٦٧]. كما أن الأهمية الثانوية للشحر مقارنة بمدينة عدن تجعل من الأجدى بالنسبة للعثمانيين بقاء العلاقات على ما هي عليه لجعل الشحر منطقة متقدمة أو

خط دفاع أولي لحماية عدن و المصالح العثمانية في البحر الأحمر . لهذا كانوا يرسلون بين الحين والآخر بعض السفن الاستطلاعية التي كانت تجوب السواحل العربية الجنوبية.

وكيفما كان القول وبالرغم من الاتهامات الموجهة إلى حملة سليمان باشا إلى الهند، فإننا لا نستطيع أن ننكر جهوده في إخضاع السواحل العربية وجعلها قاعدة ارتكاز للأسطول العثماني ضد الهجمات البرتغالية المحتملة[١٦٨] . على ان أهم النتائج التي ترتبت على فشل الحملة العثمانية إلى الهند، هي انتهاج العثمانيين سياسة الدفاع بعد أن فشلت سياسة الهجوم لهذا ركز العثمانيون على تقوية نفوذهم في البحر الأحمر [١٦٩] .

ولا شك في أن هذا الموقف الدفاعي الضعيف تجاه البرتغاليين جعل سواحل الجزيرة العربية الجنوبية هي الميدان الرئيس للمواجهة ، لاسيما سواحل السلطنة الكثيرية وميناءها الشحر ، ولعل ذلك يفسر لنا أسباب المواقف المتخبطه للسلطنة من قطبي الصراع الدولي في هذه المنطقة حينذاك .

استأنف البرتغاليون أعمالهم البحرية بعد فشل حملة سليمان الخادم ، ففي ذي الحجة سنة (٩٤٨هـ/١٥٤١م) وصل إلى الشحر غراب برتغالي في رحلة تجسسية ، وصادف في الشحر ثلاثة مراكب هندية راسية قبالة الميناء فاستولى البرتغاليون عليها ولم يطلقوها إلا بعد أن دفع أصحابها مبلغاً من المال ، ثم استمروا بالقرب من الشحر يتخطفون السفن حسب تعبير بافقيه[١٧٠] . بل كانوا يهاجمون السفن التجارية العربية التي تحمل تراخيص من المراكز التجارية البرتغالية في الهند . [١٧١]

وحقيقة الأمر أن الأوضاع في بحر العرب كانت متردية ، وكمظهر من مظاهر الضعف والعجز العثماني يذكر بافقيه ويتهكم أن غراباً برتغالياً مر بمدينة عدن وضربها بالمدافع وقتل جماعة من ركاب السفن واستولى على أموالهم ولم ((يصده صاد و لا أزعجه مزعج هذا مع أن عدن وزبيد ملآنتان عساكر من الأروام))[١٧٢] .

وعلى الرغم من قيام العثمانيين بجولات تفقدية في هذه السواحل ، فإنَّ السفن العثمانية هي الأخرى مارست أعمالاً بحرية غير مباشرة ، وذلك بابتزاز القرى و المناطق الساحلية . ففي سنة (٩٥١هـ/١٥٤٤م) خرجت من عدن أربع سفن عثمانية متوجهة إلى السواحل الحضرمية ، وقد تعمد السلطان بدر عدم مقابلة مَنْ فيها في مدينة الشحر ، ولكن أمر عامله بإعطائهم بعض

الهدايا .[١٧٣] وعندما امتنع أهل (حيريج) و(قشن) عن دفع تلك الهدايا على غرار مدينة الشحر هاجم العثمانيون أصحاب هذه المناطق ودخلوا معهم في معارك ، وألقوا القبض على بعض زعمائهم المحليين ولم يطلق سراحهم إلا بوساطة السلطنة الكثيرية .[١٧٤]

وكانت هذه الجولات الاستطلاعية تتحول أحياناً عن مسارها البحري وتتجه إلى داخل حضرموت . ففي (ربيع الثاني ٩٥٤هـ/١٥٤٧م) تمكن السلطان بدر من إقناع الأمير يوسف التركي من التوجه معه إلى داخل حضرموت لضرب أعدائه بالمدفعية [١٧٥] ، ويبدو أن هذه الاستعانة ليست غريبة في سياسة السلطان بدر، فقد استعان أيضاً بالبرتغاليين في ظروف مشابهة ، ويندرج هذا في أسلوب السلطان الاستعراضي الذي يحاول به إرهاب أعدائه بمثل هذه الوسائل . وعلى أيّة حال فإن الأهداف العسكرية المنوطة بهذه القوى غالباً ما تكون محدده ومؤقتة يدفعها إلى ذلك كرم السلطان و الغنائم المتوقع الحصول عليها .

وإذا كانت السلطنة قد حافظت على علاقاتها مع الدولة العثمانية القائمة على الاعتراف الاسمي بالتبعية واقتناع الطرفين بذلك ، فإن الموقف في المناطق الأخرى كان مغايراً .فلم يمض وقت طويل على الاحتلال العثماني لليمن حتى اندلعت حركة المقاومة الشعبية ضد العثمانيين فقد كانت للسياسة الخاصة التي اتبعها الولاة العثمانيون في اليمن ، وما عرف به أكثرهم من الغدر وسفك الدماء و الجهل بأوضاع اليمن أثراً في بروز هذه المقاومة [١٧٦] .

وقد تزعم حركة المقاومة الأئمة الزيديون في طليعتهم الإمام شرف الدين وابنه المطهر، ثم أسرة آل القاسم التي نجحت في إخراج العثمانيين من اليمن سنة (١٦٣٥م).[١٧٧] ولا يتسع المجال لسرد تفصيلات حركة المقاومة اليمنية فما يهمنا علاقة السلطنة الكثيرية بالدولة العثمانية في أثناء حركة المقاومة ، وقد سبق الإشارة إلى إعلان السلطنة الكثيرية تبعيتها للدولة العثمانية سنة (٩٤٤هـ/١٥٣٧م) . وقد حرص سلاطين آل كثير على المحافظة على ولائهم للدولة العثمانية مدة بقائهم في اليمن ، ليتمتعوا بالحماية العثمانية من هجمات البرتغاليين على سواحل السلطنة وبمعنى آخر فإن بقاء الحكم العثماني يخدم مصلحة السلطنة الكثيرية لاسيما وإن مساوئ الحكم العثماني لم تمتد إلى مناطقها ، واكتفى العثمانيون كما ذكرنا بالضريبة السنوية التي كان يدفعها السلاطين للولاة العثمانيين .

لهذا كان موقف السلطنة الكثيرية من حركة المقاومة سلبياً ومؤيداً للعثمانيين ، إلا أن هذا التأييد لم يتخذ طابعاً عملياً إلا في حدود ضيقة . فقد كان الكثيريون الذين عملوا على حماية ثغورهم على قوة البحرية العثمانية ينظرون بقلق إلى تطور الأحداث في الساحل الغربي لاسيما في عدن ، من ذلك الحركة التي قادها علي بن سليمان الطولقي [١٧٨] ، الذي تمكن في إثرها من السيطرة على عدن سنة (٩٥٤هـ/١٥٤٧م) ثم اتصاله بالبرتغاليين وطلب مساعدتهم ، ولكن تحرك العثمانيين السريع وضع حداً لهذه الحركة ، وبدد أمل البرتغاليين للسيطرة على عدن .[١٧٩] لهذا لا بد أن يكون من اهتمامات السلطنة الكثيرية متابعة ما يحدث في السواحل الغربية القريبة منها.

وبعد الانتصارات التي حققتها حركة المقاومة اليمنية في عهد الإمام المطهر بن شرف الدين ومحاصرة أحد قواده مدينة عدن ، عمل السلطان بدر على دعم صمود عدن من خلال أمره لتجار الشحر ببيع تمورهم للمحاصرين في عدن حتى يتمكن الجنود العثمانيون من المحافظة عليها . بيد أن العثمانيين الذين انهارت سلطتهم في معظم أرجاء اليمن استولوا على السفن الحضرمية وأخذوا محتوياتها دون مقابل مما أدى إلى انقطاع هذه التموينات .[١٨٠]

أعقب انهيار السيطرة العثمانية الأخير في اليمن إرسالهم حملة كبيرة سنة (٩٧٦هـ/١٥٦٩م) بقيادة سنان باشا الذي تمكن من استعادة معظم مناطق اليمن تحت الحكم العثماني وفي ضمنها عدن [١٨١] حتى عد بعض المؤرخين ذلك بالفتح العثماني الثاني لليمن[١٨٢] وشهدت المنطقة في اثرها حالة من الاستقرار امتدت إلى سنة (١٠١٦هـ/١٦٠٧م) . كما شهدت العلاقات الكثيرية العثمانية تطوراً ملحوظاً بعد حملة سنان باشا لاسيما في عهد السلطان عمر بن بدر الكثيري [١٨٣] فقد قدم العثمانيون الدعم العسكري ضد المناوئين له في حضرموت ومن جانب آخر نجد السلطان عمر يقدم المساعدة للعثمانيين عندما اشتدت حركة المقاومة اليمنية بقيادة الإمام القاسم بن محمد[١٨٤] . ثم شهدت العلاقة الكثيرية العثمانية نوعاً من الضعف ثم التدهور وذلك بعد اشتداد حركة المقاومة اليمنية وإرغامها العثمانيين على الخروج من اليمن .

ومنذ بداية القرن السابع عشر الميلادي أخذ النفوذ البرتغالي طريقه إلى الضعف والانهيار نتيجة المنافسة القوية التي واجهها على يد الهولنديين و الإنجليز و المقاومة العربية[١٨٥]، وقد فشلت محاولات البرتغال في صد منافسة هؤلاء التجار الأوربيين الجدد بحيث لم ينتصف هذا القرن تقريباً إلا وفقدت البرتغال معظم أجزاء إمبراطوريتها الساحلية الواسعة.

وصفوة القول، إن هذه التطورات على الصعيد الدولي ألقت بظلالها على السلطنة الكثيرية. إذ تخلصت تدريجياً من السيطرة العثمانية غير المباشرة ، وما يتبعها من خراج سنوي، كما أن زوال الخطر البرتغالي جعل السواحل العربية الجنوبية تشهد حالة من الهدوء والاستقرار النسبي، لاسيما أن القوى الأوروبية الجديدة التي ظهرت بعد البرتغاليين من هولنديين وإنجليز وفرنسيين اتخذ طابع تحركاتهم الأولية في السواحل العربية الطابع التجاري.

يتضح مما سبق أن الأحداث الأخيرة التي أفرزتها حركة الكشوف الجغرافية ربطت تاريخ السلطنة بالتاريخ اليمني العام و التاريخ الدولي . وقد شعرت السلطنة بخطورة التحركات والتحديات البرتغالية على السواحل العربية لاسيما في عدن ، لهذا حرصت على تقديم المساعدات العسكرية لمدينة عدن حتى تتمكن من درء الأخطار المحدقة بها ، وأدى هذا الموقف المؤازر لعدن إلى أن أصبحت السواحل الحضرمية لاسيما ميناء الشحر هدفاً رئيساً للأعمال العسكرية البرتغالية . وأدى الخلل في موازين القوى التي كانت لصالح البرتغاليين إلى تمكنهم من ضرب التجارة العربية و الإسلامية و العبث في سواحل المحيط الهندي ، ولأن الخطر البرتغالي آنذاك كان يفوق إمكانات السلطنات و الإمارات العربية والإسلامية في مواجهته، فقد تطلع هؤلاء الى طلب المساعدة أولاً من الدولة المملوكية في مصر ثم الدولة العثمانية ، ورغم المحاولات التي قامت بها هذه القوى للقضاء على النفوذ البرتغالي فإنها عجزت في القضاء على هذا الخطر لأنها كانت محاولات ضعيفة ، على أن أهم ما قام به العثمانيون هو تحجيمهم هذا الخطر خاصة في مدينة عدن وموانئ البحر الأحمر، وكان ذلك أهم نتائج محاولاتهم في التصدي للبرتغاليين .

أما السلطنة الكثيرية فقد اعترفت بالتبعية غير المباشرة للدولة العثمانية ، للأسباب التي ذكرناها ولبعد السواحل الحضرمية نسبياً عن المناطق الحيوية في البحر الأحمر فقد اكتفى

العثمانيون في الغالب بإرسال الحملات الاستطلاعية [١٨٦] مما جعل سواحل السلطنة الكثيرية عرضةً أكثر من غيرها للأعمال البحرية البرتغالية ، وربما لشعور السلطان بدر بوطويرق بهذا الموقف العثماني الضعيف و الدفاعي أن اضطر في أغلب الأحيان لاتخاذ الأساليب المهادنة مع البرتغاليين. وإذا كانت السيادة البرتغالية على المحيط الهندي قد ارتبط زوالها بأسباب تتعلق بالتاريخ و التنافس الأوروبي بدرجة رئيسة ، فإن خروج العثمانيين من اليمن كان تحت ضغط المقاومة اليمنية ، وقد أفرز ذلك وقائع تاريخية جديدة تمثلت في فك ارتباط السلطنة الكثيرية بالدولة العثمانية ، وظهور الدولة القاسمية في قسم كبير من اليمن . ثم تطلعها لبسط سيطرتها على المنطقة كلها. فكيف تعاملت السلطنة مع التحديات الداخلية ، و المتغيرات التي أفرزتها مرحلة ما بعد تدهور السيادة البرتغالية في المحيط الهندي وخروج العثمانيين من اليمن؟

الهوامش :

١) شوقي عبد القوي عثمان ، تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية ، من سلسلة كتب شهرية يصدر المجلس الوطني للثقافة و الفنون والآداب عالم المعرفة ، الكويت رقم (١٥١) ، ١٩٩٠ ، ص ٧.

٢) أحمد بوشرب، مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة الغزو البرتغالي لسواحل المغرب و البحر الأحمر و الخليج العربي وما تولد عنه من ردود فعل ، مجلة المناهل ، السنة (١٠) ، العدد(٢٦) ، مارس ١٩٨٣ ، ص٧٧.

٣) جمال زكريا قاسم ، تاريخ الخليج العربي الحديث المعاصر ، الإمارات العربية في عصر التوسع الأوربي ١٥٠٧- ١٨٤٠م ، المجلد الأول ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٩٦م ص ٤٥.

٤) زين الدين المليباري ، تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتكاليين ، المطبعة الوطنية ، لشبونه ، ١٨٩٨م ، ص٣٦.

٥) ج.ج لوريمر ، دليل الخليج ، القسم التاريخي ترجمة مكتب أمير دولة قطر ، ج١ ، ص١١.

٦) فاروق عثمان أباظه، عدن و السياسة البريطانية في البحر الأحمر ، ١٨٣٩- ١٩١٨م ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧ ، ص ٣٣.

٧) جمال زكريا قاسم ، المصدر السابق ، ص٤٦.

٨) عبد العزيز محمد الشناوي ، أوربا في مطالع العصور الحديثة ، ج(١) ، مكتبة الأنجلو مصرية ، ١٩٨٢م ، ص١٢٤- ١٢٥.

٩) محمد عبد العال أحمد ، البحر الأحمر و المحاولات الأولى للسيطرة عليه نصوص جديدة مستخلصه من مشاهدات المؤرخ باخرمه ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، ١٩٨٠م، ص٧٦.

١٠) نفسه والصفحة نفسها .

١١) محمد عبد القادر بامطرف، الشهداء السبعة ، ص ٥٨.

١٢) احمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق ، ص ٢١٦.

١٣) الإفرنج : المقصود بالإفرنج هنا البرتغاليين ذلك ان المصادر العربية اعتادت على إطلاق هذه اللفظة على العناصر الأوربية ، والأروام أو الروم على العثمانيين .

١٤) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق، ص٤٦.

١٥) أبن الديبع ، الفضل المزيد على بغية المستفيد ، ص ١٦٧.

١٦) باخرمة ، قلادة النحر، مخطوط ، و ٢٢٤.

١٧) محمد أبوبكر الشلي، السناء الباهر ، مخطوط ، و ٦٠.

١٨) ابن إياس، محمد بن احمد الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، ج(٤) ، ٩٠٦هـ- ٩٢١هـ/١٥٠١- ١٥١٥م، ط(٢) ، القاهرة، ١٩٦٠م ، ص٨٢.

١٩) سيد مصطفى سالم ، المصدر السابق ، ص ٧٣ ؛ فاروق عثمان أباظه ، المصدر السابق ، ص ٣٣.

٢٠) أبن الديبع ، الفضل المزيد على بغيه المستفيد ، ص ٢٠٣

٢١) سيد مصطفى سالم ، المصدر السابق، ص ص ٧٤- ٧٥.

٢٢) طارق نافع الحمداني، عدن بين مطامع البرتغاليين ومطامح العثمانيين خلال النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي، مجلة دراسات الخليج و الجزيرة العربية ، السنة (١١) العدد(٤٢) أبريل ١٩٨٥ ، ص٦٩.

٢٣) زين الدين المليباري، المصدر السابق ، ص٤٠ ؛ محمد أبو بكر الشلي، السناء الباهر ، مخطوط ، و ٨- ٩ .

٢٤) مايلز ، المصدر السابق، ص١٤٧ ؛

L.O.Schuman ,Political History Of The Yemen at The Beginning 16^{th} Century ABU MAKHRAM,S Account of the year (٩٠٦-٩٢٧\١٥٠٠-١٥٢١) with ANNOTATIONS /P٥٦ .

٢٥) ابن إياس ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ص ٨٤- ٨٥.

٢٦) محمد عبد اللطيف البحراوي ، فتح العثمانيين عدن وانتقال التوازي الدولي من البر إلى البحر ، مكتبة دار التراث ، القاهرة، ص ص٤٥- ٤٦ ؛ محمد عبد العال أحمد ، البحر الأحمر و المحاولات الأولى للسيطرة عليه ، ص ٤٩٥.

٢٧) بامخرمة ، قلادة النحر ، مخطوط ، و ٢٢٥ ؛ L.O.Schuman , op.cit, P٦١ ؛ الكبسي ، المصدر السابق ، ص١٣١ ؛ أحمد فضل العبدلي، المصدر السابق ، ص ٩١.

٢٨) عيسى بن لطف الله ، روح الروح، مخطوط، و ٢٣ ؛ زين الدين المليباري، المصدر السابق ، ص٤٠.

٢٩) أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق، ص٢٣٥ ؛ قطب الدين النهروالي، البرق اليماني في الفتح العثماني ، ط(٢) ، دار التنوير للطباعة و النشر ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ص١٨.

٣٠) سيد مصطفى سالم ، المصدر السابق، ص ص٧٩- ٨٠.

٣١) نوال حمزة الصيرفي ، النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ، مطابع دار الهلال للأوفست ، الرياض ، ١٩٨٣م، ص١١٧ ؛ محمد عبد اللطيف البحراوي ، المصدر السابق ، ص٧٧ ؛ أحمد بوشرب، المصدر السابق، ص٦٣.

٣٢) محمد عبد العال احمد ، البحر الأحمر و المحاولات الأولى للسيطرة عليه، ص٥٠٤.

٣٣) محمد عمر بافقيه، المصدر السابق،ص٢٠٢- ٢٠٣ وذكر انها ١٨ سفينة ؛ ابن الديبع، الفضل المزيد في بغيه المستفيد، ص٢٦١.

٣٤) أحمد عبد الله شنبل ، المصدر السابق، ص ٢٥٥ ؛ زين الدين المليباري ، المصدر السابق، ص٤٣ ؛ إف.إل. بلاي فير، المصدر السابق، ص٩٧ ؛ عيسى بن لطف الله، روح الروح، مخطوط، و ٣١.

٣٥) احمد صالح رابضه، ، معالم عدن التاريخية ، ط(١)، دارالفكر المعاصر ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ص٣٤؛ عبد العزيز محمد عوض ، الاحتلال البرتغالي لموانئ الجزيرة العربية ، مجلة المؤرخ العربي، العدد(٢٩)، السنة(١٢) ١٩٨٦ ، ص١٨ ، ؛ صالح الحامد، المصدر السابق، ص٥٧٦.

٣٦) ابن الديبع، الفضل المزيد على بغيه المستفيد ، ص١٣.

٣٧) ابن إياس ، ج(٤) ، ص ص ٤٦٦- ٤٦٧.

٣٨) بامخرمة ، قلادة النحر، مخطوط ، و ٢٢٨ ؛ قطب الدين النهروالي ، المصدر السابق ، ص٢٠.

٣٩) محمد أبو بكر الشلي ، السناء الباهر ، مخطوط ، و ٢١٣ .

٤٠) عيسى بن لطف الله ، روح الروح، مخطوط، و ٤١.

٤١) محمد عبد اللطيف البحراوي ، المصدر السابق، ص٤٩.

٤٢) إف . إل. بلاي فير، تاريخ العربية السعيدة أو اليمن ، ترجمة سعيد عبدالخير النوبان وعلي محمد باحشوان ، ط(١) ، دار جامعة عدن للطباعة والنشر ، عدن ١٩٩٩م . ص٩٨ ؛ محمد عبد القادر بامطرف ، الشهداء السبعة ، ص ٦٩ ؛ عبد الوهاب القيسي، موقف العثمانيين من الغزو البرتغالي للمياه العربية ، مجلة الخليج العربي، المجلد(١٢) ، جامعة البصره ، ١٩٨٠ ، ص٤٨.

٤٢) عيسى بن لطف الله ، روح الروح ، مخطوط ، و ٣٥. و النص الكامل لرسالة الإمام في المصدر نفسه ص ص٣٦- ٣٩

٤٤) ابن الديبع ، الفضل المزيد على بغيه المستفيد ، ص٢٨٨ ؛ محمد أبوبكر الشلي ، مخطوط ، و ٢١١.

٤٥) محمد عبد اللطيف البحراوي ، المصدر السابق ، ص ٥١.

٤٦) محمد عبد القادر بامطرف ، الشهداء السبعة ، ص ٦٩.

٤٧) محمد عبد القادر بامطرف ، المصدر السابق ، ص ٧٠.

٤٨) نفسه والصفحة نفسها .

٤٩) إف . إل. بلاي فير، المصدر السابق، ص٩٨ ؛ حمزة علي لقمان ، معارك حاسمة من تاريخ اليمن ، ص ١١٨.

٥٠) L.O.Shcuman , OP.cit.P٨٧

٥١) باخرمه، قلادة النحر ، مخطوط ، و ٢٣٢ ؛ محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق، ص١٣٣.

٥٢) فاروق عثمان أباظه، المصدر السابق، ص٤٦ ؛ طارق الحمداني ، المصدر السابق، ص١٧٢ ؛ سيد مصطفى سالم ، المصدر السابق، ص١٢٠ ؛ صالح رمضان محمد ، الصراع البرتغالي في اليمن ١٥١٧- ١٥٣٨م ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد (٤٧) –السنة (١٢) يوليو ١٩٨٦ ، ص١٣٩.

٥٣) جاد طه، سياسة بريطانيا في جنوب الجزيرة العربية ١٧٩٨- ١٩٦٣م ط (٢)، دار الفكر العربي، ص٢٢ ؛ حمزة علي لقمان ، معارك حاسمة ، ص١١٨.

٥٤) محمد عبد القادر بامطرف، الشهداء السبعة ، ص٧١.

٥٥) إف. إل. بلاي فير، المصدر السابق، ص٩٨.

٥٦) محمد عبد القادر بامطرف، الشهداء السبعة ، ص٧١.

٥٧) محمد عبد القادر بامطرف ، الشهداء السبعة ، ص٧٥.

٥٨) اريك ماكرو، المصدر السابق ، ص٢١ ؛ L.O.Shcuman , OP.cit.P٨٧

٥٩) محمد عبد القادر بامطرف ، الشهداء السبعة، ص ٨٣.

٦٠) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق، ص١٥٧ ؛ محمد بن هاشم ،المصدر السابق ، ص٤١.

٦١) محمد عبد القادر بامطرف ، الشهداء السبعة، ص ٨٣.

٦٢) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق، ص١٥٧ ؛ سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص ١٦٥ ؛ صالح رمضان ، المصدر السابق، ص ص ١٤٩- ١٥٠.

٦٣) Serjeant , op.cit.P١٧١.

٦٤) محمد عبد القادر بامطرف ، المختصر في تاريخ حضرموت العام ، ص ٢٤.

٦٥) محمد عبد القادر بامطرف ، الشهداء السبعة، ص ٨٨.

٦٦) المصدر نفسه .

٦٧) Serjeant , op.cit.P١٧١

٦٨) Ibid

٦٩) محمد عبد القادر بامطرف ، الشهداء السبعة ، ص ٨٩.

٧٠) مقادمة الحارات : أي الرؤساء الشعبيين لأحياء المدينة.

٧١) محمد عبد القادر بامطرف ، الشهداء السبعة ، ص ص ٩٠ –٩١.

٧٢) يبدو أن المؤرخ محمد بن هاشم لم يكن دقيقاً عندما أشار إلى أن سكان الشحر فوجئوا بالهجوم البرتغالي وأن أهل البلد لم يشعروا عند فجر الجمعة إلا بالضوضاء ينظر: تاريخ الدولة الكثيرية ،ص٤١.

٧٣) عبد القادر شيخ العيدروس، المصدر السابق ، ص١٣٦ ؛ Serjeant , op.cit.P١٧١

٧٤) سعيد عوض باوزير ، صفحات من التاريخ الحضرمي ، ص١٢٤ ؛ محمد بن هاشم ، المصدر السابق، ص٤١.

٧٥) عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف ، بضائع التابوت، مخطوط ، و ٤١٣.

٧٦) هدّت : أي عاركت بقوة.

٧٧) البردجيز: يقصد البرتغاليين .

٧٨) الغرام : يقصد هنا الجنون ، واستخدمت اللفظة للمدح ، أي ان الجميع عاركوا بشجاعة دون ان يبالوا بقوة العدو.

٧٩) محمد عبد القادر بامطرف ، الشهداء السبعة ، ص١٠١.

٨٠) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص ١٥٧.

٨١) Serjeant , op.cit.P٥٢

٨٢) محمد عبد القادر بامطرف ، الشهداء السبعة ، ص ص١٠١- ١٠٢.

٨٣) دفن ستة من هؤلاء الشهداء في قبر واحد ، اما الشيخ أحمد بن عبد الله بافضل فقد دفن في قبة والده . وقد عمل اهل الشحر على تخليد هذه الحادثة بأن حددوا يوم الخامس من شهر ذي الحجة من كل عام موعداً لزيارة هؤلاء الشهداء . ينظر: محمد أبوبكر الشلي، السناء الباهر، مخطوط، و٢٦١ ؛ عبد القادر بن شيخ العيدروس، المصدر السابق ، ص١٣٦.

٨٤) صالح رمضان ، المصدر السابق ، ص١٤٠.

٨٥) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص ١٥٧ ؛ سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص١٦٥.

٨٦) أحمد صالح رابضه ، المصدر السابق، ص٨٤ ؛ Serjeant , op.cit.P٢٧

٨٧) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص ١٨٦ ؛ Serjeant , op.cit.P٤٥

٨٨) سعيد عوض باوزير ، صفحات من التاريخ الحضرمي، ص ١٢٣ ؛ محمد بن هاشم ، المصدر السابق ، ص٤٢.

٨٩) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص ١٨٩.

٩٠) الغراب: نوع من السفن التي تستخدم للأعمال الحربية و انتشر استخدامها منذ القرن السادس عشر الميلادي.

٩١) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص ١٩٤.

٩٢) من القرى المهرية الساحلية المجاورة لقرية قشن .

٩٣) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص ١٨٩ ؛ سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص١٦٧.

٩٤) جلبة : نوع من السفن التجارية .

٩٥) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق، ص١٩٦.

٩٦) المصدر السابق ، ص١٩٦.

٩٧) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص٢٠٥.

٩٨) المصدر نفسه ، ص٢٠٧.

٩٩) محمد عبد القادر بامطرف ، الشهداء السبعة ، ص١١٤.

١٠٠) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص ٢٣٠.

١٠١) سيد مصطفى سالم ، المصدر السابق ، ص ص١٢٦- ١٢٧.

١٠٢) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص ٢٣٠.

١٠٣) محمد عبد القادر بامطرف ، الشهداء السبعة ، ص١١٥.

١٠٤) وين : أين .

١٠٥) الحربيه : المحاربون .

١٠٦) ضعف : ضعفاء .

١٠٧) الغلق و اللانه : مفتاح الباب.

١٠٨) ذهنك : حذار .

١٠٩) هام في صوانه : أي حية في مكان آمن .

١١٠) سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص١٨٠ ؛ علوي بن طاهر الحداد، الشامل في تاريخ حضرموت ، ص٢٠٥ ؛ سعيد عوض باوزير ، صفحات من التاريخ الحضرمي ، ص١٢٥.

١١١) تم تناول موقف السلطان بدر السياسي في الفصل الثاني من هذه الدراسة .

١١٢) محمد عبد القادر بامطرف، الشهداء السبعة ، ص١١٩.

١١٣) محمد أبوبكر الشلي، السناء الباهر، مخطوط ، و ٤٠٤.

١١٤) محمد عبد القادر بامطرف، الشهداء السبعة ، ص١١٩ ؛ وحدد بافقيه عدد القتلى بأربعين ينظر : تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر ، ص٢٣٣ ؛ أما باحسن فقد حدد القتلى بثلاثين ينظر: النفحات المسكية ، مخطوط، و١١٨.

١١٥) عبد الله محمد باحسن ، النفحات المسكية ، مخطوط ، و ١١٨ ؛ محمد بن هاشم ، المصدر السابق، ص ٤٢.

١١٦) عبد الرحمن بن عبد الله السقاف ، بضائع التابوت ، مخطوط ، و٤١٣.

١١٧) عبد القادر شيخ العيدورس، المصدر السابق ، ص٢٠٨ ؛ محمد أبوبكر الشلي، المشرع الروي، ص١٩٢ ؛ محمد بن هاشم، المصدر السابق ، ص٤٣ ؛ سعيد عوض باوزير ، صفحات من التاريخ الحضرمي ، ص١٢٦.

١١٨) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق، ص ٢٣٥.

١١٩) تناول بعض الفقهاء في حضرموت شرعية مقتل البرتغاليين بتلك الطريقة وهم بحكم أمان السلطنة ، فبعد أن استعرض بالمخرمة الحيثيات ألمح إلى مبرر القتل ولم يصرح بشرعيته فمما جاء في فتواه : (... ولكن هذه الحالة في صورة الإفرنج الذين يدخلون بلاد المسلمين للتجارة ويقدرهم المسلمين على صفة المصالحة لهم خوفاً منهم من غير التزام شروط الهدنة ، والظاهر أننا لا نقدر على قهرهم لنسلم من شرهم إذا ظهرت خيانتهم إلا بقتال ، فإن أمكن بدون قتال وبين قتالهم قبل نبذ العهد أو أن يتركوا يبدءوا بالشر لا أدري ماذا أقول فيه) ينظر: عبد الرحمن عبد الله السقاف، بضائع التابوت ، مخطوط ، و ٤١٣- ٤١٤.

١٢٠) عبد الله محمد باحسن، النفحات المسكية ، مخطوط ، و ١١٩ ؛ محمد علي باحنان ، المصدر السابق ، ص١٩٣ ؛ سعيد عوض باوزير ، صفحات من التاريخ الحضرمي، ص١٢٦.

١٢١) محمد عمر بافقيه ، المرجع ال سابق، ص ص ٢٤٧- ٢٤٨ ؛ Serjeant , op.cit.P٨٣

١٢٢) عبد الصمد بن اسماعيل الموزعي، الإحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل آل عثمان ، تحقيق عبد الله الحبشي، منشورات وزارة الأوقاف (٤) ، الجمهورية العربية اليمنية ، صنعاء ، ص٢٢.

١٢٣) سيد مصطفى سالم ، المصدر السابق، ص١١٤.

١٢٤) جمال زكريا قاسم ، تاريخ الخليج العربي عصر السيطرة الأوربية ، ص٧٧ .

١٢٥) ابن إياس، بدائع الزهور ، ج(٤) ، ص١٩٥ ؛ قطب الدين النهروالي ، المصدر السابق ، ص٤٩ وما بعدها .

١٢٦) حسين عبد الله العمري، تاريخ اليمن الحديث و المعاصر (٩٢٢- ١٣٣٦هـ/١٥١٦- ١٩١٨م) من المتوكل اسماعيل إلى المتوكل يحي حميد الدين ، دارالفكر ، دمشق ، ١٩٩٧، ص ص١٢- ١٣.

١٢٧) فاروق عثمان أباظة، الحكم العثماني في اليمن ١٨٧٢- ١٩١٨ ، ط (٢) ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص٦.

١٢٨) المصدر السابق، ص١٧.

١٢٩) محمد بن هاشم ، المصدر السابق ، ص٤٣ ؛ عبد الوهاب القيسي، المصدر السابق، ص٤٥.

١٣٠) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص٢٣٥ ؛ عبد القادر شيخ العيدروس ، المصدر السابق ، ص ١٨٨ .

١٣١) سعيد عوض باوزير ، صفحات من التاريخ الحضرمي ، ص١٢٦.

١٣٢) طارق نافع الحمداني، المصدر السابق ، ص١٧٣.

١٣٣) سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص١٨٤ ؛ محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق، ص٢٤٤.

١٣٤) من العلماء و الشخصيات الحضرمية المؤثرة في عصرها، لقب بالشافعي الصغير ، شغل منصب (السكرتير) للسلطنة الكثيرية في عهد بوطويرق.

١٣٥) عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف ، بضائع التابوت ، مخطوط ، و ٤١٦.

١٣٦) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق، ص٢٤٥.

١٣٧) عبد الله محمد باحسن ، النفحات المسكية ، مخطوط، و ١١٩.

١٣٨) نفسه والصفحة نفسها .

١٣٩) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق، ص٢٤٦ ؛ عبد الله محمد باحسن ، النفحات المسكية ، مخطوط ، و ١٢٠.

١٤٠) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق، ص٢٤٧.

١٤١) المصدر نفسه ، ص٢٤٥.

١٤٢) قطب الدين النهروالي ، المصدر السابق ، ص٧٨ ؛ عبد الله محمد باحسن ، النفحات المسكية ، مخطوط ، و١٢٠.

١٤٣) يحي بن الحسين ابن القاسم ، غاية الاماني في أخبار القطر اليماني ، تحقيق سعيد مفتاح عاشور ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٨م ص٧٨ ؛ L.O.Schuman , op.cit, P٨٧

١٤٤) عيسى بن لطف الله ، روح الروح ، مخطوط ، و١٣٣ ؛ سيد مصطفى سالم ، المصدر السابق ، ص١٦٠.

١٤٥) قطب الدين النهروالي ، المصدر السابق ، ص٨٠ ؛ زين الدين المليباري ، المصدر السابق ، ص٦١ ؛ إف.إل. بلاي فير، المصدر السابق، ص١٠٠.

١٤٦) محمد اسماعيل الكبسي، المصدر السابق، ص ١٦٨ ؛ وعلق على هذه التهمة بقوله " ولا صحة لذلك " .

١٤٧) Serjeant , op.cit.P٢٩

١٤٨) محمد عبد اللطيف البحراوي ، المصدر السابق ، ص١٥٧ ؛ جمال زكريا قاسم ، المصدر السابق ، ص٧٨.

١٤٩) قطب الدين النهروالي ، المصدر السابق ، ص٨٠.

١٥٠) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق، ص٢٥٤ ؛ عبد الله محمد باحسن ، النفحات المسكية ، مخطوط، و ١٢٠.؛ محمد علي باحنان ، المصدر السابق، ص١٩٣.

١٥١) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق، ص٢٥٦

١٥٢) تناولت الكثير من المراجع الحديثة هذه الأحداث ، ونعتقد أن من أهم المصادر التي تناولت أخبار هذه الحملة هي المصادر الحضرمية التي اعتمدت على روايات بحارة شاركوا في هذه الحملة . للمزيد ينظر : محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص ص ٢٦٠- ٢٦٥.

١٥٣) محمد عيسى صالحية ، التدخل العثماني في اليمن ، مجلة دراسات الخليج الجزيرة العربية السنة(٦) العدد (٢٤) أكتوبر ١٩٨٠ ، ص٩٩ ؛ محمد عبد اللطيف البحراوي ، المصدر السابق ، ص ١٥٥.

١٥٤) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق، ص٢٥٧ ؛ أما المليباري ذكر أن الله ألقى هيبة الإفرنج في قلب سليمان فرجع من غير فتح إلى مصر : ينظر تحفة المجاهدين ، ص٦١.

١٥٥) عبد الله محمد باحسن ، النفحات المسكية ، مخطوط، و ١٢٠.

١٥٦) محمد بن هاشم المصدر السابق ، ٤٥.

١٥٧) حسن صالح شهاب ، عدن فرضة اليمن ، ص٢٠٦ ؛ سعيد باوزير ، صفحات من التاريخ الحضرمي،ص ١٢٨ ؛ Serjeant , op.cit.P٢٨

١٥٨) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق، ص٢٥٧.

١٥٩) عبد الله محمد باحسن ، النفحات المسكية ، مخطوط ، و ١٢٠ ؛ محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص٢٥٦ ؛ Serjeant , op.cit.P٢٩

١٦٠) شاؤوشان : مثنى شاؤيش وهي رتبة عسكرية في الجيش العثماني ، وكانوا في القرون الأولى من تاريخ الدولة العثمانية ينقلون أوامر السلطان إلى حكام الولايات وقوادها .

١٦١) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق، ص٢٥٩ ؛ Serjeant , op.cit.P٩٦

١٦٢) أحمد محمد الشاطري ، المصدر السابق، ج٢ ، ص٢٣٧.

١٦٣) تناولنا في الفصل الثاني من هذه الدراسة جوانب من العلاقات الكثيرية العمودية .

١٦٤) عبد الصمد باكثير ، ٩٥٥- ١٠٢٥ هـ/١٥٤٨- ١٦١٦ م من كبار الشعراء الحضارم في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي ، يعتبر شاعر السلطان عمر بن بدر الكثيري وصف في شعره حياته ومعاركه ، له ديوان شعر مخطوط.

١٦٥)عبد القادر محمد الصبان ، عبدالصمد باكثير شاعر حضرموت في القرن العاشر الهجري، مطبوع بالآلة الكاتبة، إصدار فرع المركز اليمني للأبحاث الثقافية و الآثار م/ الخامسة ، المكلا ، ١٩٧٩، ص ص ٧٠- ٧١.

١٦٦) يذكر السقاف أن هناك أصواتاً بدأت تنتقد سياسة السلطان بدر وذلك عند الشخصية الصوفية الحضرمية الشيخ أبي بكر بن سالم، فرفض هذا الشيخ هذه الانتقادات واعتبر أن السلطان جنب حضرموت من احتلالهم. ينظر: بضائع التابوت، مخطوط ، و ٤٠٣.

١٦٧) سيد مصطفى سالم ، المصدر السابق ، ص ٩٩ .

١٦٨) محمد عيسى صالحية، المصدر السابق ، ص ص ١٠١- ١٠٢.

١٦٩) ك. خ. براور ، مقتطفات من الوثائق الهولندية المتعلقة بالتاريخ الاقتصادي لجنوب الجزيرة العربية .، ص٣.

١٧٠) تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر ، ص٢٩٢.

١٧١) زين الدين المليباري ، المصدر السابق ،ص٦٨.

١٧٢) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق، ص٢٧٨.

١٧٣) عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف ، بضائع التابوت ، مخطوط، و ٤١٨.

١٧٤) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق، ص٣٠٥؛ سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص ١٩٦.

١٧٥) عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف ، بضائع التابوت ، مخطوط، و ٤٠٧ ؛ محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق، ص٣٢٥.

١٧٦) محمد عبد اللطيف البحراوي ، المصدر السابق، ص ٣٥ .

١٧٧) للمزيد من المعلومات عن حركة المقاومة اليمنية ينظر: سيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني لليمن .

١٧٨) علي سليمان الطولقي: شيخ قبيلة الطوالق شرقي أبين ، كانت هذه القبيلة تتحصل على الرواتب و الهبات التي يقدمها لها حكام اليمن جراء حمايتهم لطريق القوافل التجاري الداخلي . وعندما احتل العثمانيون عدن اعتمدوا على جهودهم الذاتية في حماية طرق القوافل الممتدة من عدن إلى داخل اليمن ، لهذا فقدت هذه القبيلة مصدر من مصادر دخلها وحاولوا تعويضه من خلال السيطرة على عدن ، ينظر : سيد مصطفى سالم ، المصدر السابق ، ص١٩٥.

١٧٩) نوال حمزة الصيرفي ، المصدر السابق ، ص١٦٤ ؛ حسن صالح شهاب ، عدن فرضة اليمن ،ص٢٠٧ ؛ صلاح البكري ، تاريخ حضرموت السياسي ، ج١ ،ص٩٩.

١٨٠) قطب الدين النهروالي ، المصدر السابق ، ص ص ١٩٠- ١٩١.

١٨١) محمد عبد اللطيف البحراوي ، المصدر السابق، ص ١٧٣.

١٨٢) قطب الدين النهروالي ، المصدر السابق، ص ٢٠٩.

١٨٣) سنشير إلى دور هذا السلطان السياسي في السلطنة في الفصل الرابع .

١٨٤) الإمام القاسم بن محمد : تنسب له الدولة القاسمية التي أسسها ابنه بعد خروج العثمانيين من اليمن. دعا القاسم لنفسه بالإمامة سنة ١٠٠٦هـ وتزعم لحركة المقاومة حتى وفاته ١٠٢٩هـ

١٨٥) صالح محمد العابد ، تحرير ساحل عمان وانهيار الإمبراطورية البرتغالية في الشرق، مجلة آفاق عربية ، السنة(١٠) العدد(٣) آذار ١٩٨٥م ، ص٤٠ ؛ نوال الصيرفي ، المصدر السابق ، ص١٨٨.

١٨٦) شاهد التاجر الهولندي سنة ١٦١٤م فرقاطتين (عثمانيتان) ترسوان أمام ساحل مدينة الشحر وهما في حالة استعداد لدرء الأخطار . وهذا يعني أن المحاولات العثمانية لصد البرتغاليين عن السواحل العربية امتدت إلى ما قبل خروجهم من اليمن بفترة قصيرة . ينظر: ل.خ. براور، مقتطفات من الوثائق الهولندية ، رقم (١) –(٣) ٢٩سبتمبر ١٦١٤م ، ص٥٩.

الفصل الرابع

ضعف السلطنة الكثيرية وانهيارها

أولاً : خلفاء السلطان بوطويرق ومحاولات تثبيت السلطنة وتوطيدها:

تعد فترة حكم السلطان بدر بوطويرق من أطول الفترات التي مكث فيها السلاطين الكثيريون في سدة الحكم ، وجاء هذا الامتداد لكونه تولى الحكم وهو شاب صغير كما أشرنا. وخلال هذه الفترة الحافلة بالأحداث و التحديات انتهت حياة السلطان بوطويرق السياسية في داخل مقر حكمه ومن أقرب الناس إليه. ففي ٢٣ ربيع الأول سنة (٩٧٦هـ / ١٥٦٨م) هجم الأمير عبد الله(٩٧٦- ٩٨٤هـ/١٥٦٨- ١٥٧٦) مع بعض أتباعه على والده و هو في حصن سيئون و ألقى القبض عليه و سجنه في حصن مريمة ، وهو المكان الذي كان السلطان بدر بوطويرق قد جعله سجناً للأمراء الكثيريين الخارجين عليه [١]. و قد مكث السلطان مسجوناً لأكثر من سنة ثم أعيد إلى سيئون حيث توفي فيها سنة (٩٧٧هـ/١٥٦٩م)[٢].

لقد شكل هذا العزل بهذه الطريقة سابقة فريدة في تاريخ السلطنة الكثيرية ، وجرأة ليس لها مثيل في التاريخ الحضرمي [٣]. و ربما يبرز هنا السؤال الآتي : لماذا انقلب (الأمير) عبد الله على والده ؟ وقد كان ولياً للعهد وفي وقت جاوز والده السبعين عاماً ؟ و قبل محاولة الإجابة عن هذا التساؤل نرى من المفيد استعراض تعليقات المصادر المعاصرة لهذه الحادثة فقد ذكر بافقيه [٤] الذي لا يحبذ كثيراً سياسة السلطان بدر : ((إن الأمير عبد الله استعجل في القبض على والده)) .

أما العيدروس[٥] فقد أعطى عند تناوله لهذه الحادثة صوغاً دينياً (صوفياً) و بأثر رجعي، فجاء في روايته أن رجلاً من الصالحين رأى رؤيا في المنام حاصلها أنه رأى أربعة من الصالحين كل منهم قد مسك ركناً ، وقالوا نريد أن نولي عبد الله فلم تمض بعد ذلك مدة يسيرة إلا وهجم الأمير عبد الله على أبيه واستولى على الحكم وذلك دليل : ((على أن لا يقوم سلطان في هذا العالم عالم الشهادة إلا بعد تنصيبه أولياء الله بإذن الله في عالم الغيب)).

إذا كانت هذه الرواية تظهر مدى سيادة الشطحات الصوفية التي زخرت بها كتب تراجم الأعيان الحضرمية ، فإنَّ أهم ما تبرزه هو مدى استهجان الرأي العام لخروج الابن على والده ، لهذا استلزم الأمر هذا التبرير الديني الذي صور الحادثة و كأنها إرادة الله . و لاشك في أن السلطان عبد الله سعى و حرص على تحسين صورته أمام رعاياه ، ويبدو أن الغالبية كانت تريد التغيير و لكن ليس بالطريقة التي قام بها الأمير عبد الله .

وعلى أيّة حال فإن أول المخاطر التي واجهها السلطان عبد الله جاءت من قبل أخويه الأمير عمر و جعفر اللذين رفضا تنحية والدهما بتلك الطريقة [٦] ، و فتح ذلك صفحة جديدة من صفحات الصراع الأسري الكثيري بعد حوالي ربع قرن من نهايته . و بالنسبة للأمير عمر الذي لم تتخذ معارضته شكل عمل عسكري محدد ، فقد ألقي القبض عليه و سجن في حصن مريمة و ظل مسجوناً فيه حتى نودي به سلطاناً على حضرموت[٧] كما سوف نشير.

أما الأمير جعفر الذي كان حاكماً لمدينة الشحر و أعمالها نيابة عن أبيه فكان موقعه يساعده على إعلان العصيان ، و طلب الولاية لنفسه. و لعل ذلك يساعدنا على الإجابة على تساؤلنا حول أسباب انقلاب السلطان عبد الله على أبيه ، وإذا كانت المصادر المعاصرة لم تتبع خلفيات ذلك الانقلاب السياسي ، فأغلب الظن أن السلطان عبد الله رأى في قوة مركز أخيه في ساحل حضرموت و اعتماد أبيه عليه ما يهدد وضعه ولياً للعهد لهذا أراد أن يستبق الأحداث.

في حين يرى بعض المؤرخين المحدثين أن أسباب الانقلاب تعود إلى سلبية السلطان بدر أمام موقف سكان بلدة هينن من الحكم الكثيري وقطع علاقتهم بالعاصمة الكثيرية في سيئون ، وإعلانهم الاستقلال بأمورهم[٨] . و أورد باحنان[٩] سبباً أخراً وهو أن هذا العزل جاء بعد أن جدد السلطان بدر اعتراف السلطنة بالسيادة العثمانية عندما استعادوا سيطرتهم على معظم أرجاء اليمن و قضاءهم على حركة المقاومة .

وكيفما كان الأمر فقد كان أول الأعمال القتالية الضرورية للسلطان (الجديد) هي القضاء على تمرد أخيه و إعادة مدينة الشحر إلى حضيرة السلطنة ، لهذا قدم على رأس حملة عسكرية متجهة إلى الشحر تمكن خلالها من محاصرة مدينة الشحر و إجبار أخيه على مغادرتها إلى بلدة حيريج المهرية[١٠].

أنعش هذا الخلاف الأسري الكثيري أعداءهم التقليديين و هم قبائل المهرة وحاولوا الاستفادة منه ، لاسيما أن الأمير جعفر الكثيري اتصل بزعمائهم في قشن . ومما ساعد على تجدد التحركات المهرية الفراغ السياسي الذي أحدثه خروج الأمير جعفر من الشحر و اتخاذ السلطان عبد الله مدينة سيئون مقراً ثابتاً لحكمه لهذا تقدم المهريون في جمادى الآخرة سنة(٩٧٧ هـ / ١٥٦٩م) بحملة صغيرة باتجاه مدينة الشحر و بقيادة زعيمهم عمر بن طوعري

و الأمير جعفر الكثيري في عملية يمكن أن نسميها استطلاعية ،أما بافقيه [11]فقد ذكر أنه لم يعلم سبب سيرهم وقد دخلت بعض القوات المهرية الشحر و لم تحدث إلا اشتباكات خفيفة.

لقد أقلقت هذه التحركات المهرية الجديدة السلطان عبد الله ، و فتحت نافذة لتجدد ذلك الصراع الطويل بين الجانبين على مناطق السواحل الحضرمية ، و قد احتل هذا الصراع أهمية خاصة كون الأمير جعفر الكثيري ضمن الجبهة المهرية المعادية للسلطنة. و رداً على الهجوم المهري الأخير على الشحر تقدم السلطان عبد الله في السنة نفسها على رأس حملة لمهاجمة المهرة في عقر دارهم و جرت معركة بالقرب من بلدة حيريج المهرية انهزمت فيها قوات السلطنة لأن المهرة هم الذين حددوا مكان المعركة ، وقد شجعهم هذا النصر على مهاجمة مدينة الشحر و الاستيلاء على عدد من السفن الراسية فيها[12] .

ومرة أخرى حاول السلطان عبد الله الرد على الهجمات المهرية وتعويض خسارته و بدأ يجهز قواته لشن هجوم جديد عليهم ، وفي هذه الأثناء جرت مفاوضات في ذي القعدة سنة (٩٧٨ هـ / ١٥٧٠م) و اتفق الطرفان على عقد صلح بينهما مدته ستتان [13]و يبدو أن السلطان عبد الله كان في حاجة لهذا الصلح ليعيد ترتيب الأمور في السلطنة ، وليحبط محاولات أخيه جعفر الطموحة في تحقيق مكاسب سياسية على حساب تجدد هذا الصراع .

وقد أعقب ذلك فترة هدوء استمرت خمس سنوات تقريباً . و لا ندري على وجه الدقة أسباب تجدد الصراع بعد ذلك ، ففي بداية شهر المحرم (٩٨٣ هـ / ١٥٧٥م) وجه السلطان عبد الله حملة عسكرية كبيرة هدفها السيطرة على بلدة قشن معقل المهرة ، ويبدو أن المهريين كانوا يتوقعون هذه الحملة لهذا استعدوا لها و اعترضوا لها في حيريج و تمكنوا من هزيمتها [14]. ولم تفت هذه الهزيمة من عضد السلطان عبد الله ، فقد حاول الانتقام بإرسال حملة برية بقيادة ابنه جعفر وعندما وصلت الحملة بالقرب من الأراضي المهرية عقد بين الطرفين صلح (كفاية) أي عدم اعتداء [15].

وهكذا عادت مرة أخرى العلاقات الكثيرية المهرية إلى نقطة البداية ، أو بالأحرى إلى ما انتهت إليه في أثناء حكم السلطان بدر بوطويرق . و إذا كان المهريون فشلوا خلال هذا الصراع الطويل في تحقيق مكاسب ميدانية على حساب السلطنة الكثيرية فإنهم استطاعوا صد أخطر الهجمات الكثيرية في مناطقهم لاسيما في عهد السلطان بوطويرق . وما يميز الحروب التي خاضها

و حروب السلطان عبدالله أن الأخير دفعه إليها تحديات المهرة و تحالف أخيه الأمير جعفر معهم، بمعنى آخر كانت حروب السلطان بوطويرق على المهرة هجومية وحرب السلطان عبد الله دفاعية.

على أن أهم إنجازات السلطان عبد الله العسكرية تتمثل في توطيده حكم السلطنة الكثيرية في داخل حضرموت ، فقد شهدت أخريات أيام والده بدايات تململ بعض المناطق وخروجها عن السيطرة الكثيرية مثل هينن ، و مناطق وادي عمد ، وحورة و بعض مناطق وادي دوعن [١٦] لهذا أرسل الكثير من الحملات العسكرية وخاض عدداً من المعارك ، أعاد في إثرها هذه المناطق إلى حضيرة السلطنة وقد ساعده في تحقيق هذه الانتصارات اتخاذه مدينة سيئون مركزا ثابتا لحكمه فجعله ذلك قريباً من الأحداث و متابعاً لها [١٧].

وهكذا نلحظ و سنلحظ أن أهم المشاكل التي واجهها خلفاء السلطان بوطويرق هي كيفية المحافظة على تماسك أراضي السلطنة ووحدتها في ظل وجود قوى قبلية متعددة ومتنافسة ، وصراع أسري كثيري مزمن أخذ بخناق السلاطين الكثيريين و فرق شملهم وشتت جهدهم ويبدو أن هؤلاء السلاطين ما كان بوسعهم تجاوز أعمال السلطان بوطويرق لأسباب منها ما يتعلق بشخصيته وأسلوبه في الحكم ، ومنها ما يتعلق بالسلطنة الكثيرية التي بلغت حداً بالغاً من الاتساع بحيث لا تسمح إمكاناتها بتجاوزه . و لهذا يمكن القول إن المحافظة على ما تم تحقيقه من أهداف سياسية وعسكرية يكون أصعب أحياناً من الخطوات التي أدت إلى تحقيق تلك الأهداف .

فبعد وفاة السلطان عبد الله خلفه ابنه جعفر (٩٨٥- ٩٩٠ هـ / ١٥٧٧- ١٥٨٢ م)[١٨] الذي لم يكن كأبيه من حيث حسن التصرف و الحزم ، فقد دخل في صراع غير مبرر مع قبيلة نهد واتخذ إجراءات قاسية تجاههم ، منها منعه وارداتهم من الدخول في أسواق البلدات القريبة من مناطقهم لاسيما (هينن) و (المهجرين) و هذا الإجراء يعني قطعه مصدر من مصادر رزقهم ، وقد لقي السلطان جعفر حتفه جراء هذه السياسة إذ اغتاله أفراد من قبيلة الظلفان النهدية سنة ٩٩٠ هـ / ١٥٨٢ م[١٩].

ومن أشهر أبناء السلطان بدر بوطويرق ابنه عمر [٢٠] (٩٩٦ – ١٠٢١ هـ / ١٥٨٧- ١٦١٢م) الذي كان مسجوناً منذ عهد أخيه السلطان عبد الله ثم ابنه جعفر ثم حفيده عبدالله الذي خلع من الحكم[٢١] . و لم تشر المصادر إلى كيفية خروجه من السجن و استلامه للحكم.

ولتطابق وجهة نظره مع وجهة نظر أخيه الأمير جعفر في رفض طريقة عزل والدهما فقد قربه إلى جانبه حتى أصبح في البداية الساعد الأيمن له ، و لكن سرعان ما دبت الخصومة بين الأخوين ولحق الأمير جعفر بالمهرة للمرة الثانية ، و بالاستعانة بهم أخذ يثير له المشاكل والمتاعب حتى استنجد السلطان عمر بأشراف الجوف والعثمانيين[٢٢].

ونستدل من حوليات بافقيه لسنة(٩٩٦ هـ / ١٥٨٧م) على أن ظفار خرجت عن إطار السلطنة الكثيرية دون أن يورد في روايته القوى التي سيطرت عليها ، و يغلب الظن أن المهرة وبمساعدة الأمير جعفر هم الذين سيطروا عليها . و قد فشلت المحاولة التي قام بها السلطان لاستعادتها[٢٣] . وتمكن المهرة من السيطرة على حصن الشحر ، و في هذه الأثناء و صلت النجدة العثمانية التي أسهمت أولاً في استرداد حصن الشحر ، ثم إعادة ظفار إلى حضيرة السلطنة في صفر(٩٩٧ هـ / ١٥٨٨م)[٢٤] .

تجدر الإشارة إلى أن موقف العثمانيين العسكري في شماليّ اليمن كان جيداً ، واتسمت الأوضاع بالهدوء و الاستقرار[٢٥] . الأمر الذي ساعد على حصول السلطان عمر بن بدر على الدعم العثماني باعتبار أن السلطنة الكثيرية تحت السيادة العثمانية .

وعندما اندلعت حركة المقاومة اليمنية ضد الحكم العثماني سنة (١٠٠٦ هـ/ ١٥٩٧م) التي تزعمها الإمام القاسم بن محمد[٢٦] نشطت التحركات العمودية المعارضة للعلاقة الكثيرية العثمانية ، واتصلوا بالإمام القاسم[٢٧] ، ودفعهم إلى ذلك الأمل في إضعاف النفوذ العثماني في اليمن ، الأمر الذي يعني على الصعيد المحلي في حضرموت إضعاف الكثيريين الأعداء التقليديين لهم ، وكان أبرز المواجهات بين الجانبين تلك التي جرت سنة (١٠١٤ هـ / ١٦٠٥م)[٢٨] ، وتعرف بمعركة (النقعة)[٢٩] وقد وصف الشاعر الحضرمي عبد الصمد باكثير هذه المعركة في قصيدة طويلة و مما قال فيها [٣٠]:

الله أكبر هذا النصر و الظفر ... فتحاً مبينا مع التأييد يا عمر
والترك لم يتركوا رأسا على جسد ... و لا بضرب القصيري منهم اقتصروا
لله بالنقعة الغراء معترك ... دسنا الأعادي به ، و النقع معتكر
فكان أسعدهم من فر منهزماً ... يبغي النجاة حيث لا منجى ولا وزر

ذكرت القصيدة الموقع الذي دارت فيه المعركة (النقعة) و أشارت إلى اشتراك العثمانيين فيها، وانتصار الكثيريين . و على أيّة حال فإن القصيدة لابد أن تؤخذ بحذر، فباكثير يعد شاعر السلطنة الكثيرية، وهو بهذا يعبر عن وجهة نظرها، أي ينظر إلى المعركة من زاوية واحدة .

وكيفما كان الأمر فإن ابرز نتائج المساعدة العثمانية للسلطان عمر بن بدر ليست فقط في تمكينه من تحقيق انتصارات على أعدائه ، بل ساعدت أيضاً في خلق حالة من الهدوء والاستقرار استمرت حتى و فاته سنة (١٠٢١ هـ / ١٦١٢ م)[٣١] . وقد مدح المحبي [٣٢] السلطان عمر بقوله: ((كان حسن الشمائل وافر العقل كثير العدل و كانت سيرته مرضية))، و أما البكري[٣٣] فقد وصف عهده بأن فيه : ((اطمأنت النفوس و كثر الخصب و زكا الزرع و زاد الرخاء ورخصت الأسعار)) .

تولى السلطنة بعده السلطان عبد الله بن عمر[٣٤] (١٠٢١ ١٠٤٥ هـ / ١٦١٢- ١٦٣٥م) وفي عهده اشتدت حركة المقاومة اليمنية ضد السيطرة العثمانية على اليمن والتي تزعمها الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد ثم ابنه الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم [٣٥]. و قد التزم السلطان الكثيري بالخط الذي سار عليه أسلافه وهو الإبقاء على تبعية السلطنة الاسمية للدولة العثمانية ، ووقف في الموقع غير المؤيد لحركة المقاومة .

ومن جانبه عمل الإمام المؤيد على استمالة موقف السلطنة إلى جانب حركة المقاومة وبعث إلى السلطان عبدالله في الفترة التي تلت سنة (١٠٣٦هـ/١٦٢٦م) عدداً من الرسائل المطولة حثه فيها على مساندة المقاومة وتقديم الولاء له ، لكن السلطان عبدالله استقبل في البداية رسائل الإمام بفتور وهداياه ووفوده ولم يكترث[٣٦].

وفي هذا الصدد ذكر الجرموزي أن السلطان عبدالله صرح أمام وفد أرسله الإمام قائلاً : ((ماذا يريدون الزيدية بالكتابة إلينا . وتأفف بهم وتهكم برسلهم))[٣٧] . ومن مظاهر المواقف القوية الرافضة للعلاقات القاسمية الكثيرية في المراحل المبكرة نجدها في الرد على رسالة الإمام المؤيد[٣٨] إلى السلطنة الكثيرية التي دعا فيها إلى طاعته وحذر من مخالفته وتمثل هذا الرد في الرسالة التي بعثها السيد علي زين العابدين العيدروس نيابة عن السلطان الكثيري رافضاً فيها الإذعان لطاعة الإمام ، والتمسك بمذهب أهل السنة في الأصول والفروع [٣٩] . ويبدو أن اجتهادات المذهب الزيدي الصارمة من الصوفية والفكر الصوفي لها دورها في هذا الموقف السلبي للسلطنة .

وعلى الرغم من عدم وقوف السلطان الكثيري في الموقف المساند للمقاومة فإنه حرص على عدم إظهار أي عداء عملي ضد الإمام [٤٠]، ولعل هذا الغموض في سياسة السلطان الكثيري كانت محل تطلع الدولة القاسمية في العمل على محاولات استمالته إلى جانبها . على أن الموقف الكثيري بدأ يشهد تغيراً نسبياً بعد الانتصارات التي حققتها حركة المقاومة وتدهور النفوذ العثماني في اليمن. وقد أدى هذا التغير في موازين القوى إلى إحداث تغير في سياسة السلطنة تجاه القوى اليمنية الناشئة، وأصبح الخطاب الرسمي للسلطنة يتحدث تجاهها بنبرة مهادنة [٤١]. ففي سنة (١٠٤١هـ /١٦٣١م) بعث السلطان عبدالله رسالة إلى الإمام المؤيد أبلغه فيها أنه أصبح من المحبين للإمام ودولته ، وسوغ فيها طاعته للعثمانيين بأنها جاءت لتجنب شرهم عن سلطنته وليحافظ على مصالح السلطنة التجارية لما للعثمانيين من شوكة قوية في البحر [٤٢]. ثم تواصلت الرسائل بين الجانبين وحملت معاني الود والمجاملة[٤٣].

وحقيقة الأمر لم تتخذ هذه العلاقات طابعاً عملياً فقد ظلت الأمور داخل السلطنة تدار على ما كانت عليه، وكان واضحاً أن ذلك التودد للإمام الذي طرأ على السلطان عبدالله لم يكن بنية صادقة أقنعته بالولاء للقاسميين بل كان نوعاً من المراوغة السياسية فرضتها الظروف الجديدة لليمن . كما أن فترة السلطان عبدالله في الحكم لم تطل بعد ذلك إذ يقال إنه تنازل عن الحكم لأخيه السلطان بدر .

وتشير بعض المصادر إلى أن السلطان عبدالله عرض الحكم على الشيخ الحسين بن الشيخ أبي بكر و أعلن تنازله أمامه وطلب منه التشفع له عن أخطائه ولكن الشيخ رفض العرض واقترح على السلطان تعيين السلطان (بدر)[٤٤] بدلاً عنه، وفعلاً غادر السلطان عبد الله حضرموت متوجهاً إلى مكة وهناك توفي سنة (١٠٤٥هـ /١٦٣٥م) [٤٥].

وتظهر هذه الطريقة في التنحي طبيعة المجتمع الحضرمي الصوفي التي طالت أحياناً رجال الحكم، وعلى أيّة حال فقد أدى هذا التنحي المفاجئ و تولية السلطان بدر بن عمر الحكم إلى تجدد الصراع الأسري الكثيري وتزامن هذا مع خروج العثمانيين من اليمن وقيام الدولة القاسمية وتوسعها في معظم مناطق اليمن وقد اتخذ الصراع الأسري الكثيري منحى خطيراً عندما استعان السلطان بدر بالدولة القاسمية الفتية ودخلت السلطنة في إثر ذلك مرحلة جديدة من تاريخها وهذا ما سنوضحه في المبحث الآتي.

ثانياً : استفحال الصراع الأسري الكثيري و تدخل الدولة القاسمية في حضرموت :

بعد خروج العثمانيين من اليمن وقيام الدولة القاسمية (١٠٤٥هـ / ١٦٣٥ م)[٤٦] دخلت العلاقات الكثيرية القاسمية مرحلة جديدة ، و تزامن ذلك مع اعتلاء السلطان بدر بن عمر[٤٧] سدة الحكم في السلطنة . و الجدير بالإشارة إلى أن الدولة القاسمية لم تكن الكيان السياسي الوحيد في اليمن بعد خروج العثمانيين ، بل كان هناك عدد من الكيانات و القبائل المستقلة بذاتها ، إلا أن الدولة القاسمية كانت أكبر تلك الكيانات وأقواها لما تمثله من ثقل سياسي في تلك الفترة من تاريخ اليمن . و كذلك لما تمثله من سلطة كانت تمتد على مناطق واسعة من اليمن مليئة بالرجال و الخيرات[٤٨] .

كان السلطان بدر بن عمر يميل أكثر إلى الدولة القاسمية واستمر في العلاقات الودية معها ، إذ تبادل الرسائل و الهدايا مع أئمتها طول مدة حكمه للسلطنة الكثيرية [٤٩]. و لعل ما دفعه إلى تعزيز الصلات مع الدولة القاسمية هو الاستقراء بدعمها و مساندتها ، لاسيما أن وصوله إلى الحكم جاء على حساب أبناء سلفه . غير أن نتيجة تلك السياسة التي اتبعها السلطان بدر كانت عكسية على الصعيد الداخلي للسلطنة و على موقفه الداخلي بالذات ، واستغل ابن أخيه الأمير بدر بن عبد الله هذا التقارب لتأليب الرأي العام في حضرموت ضده ، إذ أشيع أنه اعتنق المذهب الزيدي وارتمى في أحضان الأئمة [٥٠].

ولاشك أن أهداف الأمير بدر بن عبد الله هي الوصول إلى الحكم ، و قد استغل علاقة عمه بالدولة القاسمية وعمل على استمالة الكثيريين إلى جانبه ، و ذلك من خلال تهويل أمر هذه العلاقة بأنها ستسهل سيطرة الدولة القاسمية على حضرموت ، كما ساعد على ترويج هذه الدعاية عدد من العلويين وعلماء الدين الذين كانوا يرفضون امتداد الحكم الإمامي إلى حضرموت للاختلاف المذهبي [٥١]. بل تحول الموقف من هذه العلاقة إلى جدل عند العلماء بحيث تطلب إصدار فتوى بشأنها ، و قد تصدى لذلك السيد عبد الله بن علوي الحداد[٥٢] فقد جاء في رده على أحد خطباء المساجد : ((و ما ذكرتم أنكم كلفتم أن تدعو لإمام الزيدية في الخطبة فبعض الشر أهون من كله ، و ليس للدعاء له كبير محظور ، ولكن المحظور إعطاء الزكاة لهم يحكمون بها بخلاف حكم الله و رسوله)).[٥٣]

ولم تتجاوز السياسة العامة للإمام المؤيد محمد بن القاسم أسلوب الخيار السياسي لضم المناطق التي كانت تابعة للدولة العثمانية إلى حضيرة الدولة القاسمية لاسيما السلطنة الكثيرية، التي كانت الكيان السياسي الكبير الثاني آنذاك ، و يمكن أن نعزو ذلك إلى سنين المعارك الطويلة التي خاضها القاسميون في أثناء فترة المقاومة ضد العثمانيين و ما خلفته من آلام ومتاعب جعلت الإمام المؤيد وقادته يميلون إلى السلام و السكينة و تجنب قتال الآخرين والتركيز على ترسيخ كيان دولتهم الناشئة . واكتفى الإمام بتوجيه مبعوثيه و رسائله إلى الحكام المحليين الغير خاضعة مناطقهم لسلطته [٥٤].

وعندما تولى إسماعيل بن القاسم الإمامة بعد أخيه المؤيد سنة (١٠٥٤- ١٠٨٧هـ / ١٦٤٤- ١٦٧٦م) [٥٥] بدأ تفكير الدولة القاسمية في التوسع يتخذ طابعاً عملياً لاسيما في المناطق الجنوبية الذي تتوافر فيها الظروف المواتية لجعلها مجالاً رحباً للتوسع . وبالنسبة لوضع السلطنة الكثيرية فقد عزز السلطان بدر بن عمر علاقته بالإمام الجديد و تواصل معه بالرسائل معبّراً فيها عن طاعته و انصياعه له[٥٦] . وربما جاء ذلك الموقف لاستجداء مساعدته ضد ابن أخيه الذي كان يهيئ للانقلاب عليه .

و في سنة (١٠٥٧ هـ / ١٦٤٧م) طالب الإمام إسماعيل بأشكال من الارتباط بين السلطنة و الدولة القاسمية أقوى مما كانت عليه ، ومن ذلك قبول الطاعة الكاملة له و الدعاء في الخطبة له باسمه . و قد استجاب السلطان لهذه المطالب التي جعلت ولاءه للدولة القاسمية سافراً ، وقد أدت هذه التطورات الأخيرة إلى تعزيز موقف التيار المناهض لهذه العلاقات ، وأوجدت فرصة قوية لتحرك الأمير بدر بن عبد الله المتزعم لهذا التيار[٥٧] .

وتذكر المصادر أن الأمير بدر بن عبد الله استغل مناسبة تجهيز السلطان بدر بن عمر للاحتفال بزواج عائلي كبير و ختان أولاده الصغار سنة (١٠٥٨هـ / ١٦٤٨م) ، فجمع أنصاره من آل كثير و بعض قبائل الشنافر وتمكنوا من دخول الحصن بعد عملية جريئة غير متوقعة اشتبكوا فيها مع حراس الحصن و دخلوا على السلطان بدر وألقوا القبض عليه وأجبروه على كتابة التنازل عن السلطنة لابن أخيه و أمر عسكره بالطاعة للسلطان الجديد [٥٨].

ويبدو أن السلطان (المخلوع) آثر عدم المقاومة لاعتقاده و أمله في مساندة الإمام المتوكل على الله إسماعيل له نظراً لمواقفه المساندة للدولة القاسمية . وعلى أية حال فقد زج بالسلطان بدر و ابنه محمد الملقب (بالمردوف) في سجن مريمة ،أما رجاله و قادته فقد شدد عليهم في البداية ثم رد عليهم عطاياهم و : ((تحبب إلى الرعية بالهيبة و الرغبة و المفسدين بالرهبة و صلحت الأرض و استمر الأمن))[٥٩] . ولاشك أن سياسة السلطان بدر (المخلوع) في مهادنة رجال السلطان بدر تهدف إلى تامين الجبهة الداخلية و ليركز جهوده على ردة فعل الدولة القاسمية لأنه أزاح أهم حلفائها.

وعلى العموم فإن هذا الانقلاب الأسري لم يواجه معارضة داخلية ، فقد كانت الدعاية التي بثها أنصار الاتجاه المعادي لامتداد الدولة القاسمية في حضرموت ، و ما قام به السلطان المخلوع من إظهار التبعية لها قبيل عزله كل ذلك ساعد على نجاح الانقلاب و قبوله .[٦٠] وأول عمل قام به السلطان الجديد هو إطلاق سراح أخيه الأمير جعفر من السجن و عينه حاكماً على مدينة ظفار[٦١] .

وبالنسبة لموقف الدولة القاسمية من هذه التطورات فقد حاول الإمام إسماعيل أولاً إقناع السلطان الجديد بالطرق السياسية لإطلاق سراح عمه من السجن و إعادته إلى الحكم ، ولكن هذه الجهود باءت بالفشل و لم تصل إلى نتيجة حاسمة [٦٢]. ويبدو أن الإمام إسماعيل أدرك سياسة المراوغة التي يتبعها السلطان بدر بن عبد الله و أن جهوده السياسية وحدها غير كافية لإرغامه على تلبية مطالبه ، لهذا لجأ إلى اتباع الأسلوب العسكري المباشر. ولأن الطريق الموصّل إلى حضرموت يتطلب المرور بالعديد من المناطق التي توجد بها بعض الكيانات السياسية القبلية المستقلة ، فقد أرجأ عملية التقدم إلى حضرموت و ركز جهوده في البداية على التوسع جنوباً[٦٣] و سيطر على عدن و لحج و الشعيب [٦٤].

واستكمالاً لهذه السياسة ، ولأسباب داخلية تتعلق بالدولة القاسمية[٦٥] بدأ الإمام إسماعيل يستعد منذ سنة (١٠٦٥ هـ / ١٦٥٤م) للتقدم اتجاه حضرموت مروراً بأراضي البيضاء و يافع و ما حولها . وقد جرت مفاوضات مطولة بين الإمام و سلطان منطقة البيضاء[٦٦] حسين الرصاص من أجل السماح بمرور القوات الإمامية في الأراضي التابعة لنفوذه[٦٧] ،

ولكن الرصاص رفض مرور القوات عبر أراضيه وعدّ ذلك تعدياً على مناطق نفوذه ، وأجرى اتصالات مع القبائل الجنوبية المجاورة له لتكوين حلف مشترك لصد تقدم الجيش الإمامي ، وقد لبّت هذه القبائل الدعوة ربما لاعتقادها بأنها ستكون الهدف اللاحق إذا سقطت البيضاء[٦٨].

ولا مجال هنا لذكر تفاصيل المعارك التي جرت في هذه المنطقة[٦٩] وما يمكن قوله أن منطقتي البيضاء ويافع سقطتا بيد القوات الإمامية رغم صمود القبائل في الدفاع عن مناطقها[٧٠] . وما يهمنا أكثر هنا انعكاس هذه الانتصارات على العلاقات الكثيرية القاسمية ، فقد استأنفت المراسلات بين الجانبين بعد معرفة السلطان بدر بهذه التطورات و بعث رسائل التهنئة للإمام[٧١] ، ثم لم يتردد في إعلان اعترافه بالسيادة القاسمية على أراضيه إذ أبلغ ذلك بشكل رسمي لمبعوث الإمام المدعو صالح بن الحسن الشويع ، و تأكيداً لهذا الإعلان جهز بعثة ترافق الشويع ضمّت عدداً من أعيان حضرموت محملة بالهدايا و الرسائل للإمام و ابن أخيه الحسن[٧٢]. ولا تخلو الرسالة التي بعثها السلطان من عبارات المجاملة و التودد الذكي إذ سجل فيها طاعته للإمام بعدّه من أبناء الرسول صلى الله عليه و سلم ومما جاء فيها : ((.... شرحنا له ما نحن لكم عليه من الطاعة التي لا يصفها واصف وعرفناه أنا لأمركم و نهيكم مطيعون و لا في شيء مما ترون نخالف))[٧٣] .

ويبدو أن الإمام إسماعيل أدرك ما تحمله رسالة السلطان من المجاملة و المراوغة المعتادة ، لهذا طالب في رده على رسالته اتخاذ إجراءات عملية جادة تدل على طاعته للدولة القاسمية منها مطالبته بإصلاح الأمر بينه و بين عمه السلطان بدر بن عمر المخلوع ، و إطلاق سراحه وتوليته على ظفار[٧٤] . و قد استجاب السلطان لهذه الضغوط و عمل على إطلاق سراح عمه و ولاه على ظفار بدلاً من أخيه الأمير جعفر[٧٥] ، كما استفاد من تلبيته لمطالب الإمام وأظهر تودده وذلك في الرسالة التي بعثها له فيها في ١٠ رمضان (١٠٦٥هـ / ١٦٥٤م) و مما جاء فيها بهذا الصدد : ((و ما شرحتم في حال الوالد السلطان بدر حفظه الله حيث أشرتم أنكم ما تحبون لنا التراخي في شأن إطلاقه ..... فما كان منا التخليف له في المكان إلا بقصد الرأي المبارك المنتظر منكم لما فيه صلاح جمع الشأن ..... امتثالاً لأمركم إذ أنت إمام الزمان والخليفة الداعي إلى مرضاة الرحمن))[٧٦] . و في رسالة أخرى أورد الجرموزي جزءاً منها سوغ

السلطان اعتقاله لعمه بسبب ما قاساه من ظلمه له ، كما أوضح فيها أن عزله لعمه لم يكن بدافع تحالفه مع الزيديين و عزا ذلك لما هو مألوف في الأسرة الكثيرية الحاكمة[٧٧] .

تظهر هذه الرسائل ضعف موقف السلطان الكثيري ، و فشل سياسته القائمة على الطاعة عن بعد للدولة القاسمية التي بدأت بعد ذلك في التدخل المباشر في شؤون حضرموت . ففي عام (١٠٦٥ هـ / ١٦٥٤م) حدث خلاف بين الشيخ عبد الرحمن العمودي و بين السلطان بدر ، فتدخل الإمام و أرسل مندوباً من قبله لحل الخلاف[٧٨] . و يبدو أن الإمام أراد الاستفادة من هذا الخلاف لإظهار هيمنته على مجرى الأمور في حضرموت . وعلى أيّة حال فقد تم الاتفاق بين الجانبين على عقد صلح لمدة سنة ، و يبدو أن شروط الصلح كانت قاسية على السلطان بدر ، وقد عبّر عن ذلك في رسالة بعثها للإمام جاء فيها : ((و قد أجبنا على انعقاد الصلح بيننا و بين الشيخ العمودي سنة كاملة بعد أن أبدى علينا شرايط [شروطاً] لا نعهدها في ساير الإصلاح فأجبناه عليها رعياً لخبركم و طاعتكم))[٧٩] . ولأن الصلح لم يصمد بين الطرفين تدخل الإمام و أرسل رسالة إلى السلطان بدر حثه فيها على قبول الشروط لقصد إخماد نار الفتنه حسب تعبيره [٨٠] ، ثم أرسل إلى حضرموت مبعوثاً من قبله يدعى الحسن بن أحمد الحيمي في سنة (١٠٦٧ هـ / ١٦٥٦م)[٨١] في مهمة ظاهرها أنهاء النزاع بين الجانبين إذ إن ذلك تأكيد لمسؤولية الدولة عليها ، أما غرضها الأساسي فهو تثبيت مظاهر الاعتراف بسلطة الدولة القاسمية في حضرموت والتدخل قدر الإمكان في ترتيب أمور السلطنة الكثيرية المالية و الإدارية وإصلاحها بما يتوافق مع نظم الدولة القاسمية ومعتقداتها[٨٢] . ويتضح ذلك من خلال الرسالة التي بعثها الإمام مع الحيمي وأهم ما ذكره فيها : ((وقد أرسلنا إليكم القاضي شرف الدين الحيمي لأخذ البيعة و العهد منكم و يساعدكم في أمور الإصلاح و نشر أحكام الشرع ... و الالتجاء إلى أهل البيت في الأحكام الشرعية و العقائد وأخذ ما أمر الله بأخذه من واجبات الأموال))[٨٣] . وهكذا فإن التدخل الإمامي في حضرموت جاء حتى هذه المرحلة مسنوداً بالتلويح بالقوة العسكرية ، لهذا تعاطى السلطان بدر مع هذه التطورات بحذر من غير أن يجهر بآرائه السياسية الرافضة لهذا التدخل في شؤون السلطنة ، و من جانب آخر تعمد

المبالغة في استقبال وفد الإمام أولاً في بلدة هينن في ٢٤ جمادى الأولى (١٠٦٧ هـ / ١٦٥٦م) ثم العاصمة سيئون حيث قرأت المراسيم الإمامية وتحسنت العلاقات بينهما في الظاهر[٨٤] .

ويبدو أن السلطان الكثيري أراد أن يرضي غرور الإمام ، و يكسب ود الحيمي و تعاطفه مع السلطنة حتى ينقل عنها الصورة الإيجابية و هي أن السلطنة يد صديق و لا داعي لتقرير الإجراءات التفصيلية التي تضمنتها مهمته في حضرموت ، وقد نجح السلطان في مقصده إذ لم تشر المصادر التي وقفنا عليها إلى أن الحيمي قد قام بأي إجراءات أو تغيرات في شؤون السلطنة ، بل نقل في تقريره إلى الإمام صورة إيجابية عن حفاوة الاستقبال و الوضع العام في حضرموت ، و مما جاء في تقريره مادحاً سكان حضرموت : ((و لهم عناية في إحياء المساجد بذكر الله عز و جل و درس القرآن و تعليم الصبيان)) [٨٥].

على أن أهم نتائج زيارة الحيمي هي نجاحه في إنهاء النزاع الكثيري العمودي إذ أقنع الطرفين بعقد صلح لمدة خمس سنوات[٨٦] ، وتحديد ما يتوجب على السلطنة الكثيرية إرساله سنوياً من الزكاة و الضرائب ، و تعزيزاً من السلطان بدر في إظهار طاعته للدولة القاسمية أرسل مع الحيمي هدية إلى الإمام جزءاً مما تقرر على السلطنة لبيت المال من الزكاة [٨٧] .

وقد تشابهت و جهات نظر كل من السلطان بدر و السيد عبد الله الحداد الذي كان من أشد الرافضين لجمع الزكاة وفق الأوامر الزيدية ، ولكنه فيما يخص التعامل مع الإمام ذكر في رسالته التي بعث بها إلى السلطان : ((لا بأس من مداراتهم عند خوف الشر بما لا يضر الدين ، كذكر إمامهم في الخطبة وحمل شيء من المال إليهم)) [٨٨].

لكن أثبتت الأحداث عدم صدق السلطان الكثيري في موالاته للدولة القاسمية ، ولعل ثقل الالتزامات المالية و التي لا يستطيع أن يماطل فيها جعله يعمل على تعزيز دخله في منطقة ظفار الهامة ، وذلك باحتجاز مزرعة لنفسه بحجة أنها كانت لأبيه ، فعدّ عمه ذلك احتكاكاً وتدخلاً فيما فوض إليه من قبل الإمام[٨٩] . ومرة أخرى تبادلت الرسائل بين السلطان الكثيري و الإمام لتسوية المشكلة ، وكان موقف الإمام إسماعيل قوياً لصالح حاكم ظفار إذ أمر السلطان الكثيري أن يكف عن التعرض للمزرعة وتكون ظفار خالصة لعمه . وقد أذعن

السلطان لهذه المطالب وأكد في الرسالة التي بعث بها إلى الإمام أن الحال واحدة بينه وبين عمه وأنه عمل على إرسال مراكبه إلى ميناء ظفار لشراء اللبان مثله مثل التجار الأجانب[٩٠].

ومن المعروف أن السلطان بدر بن عبدالله كان من أغنياء سلاطين آل كثير وكان يملك في ظفار غابات من اللبان وسفن خاصة لبيعه في الموانئ المجاورة [٩١] ، وكان من البديهي أن يترك استقلال عمه بشؤون ظفار أثراً سيئاً في أعماقه يجعله يفكر في استعادة هذه المنطقة إلى نفوذه . كما لا يستبعد أن يكون إثارته لموضوع المزرعة في ظفار عبارة عن جس لموقف الدولة القاسمية إذا ما فكر في إزاحة عمه عنها . و أمام تصميم الإمام على إبقاء ظفار بعيدة عن نفوذ السلطان الكثيري ، وفشل جهود أخيه الأمير جعفر للحصول على موافقة الإمام بالعودة إلى ظفار أو تعيينه في أي مكان آخر من السلطنة على أقل تقدير [٩٢] اندفع الأخوان للعمل باتجاه السيطرة المباشرة على ظفار وطرد عمهما منها .

ونعتقد أن الأخوين بنيا حساباتهما على اتجاهين أحدهما بُعد ظفار وصعوبة الوصول إليها من جهة البر لاسيما أن قوات الدولة القاسمية برية ، و الاتجاه الآخر جعلهما مسألة السيطرة على ظفار وكأنها إجراء شخصي من الأمير جعفر الأمر الذي يعطي فرصة للمناورة والمساومات وقد لجأ الأمير جعفر إلى حيلة استدرج بها عمه وتمكن من الدخول إلى ظفار والسيطرة عليها بالقوة وذلك سنة (١٠٦٨هـ / ١٦٥١م)[٩٣]. أما أمير ظفار بدر بن عمر فقد هرب إلى عدن ومنها إلى الإمام إسماعيل الذي رحب به وأكرمه (ووعده بلوغ المرام)[٩٤].

ولا شك في أن ذلك التصرف الجريء لابد أن يثير غضب الإمام إذ عده تحدياً شخصياً له ، واستهانة بنفوذ الدولة القاسمية ، وقد حاول السلطان بدر أن ينفي أي علم له بالهجوم ، لكن الإمام إسماعيل لم يعد لديه أدنى شك في مشاركة السلطان بدر مع أخيه في السيطرة على ظفار لهذا حمله مسؤولية ما حدث[٩٥]. وبناءً على هذه القناعة قرر الإمام إسماعيل الاستيلاء على حضرموت وعهد بذلك إلى ابني أخيه الحسن أحمد و الحسين [٩٦] ، وتباحث معهما في خط سير القوات إلى حضرموت [٩٧].

وهكذا هيأ الأخوان الكثيريان ذريعة قوية كان الإمام إسماعيل بحاجة إليها ليمد سلطة الدولة القاسمية المباشرة إلى هذه المنطقة ذات الخيرات المتعددة ، و ليضع حداً لسنوات من

سياسة الشد و الجذب و حالات المراوغة التي ميزت العلاقات الكثيرية القاسمية ،منذ أن عزل السلطان بدر بن عبد الله عمه الموالي للدولة القاسمية .

بدأ الاستعداد لتجهيز الحملة بعد أن دعا الإمام إسماعيل القبائل للتطوع في مهاجمة السلطنة الكثيرية [٩٨]. وعندما علم السلطان بدر بهذه الاستعدادات أجرى محاولة يائسة لثني أحمد بن الحسن عن الاستيلاء على حضرموت و ذلك عن طريق بعثه رسالة مع أحد رجاله، ولأن الرسالة كما تبدو لم تحمل أي جديد فيما يتعلق بانصياع السلطان الكامل لأوامر الإمام، ولأن أمر النفاذ قد صدر لهذا رد أحمد بن الحسن على رسالة السلطان و تلفظ بمقالة مشهورة و هي : ((هذا كتابي و بعد سيفي و ركابي))[٩٩] وهكذا و صلت المفاوضات إلى طريق مسدود لتبدأ مرحلة العمل العسكري المباشر .

انطلقت الحملة العسكرية القاسمية من منطقة الغراس[١٠٠](في منتصف شوال١٠٦٩هـ / ٨ تشرين الأول ١٦٥٨م) متجهة إلى حضرموت و سارت باتجاه الجنوب الشرقي و عبرت العديد من المناطق حتى وصلت وادي حجر غربي حضرموت [١٠١] بعدما يقارب عشرة أشهر . و قد تعرض جيش الإمام سواء في وادي حجر أم في أثناء تقدمه لجملة من المتاعب و المصاعب ،بسبب طول خط السير ووعورة الطريق و كثافة الجيش [١٠٢] من ذلك اضطرار الحملة إلى التوقف لحفر آبار بلغ عمقها مائتي ذراع[١٠٣] لسد حاجته إلى الماء . و قد تفاقمت المشكلة التموينية في أعلى وادي حجر (السوط) حيث عانى الجنود الجوع في ذلك الوادي حتى اضطروا إلى أكل لحوم الحمير[١٠٤].

وبينما الجيش في تقدمه تجاه حضرموت كانت المراسلات مستمرة بين السلطان بدر والإمام إسماعيل فقد أرسل الأول رسالة عبر فيها عن موافقته على شن هجوم على أخيه في ظفار ،و ذكر في رسالته أنه جهز جيشاً مكوناً من ٤٢٥ فارساً ،و لاشك في أن هذا العرض كان محاولة غير عمليه لاسترضاء الإمام و إيقاف تقدم الحملة ،ولكن السلطان لم يرسل أي حملة فعلياً [١٠٥]. و لعل ذلك جاء من تأكده من حقيقة وصول القوات الإمامية إلى حضرموت في جميع الحالات و صعوبة عودتها. و استمر السلطان الكثيري في مناوراته معللاً عدم نفاذ الحملة إلى ظفار إلى رفض الكثيريين التقدم إلى ظفار في ظل استمرار تقدم جيش

الإمام إلى حضرموت ، ثم وضع اقتراحات يصعب تحقيقها و تنسيقها في تلك الظروف و هي تزامن الهجوم الكثيري على ظفار مع عودة الجيش الإمامي [١٠٦].

لهذا نجد السلطان الكثيري بعد ذلك يطرح آخر ورقة سياسية لديه و هي مطالبته بعودة الجيش الإمامي و تحمله التكاليف المترتبة على ذلك[١٠٧] . أما الإمام فقد رفض كل العروض التي تقدم بها السلطان و كانت شروطه القوية تتجاوز مستوى المرونة التي أبداها السلطان وأهم هذه الشروط عودة الجيش و تجنب المواجهة هو وضع أراضي حضرموت بكاملها تحت سيطرة الدولة القاسمية ، وإلقاء القبض على أخيه جعفر في ظفار لإثبات إخلاصه للدولة من جهة و إثبات عدم علاقته بما أقدم عليه في ظفار من الجهة الأخرى [١٠٨] ، و على الصعيد الميداني كان على القوات الإمامية صعود عقبة حجر الوعرة لأن ذلك سيفتح لهم الطريق إلى وادي حضرموت وفي ظل ظروف تموينية صعبة كما أشرنا . و في هذه الأثناء أدى الشيخ العمودي حليف الدولة القاسمية والعدو التقليدي للكثيريين دوراً مهماً لاستعادة الجيش بعض عافيته ، فقد أرسل ما يقارب الثمانين جملاً و عدداً من الأبقار و الأغنام لدعم تموينات الحملة ، كما أمر القبائل الخليفة له بجلب ما يقدرون عليه لتموين الجيش بالطعام و خاصة النبق (الدوم) فكان الجيش الإمامي يأكل النبق مع النواة من شدة الجوع[١٠٩] .

وفي ظل هذه الظروف الصعبة استطاعت القوات الإمامية صعود عقبة وادي حجر ثم الدخول إلى (ريدة بامسدوس) [١١٠] بعد هروب الحاميات الكثيرية من تلك المواقع ، و قد استولت القوات الإمامية على التموينات الغذائية الأمر الذي ساعد الجيش على استعادة جاهزيته[١١١] لاسيما أن القبائل القاطنة هناك لم تبد أيّة مقاومة بل على خلاف ذلك سارع زعماء تلك القبائل على تقديم طاعتهم للدولة القاسمية[١١٢] . وربما دفعهم إلى ذلك الموقف ما رأوه من ضخامة الحملة ، هذا فضلاً عن أن معظم قبائل هذه المنطقة من حلفاء العمودي .

أما الجيش الإمامي فقد مضى في تحقيق هدف الحملة الأساس و هو السيطرة على حضرموت وإزاحة السلطان بدر بن عبد الله ، لهذا انحدرت القوات الإمامية من ريدة بامسدوس باتجاه وادي حضرموت و عسكرت بالقرب من قرية الهجرين[١١٣] . وقد جرت فيها اشتباكات تمكنت في إثرها القوات القاسمية من السيطرة عليها في أواخر رجب (١٠٧٠ هـ / ١٦٥٩م) [١١٤] ، ثم

تقدمت القوات الإمامية إلى منطقة بحران [١١٥] و أصبحت على بعد ميلين تقريباً من جيش السلطنة و هكذا تهيأت الظروف للمواجهة الحاسمة ، و يبدو أن السلطان الكثيري كان يدرك صعوبة صمود قواته ، لهذا استشار بعض علماء الدين البارزين أمثال السيد عمر عبد الرحمن العطاس[١١٦] الذي نصحه بالتسليم و عدم جدوى المقاومة[١١٧] و مع ذلك آثر السلطان الدفاع عن سلطنته ولعل ذلك لم يكن لكسب المعركة ، ولكن لتبرير الاستسلام .

وجرت المعركة الفاصلة في الخامس من شعبان (١٠٧٠ هـ / ١٦٥٩م) و كان جيش الدولة القاسمية من الكثرة و القوة بحيث حسم المعركة لصالحه رغم استبسال قوات السلطنة[١١٨] وقد تمكن السلطان من الفرار إلى بلدة هينن و منها أرسل إلى قائد الحملة القاسمية رسالة طلب فيها الأمان لكن أحمد بن الحسن رفض الطلب خوفاً من أن تكون هذه خدعة حسب ما ذكر الجرموزي [١١٩] ، و لا نميل إلى ذلك ، ويبدو أن رفض إعطائه الأمان جاء لكي لا يفقد منذ البداية مبرر النهب و السلب عند الدخول السلمي لبلدة هينن ، و ذلك أن الجيش الإمامي يقاتل من منطلق ديني (جهادي) يجعل من المناطق المفتوحة غنيمة وفيئاً[١٢٠] .

وقد تمكنت القوات الإمامية من السيطرة على هينن وما فيها من مؤن وذخائر ، ثم تابع الجيش توغله في حضرموت ود خل مدينة شبام بعد أن طلب أهلها الأمان ، ثم قدمت إليه وفود أهالي مناطق تريم وسيئون وعينات ومريمة وتريس والغرفة وبعض أفراد الأسرة الكثيرية[١٢١] ، ثم توجه إلى سيئون و منها وافق على الأمان للسلطان بدر وإرساله إلى الإمام إسماعيل لينظر في أمره[١٢٢] .

وهكذا دخلت حضرموت و السلطنة الكثيرية مرحلة جديدة من تاريخها و هي مرحلة السيطرة القاسمية المباشرة . و السؤال الذي يطرح نفسه هنا : هل كان بإمكان السلطان بدر الكثيري تجنب ذلك ؟ و هل بالغ في تقدير صعوبة وصول القوات إلى بلاده ؟ و للإجابة يمكن القول إن سيطرة الأمير جعفر على ظفار بالقوة و طرد أميرها حليف القاسميين يعد خطأ سياسياً كبيراً و لا يتناسب مع الظروف الجديدة التي آلت إليها الدولة القاسمية و قتذاك إذ كانت في أوج قوتها ، كما أن المناطق التي أعاقت تقدم الحملة القاسمية السابقة أصبحت تابعة أو شبه تابعة للدولة القاسمية الأمر الذي سهل إمكانية الوصول إلى حضرموت رغم الصعوبات الأخرى التي واجهت الحملة ، و نستنتج من ذلك أن توقيت السيطرة على ظفار لم

يكن موفقاً . كما أن السلطان الكثيري عول كثيراً على الجانب الدبلوماسي السياسي وأغفل الجانب العسكري ، فرأينا أنه لم يكن متابعاً لصعوبات الحملة تحت عقبة وادي حجر، إذ هيأت فرصة تشتيت القوات الإمامية المنهكة ليغطي نقص قواته و خاصة أن حدوث المواجهة العسكرية كان واضحاً .

وكيفما كان الأمر فقد أرسل أحمد بن الحسن رسالة إلى الإمام إسماعيل يبشره فيها بالنصر ووصف له كيفية سيطرته على حضرموت و المعارك التي خاضها [١٢٣]. ثم بدا يتصرف بوصفه حاكماً فعلياً على حضرموت ، فصادر ممتلكات السلطان بدر ووزعها على جنوده وقادته مكافأة لهم كما أطلق العنان لجنوده لإشباع رغباتهم و أطماعهم من الغنائم[١٢٤] وفي الوقت نفسه عمل على جمع زكاة الفطر ووزعها على الفقراء ليظهر مدى العدل والاهتمام الذي تمارسه دولته ، ومن جانب آخر شدد على ترسيخ سلطة الدولة القاسمية في حضرموت إذ أصدر تعليماته إلى كل المناطق بالدعاء في الخطبة في المساجد للإمام إسماعيل والدولة القاسمية فضلا عن زيادة عبارة ((حي على خير العمل إلى الآذان))[١٢٥] كما عين القضاة والولاة و العمال على المدن و المناطق الحضرمية ، و كان أغلبهم من الحضارمة الذين أظهروا قدراً من التعاون مع جيش الدولة القاسمية عند دخوله حضرموت[١٢٦] .

أما مدينة الشحر فقد أرسل إليها حملة مؤلفة من ٦٠٠ جندي يرافقهم الأمير علي بن بدر بن عمر الكثيري ليكون حاكماً عليها من قبل أبيه السلطان الذي عاد إلى الحكم بأمر الإمام إسماعيل ، و لم تلق الحملة في طريقها أية مقاومة ودخلت الشحر سلمياً [١٢٧].

و لاشك في أن هذه الإجراءات التي قام بها أحمد بن الحسن نيابة عن الإمام تظهر أن هدف الحملة الأساس هو السيطرة على حضرموت ، وأن مسألة عودة السلطان بدر إلى الحكم تحتل المرتبة الثانية بل يمكن القول إن هذه العودة هي تعزيز للهدف الأول و ذلك من خلال تنصيب سلطان محلي كثيري الأصل قاسمي الميل . وبعد إجراء تلك الترتيبات عاد أحمد بن الحسن إلى العاصمة القاسمية {ضوران }[١٢٨] ويرفقته الكثير من القوافل وقد وصف ابن الوزير هذا النصر بقوله : ((ثم ارتحل صفي الإسلام فوصل إلى ضوران في أبهة فاخرة ودولة قاهرة تعنو لها الأكاسرة ، و بنصر عجيب وفتح قريب)) [١٢٩].

أما مدينة ظفار التي ظهرت و كأنها محور كل الصراع ، فلم تحتل أهمية تذكر في أهداف الحملة القاسمية على حضرموت رغم ما كانت تطرحه الدولة القاسمية من أن هدف خروج الجيش إلى حضرموت هو الوصول إلى ظفار و طرد الأمير جعفر الكثيري منها[١٣٠] . لعل ذلك يؤكد ما ذهبنا إليه و هو أن هدف الحملة الأساس هو السيطرة على حضرموت و أن مشكلة ظفار ما هي إلا مسوغاً لهذه الحملة . و يبدو أن بُعْدَ ظفار عن وادي حضرموت ، والمشاكل التي واجهتها الحملة القاسمية قبل الوصول إلى هذا الوادي ثم الغنائم الوفيرة التي تحصلت عليها كل ذلك دفع باتجاه غض الطرف عن تحقيق هدف الحملة المعلن . و كان أبرز نتائج إهمال أمر ظفار من قبل الدولة القاسمية هو سقوطها بيد السلطنة اليعربية العمانية ، فتذكر المصادر أن الأمير جعفر الكثيري اتصل بسلطان عمان سلطان بن سيف بن مالك[١٣١] وطلب مساعدته في الدفاع عن ظفار[١٣٢] . و يبدو أن السبب الحقيقي لسيطرة القوات العمانية على ظفار جاء بعد التطورات الأخيرة التي شهدتها السلطنة ، و عندما أدركوا أن القاسميين غير عازمين على السيطرة عليها . و يعزز ذلك كله أن السلطنة العمانية كانت تعيش أزهى عصورها و أقوى مراحلها[١٣٣] ، مما جعل تفكيرها في التوسع باتجاه ظفار أمراً معقولاً ، لهذا وجد الأمير جعفر الكثيري نفسه خارج دائرة الحكم واضطر إلى الخروج من ظفار[١٣٤] . ومن جانب آخر رسخ العمانيون من نفوذهم في ظفار وعينوا فيها حاكماً من قبلهم يدعى (خلف)[١٣٥] و يذكر الجرموزي أن العمانيين كتبوا إلى أحمد الحسن وأخبروه باستيلائهم على ظفار وأظهروا له الطاعة ، واكتفى منهم بذلك وأقرهم على ما هم عليه[١٣٦] .

ويبين هذا الموقف مرة أخرى عدم اكتراث القاسميين بأمر السيطرة على ظفار و قد عزوا ذلك بعد سيطرتهم على حضرموت إلى بعد المسافة[١٣٧] . و لكن الكثيريين الذي كانوا يدركون أهمية ظفار الاقتصادية ، ما كانوا راضين عن الحالة التي آلت إليها مدينتهم التي توجد فيها مصالحهم ، لهذا شنوا هجوماً على ظفار سنة (١٠٧٣هـ / ١٦٦٢م) و تمكنوا من استعادتها و اجبروا حاكمها على مغادرتها[١٣٨] تاركًا وراءه مدفعين لم يتمكن من أخذها أثناء الانسحاب[١٣٩] ، و بعد عودة سيطرة آل كثير على ظفار عملوا على ترتيب الخطبة للإمام إسماعيل[١٤٠] و هذا يعني عودة ظفار إلى حضيرة السلطنة الكثيرية المرتبطة إدارياً

وسياسياً بالدولة القاسمية.و لهذا أشار العبدلي إلى أن الدولة القاسمية و لأول مرة في تاريخ الأئمة الزيديين تمكنت من توحيد اليمن بكامل أجزائه تحت سيطرتها المباشرة و غير المباشرة[١٤١] .وكما وصلت الدولة القاسمية قمة اتساعها في عهد الإمام إسماعيل[١٤٢] فقد شهدت السنوات العشر الأخيرة من حكمه بداية ضعف هذه الدولة ، و انتشار الفوضى السياسية ، وقد عانت من المشاكل الخارجية المتمثلة في استمرار الهجمات العمانية على السواحل التابعة لها ، الأمر الذي أفقدها جزءاً كبيراً من عائداتها[١٤٣] .

وبخلاف ذلك شهدت السلطنة الكثيرية في السنوات العشر بعد عودة السلطان بدر بن عمر إلى سدة الحكم نوعاً من الاستقرار و الهدوء النسبي لاسيما فيما يتعلق بالعلاقات الكثيرية القاسمية ، ربما جاء ذلك من أن فرع الأسرة الكثيرية الحاكم استعاد سلطته بالمساندة العسكرية القاسمية ، لهذا كان السلطان بدر بن عمر بمثابة عامل للدولة القاسمية . وقد احتلت هذه العلاقة أهمية خاصة في مكاتبات الحداد للسلطان الكثيري فقد طلب منه عدم جمع الزكاة إلا إذا كان مضطراً وعن طريق الإعلان المسبق للسكان[١٤٤] . على أن أهم هذه المكاتبات هي تلك التي بعثها للأمير محمد (المردوف) في أثناء غياب والده السلطان بدر بن عمر ، إذ طلب منه إجراء تغيير في سياسة والده الموالية للقاسميين و طلب منه الإشارة ووعده بالدعم[١٤٥] و تكمن أهمية هذه الرسالة في أنها كانت محاولة تشجيعية مبكرة من قبل الحداد لإعلان الكثيريين التمرد على الدولة القاسمية ، و لكن دلت الأحداث اللاحقة على أن الوقت كان مبكراً لإعلان مثل ذلك التمرد ، فقد عمل السلطان محمد المردوف (١٠٧٣-١٠٨٠ هـ/ ١٦٦٢- ١٦٦٩م) بعد أن تولى السلطنة بأمر الإمام إسماعيل بعد وفاة أبيه على تصفية حساباته[١٤٦] مع آل كثير و بعض القبائل الشنفرية الذين ساندوا الانقلاب السابق على والده ويذكر ابن حميد أنه ((فعل الأفاعيل و أخذ منهم الزكاة))[١٤٧] .

وعلى أية حال ، فإن القاسميين استفادوا من حالة الامتنان التي شعر بها هؤلاء السلاطين ، و أبقوا لهم و بذكاء الولاية العامة على حضرموت ، ولكن أشرفوا بشكل مباشر على الموانئ الحضرمية لاسيما الشحر وظفار و أرسلوا الولاة من قبلهم عليها ليضمنوا وصول عائداتهما الضخمة إلى عاصمة الدولة القاسمية[١٤٨] .

وقد شكلت وفاة السلطان محمد (١٠٨٠ هـ / ١٦٦٩م) بداية التململ في العلاقات الكثيرية القاسمية . ويبدو أن خلفاء السلطان محمد [١٤٩] أدركوا أن الإذعان المطلق لسلطة الدولة القاسمية خلال الفترة السابقة كان على حساب مصالحهم الاقتصادية ، و أن هناك حاجة لتعديل هذا الوضع ، وشجع على هذا الموقف انتشار التمردات ضد الحكم القاسمي في مناطق مختلفة من اليمن[١٥٠]. وبناءً على هذا التغير سيطر آل كثير على ظفار بالقوة و ذلك سنة (١٠٨٠ هـ / ١٦٦٩م) و أجبروا عامل الدولة القاسمية على الانسحاب مع من تبقى معه من العسكر بعد أن قتل عدد منهم عند محاولتهم التصدي لهذا الهجوم . كما حاول الإمام إسماعيل تدارك الموقف و أرسل مولاه عثمان بن زيد لولاية ظفار و لكنه لم يستطع أكثر من البقاء في مدينة الشحر فترة ثم عاد إلى الإمام[١٥١] .

وبعد هذا الفشل عرض الإمام ولاية حضرموت و ظفار على ابن أخيه الحسين بن الحسن الذي قبلها و أرسل مندوبين من قبله إلى حضرموت سنة (١٠٨١ هـ / ١٦٦٩م) ، و قد تصدى لهم الكثيريون وقتل اثنان من الوفد[١٥٢] ، و يبدو أن الدولة القاسمية غير مطلعة على طبيعة الموقف الكثيري و تصميم السلطنة الكثيرية على رفض السيطرة القاسمية ، و قد علق ابن الوزير بعد هذه الحادثة بقوله : ((أن أبناء تلك البلاد اسنوا إلى الاستبداد))[١٥٣].و يقصد بالاستبداد الاستقلال عن الدولة المركزية . و لم يبعد المؤرخ أبو طالب كثيراً عن هذا المعنى عندما علق على هذه الحادثة : ((و استبد الكثيري بالبلاد وقال البلاد بلادي و محلي))[١٥٤].

ولاشك أن هذا الموقف الكثيري يمثل تحولاً خطيراً في العلاقة مع الدولة القاسمية ، إذ عبّر الكثيريون من خلاله عن رفضهم لأسلوب السيطرة القاسمية المباشرة الذي اتبعه الإمام إسماعيل ، ومن جانب آخر يظهر هذا الموقف حالة الضعف التي كانت تعاني منها الدولة القاسمية . و بعد تلك المحاولات الضعيفة التي قام بها الإمام إسماعيل اضطر إلى الاعتراف بولاية آل كثير على حضرموت و ظفار مقابل تبعيتهم الاسمية لسلطة الدولة القاسمية[١٥٥] .

أما سيادة الدولة القاسمية على مدينة الشحر فقد تأرجحت بين فترات من القوة الضعف وكان الضعف غالباً ، و من مظاهره اضطرار الأمير المعين من قبل الإمام إلى مصالحة مندوبي

السلطنة الكثيرية في الشحر عندما تحدث الاختلافات المتعلقة بالإدارة فيها[١٥٦] و مع هذا فقد ظلت الشحر خاضعة للدولة القاسمية طوال فترة حكم الإمام إسماعيل .

وفي عهد الإمام المهدي أحمد بن الحسن (١٠٨٧- ١٠٩٢ هـ/١٦٧٦- ١٦٨١م) انشغلت الدولة القاسمية بمحاولات تثبيت سلطتها المتدهورة سواء من الخارجين عليها أو في أثناء الصراع مع المنافسين الذين دعوا لأنفسهم بالإمامة حسب المذهب الزيدي[١٥٧] . وأما بالنسبة إلى علاقة السلطنة الكثيرية بالإمام الجديد فقد ظلت على ما هي عليه من التبعية الاسمية ، كما تودد السلطان علي بن بدر الكثيري للإمام و بعث له هدية ورسالة عبر فيها عن بيعته له[١٥٨] . ويبدو أن السلطان الكثيري الرافض للوجود وللنفوذ القاسمي الفعلي في حضرموت ما كان بوسعه قطع العلاقات الكاملة مع الدولة القاسمية .

والجدير بالذكر أن العلاقات القاسمية الكثيرية ارتبطت منذ أواخر عهد الإمام إسماعيل بالأوضاع التي شهدتها الدولة القاسمية ، فعندما تزداد المصاعب و تتعدد الجبهات المعادية لها يتحرك الكثيريون بشكل أقوى من أجل التخلص التدريجي من سلطتها أو بالأحرى ما تبقى منها . و إذا كان كل من الإمام إسماعيل ثم بعده الإمام أحمد بن الحسن حافظا على شكل معقول من ارتباط السلطنة بالدولة القاسمية فإننا نجد في عهد خلفائهم انفراط عقد الدولة القاسمية في حضرموت وفي غيرها من المناطق ، بل امتد الضعف والانقسام إلى الأسرة القاسمية نفسها بحيث تعدد الأئمة المستقلون في مناطقهم[١٥٩] ولا شك في أن ذلك ساعد على فك ارتباط السلطنة بالدولة القاسمية .

ففي عهد الإمام المؤيد [١٦٠]محمد بن إسماعيل(١٠٩٢-١٠٩٧هـ/١٦٨١- ١٦٨٥م) انتشرت الفوضى ، وتمرد الأمير حسن الكثيري سنة (١٠٩٣هـ /١٦٨٢م) واستقل بحكم الشحر التي كان يحكمها نيابة عن الدولة القاسمية [١٦١] ، وأمام عجز الإمام المؤيد عن إزاحته ، أوعز للسلطان علي بن بدر للقضاء عليه فتحرك السلطان على رأس قوة إلى الشحر تدفعه الرغبة في السيطرة عليها ، والاستفادة من إمكاناتها الاقتصادية وتمكن فعلاً من دخول الشحر في السنة نفسها [١٦٢] .

ولعل أبرز نتائج هذه الحادثة أنها كشفت وبوضوح مدى ضعف سلطة الأئمة ، ولهذا عمل الكثيريون بعد ذلك على مجاملة من يرد إليهم من سفراء الأئمة ورسلهم دون أن ينفذوا أوامرهم في تولية أو عزل[١٦٣] . كما عمل السلطان علي بن بدر على إعادة راتب السقاف[١٦٤] المحظور منذ دخول قوات الدولة القاسمية إلى حضرموت[١٦٥] ، وإذا كان هذا الإجراء يبدو شكليا فإن له دلالة سياسية وهي أن طبيعة الحياة الاجتماعية في حضرموت عادت إلى خصوصيتها وتقاليدها دون أن يكون هناك تأثير عليها.

و أخيراً أدى ضعف الدولة القاسمية في حضرموت إلى بروز دور القبائل اليافعية التي بدأت تدخل تدريجياً في المعادلة السياسية في حضرموت حتى أصبح لها اليد الطولى فيها ، وهذا الأمر سنوضحه في المبحث القادم .

ثالثاً : انتشار الفوضى السياسية وسيطرة القبائل اليافعية على حضرموت:

كان لضعف الدولة المركزية القاسمية وانتشار التمردات المناهضة لسلطتها في مناطق مختلفة من اليمن أثره السلبي على الواقع السياسي في حضرموت ، فمعروف عن القبائل اليافعية أنها كانت أبرز القبائل التي ناهضت السلطة الإمامية في مناطقها وتمكنت من التخلص من سيطرتها . وقد شجعت الانتصارات اليافعية على تطلع بعض الكيانات القبلية المجاورة لها على الاستقلال بأمرها بل استعانت بالقبائل اليافعية لتحقيق ذلك[١٦٦] .

وقد ألقى الصراع السياسي القاسمي اليافعي بظلاله على الصراع الأسري الكثيري ، وأدخل حضرموت في دوامة من الفوضى وعدم الاستقرار إذ أدى استنجاد المتنافسين الكثيريين بهؤلاء إلى تعمق الانقسام الأسري الكثيري من جهة ، وإلى تدخل هذه القوى في شؤون حضرموت ، بمعنى آخر تحولت حضرموت إلى مسرح بعيد وغير مباشر للصراع اليافعي القاسمي ، على أن ذلك هو جزء من الصورة ، وذلك أن جميع القوى المتصارعة في حضرموت كان لها أهدافها المتباينة وإن اشترك عدد منها في بعض الأهداف العامة .

ولقد تبلورت هذه الحالة أكثر في عهد السلطان بدر بن محمد(المردوف) (١١٠٧ –١١٢٠هـ/ ١٦٩٥ – ١٧٠٨ م)[١٦٧] ومنذ هذا العهد بدأ العد التنازلي لانهيار السلطنة الكثيرية ، إذ ظهر أكثر من متنافس كثيري على السلطة من أهمهم (السلطان)[١٦٨] عيسى بن بدر بن علي الكثيري الذي استقل بالحكم في مدينة سيئون ، و (السلطان) عمر بن جعفر. ولعل من المفيد أولاً استعراض دور أهم القوى التي أدلت بدلوها في الصراع السياسي القبلي في حضرموت في عهد السلطان بدر بن محمد (المردوف) هذه القوى هي : القاسميون – اليافعيون – الأمراء الكثيريون .

أما القاسميون فقد حاولوا نظرياً إعادة سلطتهم في حضرموت، ففي سنة (١١١١هـ / ١٦٩٩م) أرسل الإمام المهدي[١٦٩] وفداً يحمل رسائل إلى سادة حضرموت وفضلائها وفيها أمر بوجوب طاعته[١٧٠]. وكان الحضارم – كما ذكرنا – يستقبلون الوفود الإمامية بتقدير وحفاوة وقتية ، وفي الواقع لا يلتزمون بما يطلب إليهم من أوامر وتعليمات وعندما تجدد الصراع الأسرى الكثيري تجدد الأمل لدى القاسميين في إعادة سيطرتهم على حضرموت من خلال مساندتهم للطرف الكثيري المؤيد لهم .

وأما اليافعيون بوصفهم قوة عسكرية وقبلية كانوا موجودين في حضرموت منذ القرن السادس عشر الميلادي [١٧١] (أي قبل السيطرة القاسمية على حضرموت) ، ولكنهم لم يكونوا ضمن المعادلة العسكرية المؤثرة في مجريات الأحداث السياسية التي شهدتها حضرموت آنذاك . وكان وجودهم رسمياً إذ يعدون من عساكر السلطنة [١٧٢]. وكان للسمعة الطيبة التي حصل عليها اليافعيون بعد انتصاراتهم على القوات القاسمية ومساندتهم للقبائل المجاورة لهم أن جعلت كلاً من السلطان علي بن بدر ثم السلطان بدر بن محمد (المردوف) يستكثران ضم اليافعيين إلى قواتهم حتى أصبحوا جزءاً مهماً من التركيبة السياسية في السلطنة في وقت شهدت الانقسام[١٧٣] . وما يستوجب الذكر هو ذلك الارتباط الروحي بين القبائل اليافعية و أسرة آل الشيخ أبي بكر بن سالم في عينات ، فقد كانت هذه القبائل تعظم هذا الشيخ وتعتبره مرجعاً ومصلحاً في كل ما يتعلق بشؤونها[١٧٤] وكان الشيخ أبو بكر قبل وفاته سنة (٩٩٢هـ - ١٥٨٤م) نصب علي بن هرهرة اليافعي مرشداً ومصلحاً دينياً في يافع العليا [١٧٥] ولكن ظل الارتباط الروحي اليافعي لأبناء الشيخ أبي بكر وأحفاده.

ففي سنة (١١١٣هـ /١٧٠١م) وصل الشيخ عمر بن صالح بن هرهرة إلى حضرموت لزيارة (منصب) آل الشيخ أبي بكر ومعه نحو خمسين شخصاً من رجال يافع وقد مروا في طريقهم إلى عينات ببعض المدن الحضرمية إذ عملت لهم الضيافات[١٧٦] وقد أشار باحنان لمغزى هذه الزيارة وقال: ((وهذه الزيارة ليست للتبرك فحسب فمن مقاصده إظهار نشوة النصر والغلبة على الإمام و أراد منافسته ومضايقته في كل مكان له نفوذ))[١٧٧] وقد ساعدت هذه العلاقة علاوة على كل ما ذكرنا على ربط القبائل اليافعية بمجريات الأحداث السياسية في حضرموت ، ولهذا يمكن القول إن اليافعيين لم يكونوا غرباء[١٧٨] على الواقع السياسي في حضرموت وقد زادت زيارة الشيخ بن هرهرة الأخيرة من الدعاية لهم عند السلاطين الكثيرين المتنافسين لجلب عسكر منهم يسندون قواتهم[١٧٩] ثم تطورت مساهمة اليافعيين في الأحداث السياسية في حضرموت حتى وصلت إلى خطوط متقدمة في الحكم كما سوف نشير.

وعلى صعيد الصراع الأسري الكثيري نافس السلطان القائم كلا من (السلطان) عيسى بن بدر و (السلطان) عمر بن جعفر بن علي ولم يكن الأخيران رغم القرابة بينهما يمثلان

جبهة موحدة ضد السلطان الرسمي ، بل كان لكل منهما أهدافه وطموحاته (فالسلطان) عيسى استطاع الاستقلال بحكم سيئون[١٨٠] ، وأخذ يبحث له عن مكان مناسب وسط ركام الفوضى السياسية وضعف نفوذ السلطان بدر بن محمد .

وقد تزامنت الفوضى السياسية مع الانفلات الأمني الذي شهدته حضرموت ، فقد تجرأت القبائل الشنفرية على مداهمة بيوت السكان ومارست أعمال النهب تحت التهديد بالقتل وحول ذلك ذكر ابن حميد : ((فلما اشتدت شوكة الشنافر خوفوا الناس ..... ولا أحد يسرح [يذهب إلى عمله] من سيئون وغيرها إلاّ بربيع [رفيق حارس][١٨١])). كما أسهم الانقسام الأسري وغياب سلطة الدولة القوية إلى تجدد الأعمال المعادية التي قام بها الشيخ محمد بن مطهر العمودي ، وتجرأ سنة (١١١٥هـ/١٧٠٣م) على مهاجمة البلدات الكثيرية[١٨٢] ، ورداً على هذا التحدي الواضح تقدم الأمير جعفر بن عيسى الكثيري [ابن سلطان سيئون] على رأس جيش إلى دوعن ، ولكن العموديين استطاعوا ان يكمنوا للقوات الكثيرية عند عقبة (مسه) بدوعن وانتصروا عليها [١٨٣]. و تعكس هذه الهزيمة مدى الضعف والانقسام الذي عانى منه الكثيريون آنذاك .

ومن أهم الشخصيات الكثيرية التي ظهرت في هذه الفترة (السلطان) عمر بن جعفر الذي دخل مع سلطان سيئون في خلاف حاد[١٨٤] ، فقد استولى الأول على عدد من الخيول التابعة للثاني ، وبعد أن عقد الصلح بينهما اتفقا بموجبه على عودة الخيول المنهوبة مقابل إرجاع (السلطان) عيسى ما هو معتاد له من بيت المال [١٨٥]. و قد اعتمد (السلطان) عمر بن جعفر في بداية تحركاته على لفيف من عناصر يمنية من خارج حضرموت ، مارست أعمالاً مختلفة من النهب و التقطع ، ساعدهم على ذلك ضعف شوكة السلطنة. و قد تفاقم الصراع بين السلطانين رغم المحاولات التي بذلها المصلحون من آل الشيخ أبي بكر [١٨٦]. ثم نستدل من حوليات ابن حميد أن هناك اتفاقاً جرى بينهما كان أبرز مظاهره تبعية عسكر السلطان عمر بن جعفر له [١٨٧] ، ولم يشر إلى حيثيات هذا الاتفاق ، وعلى أيّة حال فقد غادر (السلطان عيسى) حضرموت سنة (١١١٦ هـ / ١٧٠٤م)[١٨٨] . وبخروجه انحصر الصراع الأسري الكثيري في كل من (السلطان) عمر بن جعفر والسلطان القائم بدر بن محمد (المردوف).

اعتمد المردوف على العناصر اليافعية المقيمة في حضرموت ، و رغم قوة شوكة هذه العناصر فإنها لم تكن من الكثرة بحيث تستطيع أن تحدث تغيراً في ميزان القوى في حضرموت، كما كان للفوضى القبلية الضاربة أطنابها و تداخل مصالح المتنافسين وتعددها دوره في صعوبة أن تكون لطرف منها اليد الطولى في حسم الخلافات . لهذا عمل السلطان المردوف في أثناء الخلاف السابق بين (السلطانين) على الذهاب إلى منطقة يافع للتفاوض معهم واستقدام جنود منهم يعضدونه ليستعيد سلطته[١٨٩] ويحفظ مركزه شبه المتزعزع . ويرى بعض المؤرخين [١٩٠] أن هذه الخطوة جاءت بالتنسيق مع آل الشيخ أبي بكر الرافضين للوجود القاسمي في حضرموت ، لهذا زودوا السلطان برسائل إلى شيوخ يافع دعوهم فيها للقضاء على بقايا الوجود القاسمي في حضرموت ، و لإنقاذ القبائل اليافعية المستوطنة في حضرموت من اضطهادات (السلطان) عمر بن جعفر ، ولأن لأسرة آل الشيخ أبي بكر سلطة روحية على يافع فقد لبوا دعوته و استجابوا لندائه .

في الجانب الآخر نجد (السلطان) عمر بن جعفر الرافض للوجود اليافعي في حضرموت عمل على التقرب من الأئمة في صنعاء و استنجد بهم للوقوف إلى جانبه ، بل تظاهر بموالاة الأئمة حتى أشيع انه اعتنق المذهب الزيدي[١٩١] .

وهكذا انقسم الناس في حضرموت فريقين (و الناس على دين ملوكها) هما : آل بدر بن عمر برئاسة السلطان بدر المردوف وآل عبد الله بن عمر برئاسة (السلطان) عمر بن جعفر. الفريق الأول يرفض أي شكل من أشكال السيطرة او التبعية للدولة القاسمية و يحبذ المساندة اليافعية ، والفريق الثاني يجنح إلى الدولة القاسمية و يفضل سلطتها و لو في الظاهر [١٩٢]. وقد أعطى بعض المؤرخين بعداً مذهبياً رئيساً لذلك الخلاف والانقسام[١٩٣] بأنه بين أنصار الزيود الشيعة و السنة الشوافع . ولكن يبدو أن ذلك هو مظهر الصراع ، إذ حاول طرفا السلطة الكثيرية المتنافسان الإفادة منه لتحقيق مكاسب سياسية . و حضرموت لم تشهد في تاريخها الحديث صراعاً مذهبياً يذكر ، حتى عندما كانت السيطرة القاسمية القوية عليها لم يحدث فيها إلا تغييرات مذهبية شكلية سبقت الإشارة إليها ، إذ كان اهتمام القاسميين منصباً على جمع الزكاة و الضرائب لرفد خزينة الدولة القاسمية وكان ذلك أهم أسباب سيطرتهم على

حضرموت . كما أن المصادر التي وقفنا عليها لم تذكر أن اليافعيين تمترسوا في صراعهم مع الأئمة القاسميين تحت حجة الدفاع عن الشوافع ، بل من أجل التخلص من سيطرة الدولة القاسمية التي اتصف بعض عمالها بالجور و المبالغة في أخذ الضرائب [١٩٤]. فضلاً عن طبيعة المجتمع القبلي الذي يرفض الإذعان للسلطة المركزية . و نخلص إلى القول إن الصراع كان في جوهره سياسياً سواء كان بين القاسميين و اليافعيين أو بين سلاطين الأسرة الكثيرية ، إذ حاول المتنافسون و المتصارعون الاختفاء وراء الخلافات المذهبية . ومن المفارقات الغريبة أن يكون السلطان بدر المردوف هو الذي يتزعم التيار المناهض لعودة تبعية حضرموت للدولة القاسمية ، فقد ذكرنا أن أباه وجده السلطان بدر بن عمر على وجه الخصوص كانا من أشد المناصرين لامتداد الحكم الإمامي القاسمي في حضرموت .

و كيفما كان الأمر فإن السلطان بدر المردوف تقدم في أواخر سنة (١١١٦ هـ /١٧٠٤م) من منطقة يافع ويصحبته ستة آلاف من رجال يافع و الأمير عمر بن هرهرة شقيق السلطان اليافعي [١٩٥]، و يعد ذلك من نقاط التحول في التاريخ الحضرمي . ونستنتج من ضخامة العدد الذي يصعب أن تستوعبه إمكانات السلطنة الكثيرية المنهكة آنذاك مدى الانقسام و الفوضى السياسية السائدة ، وربما أراد السلطان بدر ضمان تحقيق انتصار كاسح على منافسه (السلطان) عمر بن جعفر الذي كان يتصرف في حضرموت كسلطانٍ فعلي [١٩٦] .

وعلى أيّة حال فإن أخبار تقدم الحملة التي يقودها السلطان المردوف كانت تصل إلى داخل حضرموت ، و في المقابل كانت الاستعدادات تجري لبحث سبل التصدي لها ، فقد اتصل (السلطان) عمر بن جعفر بالقبائل الحضرمية وطلب مساعدتها [١٩٧]. و قد توترت الأجواء السياسية في حضرموت وأصبح الوضع ينذر بوقوع المعركة الكبرى و عواقبها ووصف ابن حميد هذه الظروف بعاميته حيث قال: ((و في هذه الأيام معاد لما عادا أحد يسرح إلى شبام لا أحد يسير و لا يربع و لا يتربع)) [١٩٨].

وفي السادس عشر من ذي الحجة (١١١٦ هـ / ١٧٠٤م) خرجت قوات السلطان عمر بن جعفر من شبام وكانت تتكون من ١٥٠٠ مقاتل أغلبهم من العسكر الرسميين ، ومعظم القبائل الشنفرية ومن تطوع من القبائل الحضرمية و أشراف الجوف [١٩٩]. كما حاول توسيع

قاعدة جبهته و ذلك بالاتصال بالشيخ العمودي ليستميله إلى جانبه ، أو يبقيه على الحياد ولكنه لم ينجح في شيء من ذلك ، و ربما جاء هذا الفشل من حسابات خاصة للعمودي ذلك أن الحملة المتقدمة من يافع إلى حضرموت ستمر أولاً بمنطقة نفوذه في وادي دوعن قبل دخولها بطن وادي حضرموت ، و هذا يعني أن منطقة نفوذه ستكون خط المواجهة الأول إذا تحالف مع السلطان عمر ، و بخلاف ذلك تحالف مع السلطان بدر المردوف بشرط عدم المساس بسلطته في دوعن [٢٠٠].

وكيفما كان الأمر فقد التقى الفريقان في منطقة بحران و جرت معركة عنيفة استخدمت فيها أنواع الأسلحة و انتهت بانتصار السلطان بدر المردوف الذي تمكن من دخول مدينة شبام في المحرم (١١١٧ هـ / ١٧٠٥م)[٢٠١] و هكذا ظهر كأن السلطنة الكثيرية تستعيد تماسكها وتشهد حضرموت حالة من الاستقرار و الهدوء ، و لكن فرص الاستقرار كانت في حقيقة الأمر ضئيلة ، فالقبائل اليافعية لم تحمل أفكار (الإنقاذ) فقط كما هو الظاهر بل كانت لها أفكارها السياسية و الاقتصادية الخاصة بها والسؤال الذي يطرح نفسه هو : ما مدى و أبعاد الوجود اليافعي في حضرموت ؟ و كيف سارت المحاولات الكثيرية للحد من هذا الوجود ؟

ازدياد النفوذ اليافعي وسقوط السلطنة الكثيرية :

أدت حملة السلطان بدر بن محمد المرذوف في حضرموت إلى تغيير ميزان القوى القبلي لصالح اليافعيين ، كما أفرزت وقائع سياسية جديدة أصبحت كما يبدو أكبر من مدى التزام وتحالف القبائل اليافعية مع السلطان بدر و طاعتهم الروحية للسادة آل الشيخ أبي بكر في عينات . ولعل أول هذه الوقائع السياسية أن السلطان بدراً نفسه أصبح خارج إطار السلطة الفعلية ، و ظل كذلك حتى وفاته سنة (١١٢٠ هـ / ١٧٠٨م) و لأن الأعداد الكبيرة التي قدمت إلى حضرموت كانت أكبر من إمكانات السلطنة الكثيرية في استيعابهم وتنظيمهم لذلك بحث العديد منهم على مصادر رزق لهم خارج القنوات الرسمية ، لهذا مارس اليافعيون في هذه الفترة أعمال السلب والنهب على العناصر الحضرمية غير المسلحة في المجتمع ، بحيث بلغت هذه الأعمال حداً أحرج حلفاءهم من آل الشيخ أبي بكر[٢٠٢] ، ودفعهم إلى التحرك من اجل وقف هذه الأعمال . و قد دعا الشيخ محسن بن الشيخ أبي بكر رؤساء القبائل اليافعية إلى الاجتماع به لبحث هذه الأعمال ، وفي الاجتماع حثهم على الالتزام بالهدوء ، ووعدهم بتحمل نفقات الراغبين في العودة إلى يافع كما شجعهم على الانضمام إلى جنود السلطنة بشرط : ((من طلع داراً و أخذ على أحد شيئاً فهو فسحة))[٢٠٣] أي مفصول من الخدمة.

وتظهر هذه الأحداث حالة الاستقواء التي شعر بها اليافعيون في حضرموت وكذلك مضمون أهدافهم الاقتصادية من قدومهم إلى حضرموت ، وأنها ليس إنقاذاً لحضرموت كما يقول بعضهم[٢٠٤] بل جمعت بين هذا وذاك.

ولعلنا لا نجانب الصواب إن اعتبرنا القدوم اليافعي إلى حضرموت من أكبر الهجرات الداخلية في جنوب الجزيرة العربية في العصر الحديث . و قد تناولت بعض المصادر الحضرمية فترة السيطرة اليافعية بالكثير من النقد والتشويه من ذلك ما ذكره باحسن بأسلوبه المسجع حيث قال : ((وما هذا إلا أنهم عاثوا في البلاد وأكثروا الفساد ، و أخذوا أموال الناس و أباحوا المحرمات .... و صارت الأمور لغير أهلها و حالت الأشياء عن محلها ، وامتحن الناس بغاية المحن واستعرت في أيامهم نيران الفتن))[٢٠٥] .

اضطلع السلطان عمر بن جعفر الكثيري بدور المقاوم للوجود اليافعي في حضرموت منذ السنوات الأولى لوجودهم الفعلي في حضرموت وقد مرت علاقته معهم بمرحلتين ،إحداهما مرحلة العداء الممزوج أحياناً بالتحالف معهم لاسيما عندما كان يسعى لتقوية نفوذه السياسي ،والأخرى :هي العداء السافر و كان على السلطان عمر بن جعفر أن يواجه التحالف الشكلي بين القوى اليافعية والسلطان بدر المردوف ،و قد عمل على شق هذا التحالف من خلال الهجمات الخاطفة على بعض المراكز وتأليب القبائل الحضرمية و طلب مساعداتهم بالتنسيق مع أعوانه من الكثيريين[٢٠٦].

و قد نجح السلطان عمر في كسب تأييد قبيلة الحموم و بعض آل العمودي، وفي عملية خاطفة تقدم إلى وادي حضرموت و دخل مدينة سيئون في رمضان (١١١٧هـ/١٧٠٥م) بعد انحياز قائد الحامية اليافعية له[٢٠٧] و ربما كان ذلك باتفاق مسبق بينهما لاسيما أن السلطان بدر المردوف لم يلبِ مطالبات يافع بزيادة مخصصاتهم الشهرية ،كما لم تسلم جبهة السلطان عمر من هذه المشكلة إذ إنه لم يستطع أن يفي بالتزاماته المالية لقبيلة الحموم التي أسهمت في كسبه هذه الجولة[٢٠٨] . وهكذا يتضح أن الصراع القبلي السياسي في حضرموت تحكمه الظروف الاقتصادية الصعبة للقبائل وليس الأهداف والمبادئ المعلنة، كما أن تعقد هذا الصراع و الغموض الذي يكتنفه جعل من الصعوبة بمكان وضع تحديد ثابت لأقطابه ،ذلك أن تداخل التحالفات وبروز الانقسامات حتى في إطار القطب أو القبيلة الواحدة يعد سمة من سمات ذلك العصر ،وقد تأرجح الدور القيادي لآل كثير في هذا الصراع حتى سار في أغلب مراحله الأخيرة باتجاه الانحدار أو السقوط .

ورغم العداء الواضح الذي أظهره السلطان عمر بن جعفر للوجود اليافعي ،فإنه كان يلجا أحياناً للاستفادة منهم جنوداً في قواته بأجر مادي و عيني[٢٠٩] ، يضطره إلى ذلك متطلبات الصراع القبلي وضغط السادة في حضرموت لاسيما آل الشيخ أبي بكر الذين يفضلونهم على الزيديين[٢١٠]. و احتلت مسألة تسجيل أفراد القبائل اليافعية كعسكر رسميين أهمية كبيرة في مفاوضات و اتصالات آل الشيخ أبي بكر مع الكثيريين واليافعيين، فآل كثير يدركون خطورة وجود الأعداد الزائدة من يافع في حضرموت على نظامهم السياسي، ويافع يدركون أن أي خلل في توازن القوى لصالح الكثيريين يعد تهديداً لبقائهم في حضرموت لاسيما أن قسماً كبيراً منهم

جعل من منطقة حضرموت موطناً بديلاً عن منطقة يافع الجبلية[٢١١] . وقد استفحلت المشكلة عندما قدمت في سنة (١١١٨ هـ / ١٧٠٦م) أعداد كبيرة منهم ، فتطلب الأمر جولة جديدة من المفاوضات ، كانت و جهة النظر اليافعية هي تسجيل جميع القادمين الجدد جنوداً وصرف معاش معين لهم ، أما (السلطان) عمر فيرى ذلك ثقلاً على قدراته الاقتصادية ، و لتقريب وجهات النظر تدخّل السادة آل الشيخ أبي بكر الذين يحرصون دائماً على إرضاء الطرفين واقترحوا عودة جزء من اليافعيين مع التزام السلطان عمر بتحمل تكاليف رحلة العودة ، وتسجيل الباقين على أن يتفرقوا في مناطق مختلفة من حضرموت . و بموجب الاتفاق التزم اليافعيون بالامتناع عن القيام بأعمال السلب ، و فيما يتعلق بالممتلكات التي تعود للقاسميين في حضرموت رأت يافع أنها لهم بعدهم لأنهم اضطلعوا بالدور الأساسي في إنهاء بقايا سلطة القاسميين في حضرموت بينما رأى السادة أن ذلك من حق (السلطان) عمر بن جعفر و بأن له حرية التصرف فيها[٢١٢] .

يتضح مما سبق أن الوجود اليافعي في حضرموت بدأ يتعزز . ويدعم ذلك حالة الانقسام السياسي فيها و النزاع الأسري الكثيري المزمن ، و دعم أسرة آل الشيخ أبي بكر الروحي لهم هذا فضلاً عن صفات شخصية في اليافعيين وهي شجاعتهم و توحيد موقفهم تجاه الأخطار التي واجهتهم[٢١٣] . وفي محاولة لوضع حد لتنامي النفوذ السياسي اليافعي في حضرموت أو في الأقل إيجاد نوع من التوازن العسكري فيها توجه (السلطان) عمر بن جعفر إلى الإمام المهدي و طلب مساعدته ، وقد سنده الإمام بأعداد من الجنود بلغت نحو ٣٠٠ رجل من قبيلتي حاشد و بكيل و١٠٠ من قبائل شماليّ صنعاء و ٢٠٥ من قبائل أخرى وكان معظم أفراد هذه القوة مزودين بالبنادق[٢١٤] .

و بهذه القوة تمكن من دخول مدينة الشحر في جمادى الأولى سنة (١١١٨ هـ / ١٧٠٦م) بلا قتال ، ثم أرسل الرسائل إلى مشايخ حضرموت وأعيانها ذكر فيها أن الإمام وجهه إلى حضرموت وأن على الجميع الطاعة ، وقد انضم إلى قواته الجنود اليافعيون الموجودون في الشحر[٢١٥] . وقد سبقت و صول الحملة إلى حضرموت دعاية واسعة حول ضخامتها وخلقت حالة من الخوف و الترقب عند السكان[٢١٦] .

إن استعانة (السلطان) عمر بن جعفر بالعناصر اليافعية و القاسمية المتنافرة جعلته يدخل في توازنات محفوفة بالمخاطر و من الصعوبة استمرارها ، والسؤال الذي يطرح هنا : لماذا لم

يركز في جهوده على إحدى هاتين القوتين ؟ و إلى أي مدى نجح في التوفيق بينهما ؟ نعتقد أن (السلطان) عمر بن جعفر كان على معرفة بحقيقة الواقع السياسي في حضرموت الذي فرض عليه بداية تحركاته عدم الكشف الكامل عن عدائه لبافع المترسخ نفوذها في حضرموت ، كما أن الاعتماد الكامل على القوى اليافعية يمكن أن يؤدي إلى النتيجة التي آل إليها السلطان بدر المردوف والذي أصبحت سلطته خلف السلطة اليافعية . كما أن المساعدة التي قدمتها الدولة القاسمية ليست من الكثرة بحيث تمكنه من إحداث وقائع سياسية لصالح تقوية نفوذه . و على أية حال فإن سياسة الموازنات حملت في طياتها أسباب فشلها ، إذ سرعان ما برزت الحساسيات و الخلافات بين الطرفين رغم محاولاته في استرضائهما.

وانطلاقاً من شعور اليافعيين بالقوة عمل عدد منهم على القيام بأعمال السلب و اقتحام البيوت ، وقد وصلت هذه الأعمال حداً بحيث لم يستطع آل الشيخ أبي بكر و ضع حد لها ، ويرى ابن حميد أن هدف يافع من هذه التصرفات هو الضغط على (السلطان عمر لإخراج (الزيود) من حضرموت لأنهم اعتبروا بقاءهم نوعاً من الغدر بهم [٢١٧] أبرز نتائج هذه الفوضى السياسية سقوط ظفار سنة ١١١٩ هـ / ١٧٠٧م بيد القبائل المهرية ، و تولى فيها الحكم سعيد بن طوعري المهري،[٢١٨] وبهذا فقد الكثيريون ثاني أهم موانئ السلطنة .

و كان لوفاة السلطان بدر بن محمد المردوف (١١٢٠ هـ / ١٧٠٨م) و خلو الساحة من السلاطين الكثيريين المنافسين[٢١٩] زعم السلطان عمر بن جعفر الأسرة الكثيرية المتحمسة لاستعادة نفوذها ، و لأن ذلك لن يأتي إلا بإزاحة مراكز القوى اليافعية من مواقعها وحصونها لهذا دخل السلطان عمر في المرحلة الثانية من علاقته مع اليافعيين و هي العداء السافر . و في هذه الأثناء ازدادت حالة الفوضى السياسية في حضرموت واستأنف اليافعيون جهودهم في تقوية جانبهم من خلال السيطرة على الحصون و المراكز المهمة ، و ربما شعورهم بالخوف على وجودهم في حضرموت جعل الاحترام الذي يظهرونه لآل الشيخ أبي بكر يتضاءل [٢٢٠]. وقد وصف الحداد الأوضاع السياسية المتردية في حضرموت من إحدى مكاتباته ومما جاء فيها : ((وإنما أمور السياسات السلطانية فلم يبق هناك شيء إلا رسوم لا يعول عليها مع جور وظلم غالب لا يكاد يصدق من ثقله و سبب ذلك بعد تقدير الله العزيز العليم ضعف يد الدولة وتغلب الجند عليهم و الأمر كله لله و الزمان زمن فتن ومحن))[٢٢١] .

وفي تلك الظروف الدقيقة التي مرت بها السلطنة الكثيرية نشطت الأعمال العسكرية العمودية المعادية لآل كثير [٢٢٢] ففي رمضان (١١٢٣ هـ / ١٧١١م) أغار الشيخ حسن بن مطهر العمودي على بلدة الهجرين ومارس أعمال السلب و النهب ، و رداً على ذلك تقدم السلطان عمر بن جعفر إلى دوعن و هاجم العمودي حيث جرت معركة انتصر فيها الكثيريون [٢٢٣] .

وانطلاقاً من إدراك السيد الحداد لخطورة هذا الصراع في تشتيت جهود السلطان عمر، فقد حاول وضع حد له و ذلك بأن طلب من السيد عمر العطاس التوسط بينهما ومما جاء في هذه الرسالة المهمة : ((و عسى السلطان إذا حصل الأمن و السكون من جهة الشيخ (العمودي) يتفرغ لحسن النظر بأمور رعيته و أهل الجهة ، و يأخذ بالهمة و الجد في تخفيف هؤلاء العسكر الذين كثرت أشغالهم وأثقالهم على أهل الجهة مع كثرة المطالب على الرعية إلى أن أضعفتهم و شتتتهم في البلاد)) [٢٢٤] .

لاقت رسالة الحداد استجابة سريعة عند العطاس الذي أرسل ابنه الحسين للتوسط في إنهاء هذا الصراع، وقد نجح في عقد صلح بين الطرفين لمدة ثلاثة أشهر [٢٢٥]، الأهمية التاريخية لهذه الرسالة في كونها سلطت الأضواء على الواقع السياسي والاجتماعي في حضرموت وصورته خير تصوير ، ومن أبرز ما أفصحت عنه ذلك المدى البعيد الذي وصل إليه النفوذ اليافعي في حضرموت بحيث أصبحوا سلطة قائمة الى جانب سلطة السلطان الكثيري .

وأمام عجز السلطان عمر بن جعفر في الإمساك بزمام الأمور ، اضطر للاستعانة بقوى من خارج حضرموت و ذلك لتثبيت مركزه السياسي ، وهذه القوى هي قبائل العوالق غرب حضرموت ، وعندما وصل إلى هينن سنة (١١٢٥ هـ / ١٧١٣م) و بمعيته أكثر من (٨٠٠) رجل من العوالق تدخل السيد الحسين بن عمر العطاس و عقد صلحاً هشاً بين الطرفين وبموجبه اتفقا على أن يكون اليافعيون تابعين للسلطنة الكثيرية وأن تقلل رواتبهم [٢٢٦] ولاشك أن قبول قبائل يافع النظري لهذه البنود التي تحد من تحركاتهم ، تأتي من كونهم حتى ذلك الحين جنودا للسلطنة الكثيرية ، كما لم يكن لهم كيان سياسي محدد داخل حضرموت ينضوون تحته ، وكان انتماؤهم الحقيقي لرؤسائهم القبليين ، و لأن فاعلية بنود الاتفاقيات في الغالب يفرضها مدى قوة واضعيها ، فإن هذا لاتفاق الأخير لم يدخل حيز التنفيذ العملي

، فمن جهة كان اليافعيون من القوة بحيث يستطيعون التملص منه ومن جهة أخرى نجد السلطان عمر بن جعفر اعتمد في فرض شروط الصلح على الدعم القبلي الخارجي المؤقت لهذا فهو لا يستطيع أن يجبر اليافعيين على قبوله طوال الوقت .

و على أيّة حال فإن الصلح لم يصمد كثيراً و سعى كل طرف إلى تقوية موقفه من خلال السيطرة على الحصون و المواقع المهمة ، و لم يَخْلُ الأمر من حدوث اشتباكات متفرقة وسقوط قتلى[٢٢٧] . استأنف السلطان عمر بن جعفر سياسته القائمة على طلب المساعدة الخارجية و اتصل بالدولة القاسمية للمرة الثانية في أواخر سنة (١١٢٩هـ / ١٧١٦م) التي أرسلت معه قوات قبلية[٢٢٨] ، انضم إلى الجيش عناصر قبلية متعددة في أثناء تقدمه الى حضرموت فتكون جيش كبير . و قد أشار الحداد في إحدى رسائله إلى أن هذه القوات الكثيفة حاصرت شبام التي تحصن فيها اليافعيون.[٢٢٩]

ويبدو أن اليافعيين استخدموا، وبذكاء، الأسلوب الدفاعي لأن طول أمد الصراع في ظل الظروف الاقتصادية الصعبة التي شهدتها حضرموت ينصب في مصلحتهم وقد نجح هذا الأسلوب ونلحظ ذلك في رسالة الحداد التي جاء فيها : ((ولم يكن عند القوم الواصلين معرفة بتدبير الحروب وحسن الرأي فيها فيما كان ينبغي وطالوهم في الحصار ولا هناك مواد مع السلطان لأن الجهة خالية من طعام بني آدم والدواب ... فرجعت الأقوام من حيث جاءت لا غالبين ولا مغلوبين))[٢٣٠] ، وقد جرت بعد ذلك مراسلات بين السلطان عمر والسيد الحداد انتقد في إحداها استقدام السلطان القوات القبلية الأخيرة التي حاصر بواسطتها شبام وفي هذا الصدد أشار : ((ولو أنك خرجت إلى الجهة ومعاك عشرة أنفس لكان العسكر من يافع يقبلون ذلك منك ويسرهم ويكونون معك .. و الآن حصلت فتون وحزون وأحقاد من غير طائل و لا نفع))[٢٣١] .

ويبدو أن الأعداد الكبيرة التي تقدم بها السلطان عمر أثارت حفيظة اليافعيين ومخاوفهم وعدوها موجهة ضد وجودهم في حضرموت لهذا قاوموها . ولا نميل إلى ما ذهب إليه الحداد بأنه لو دخل حضرموت بأعداد قليلة لربما قبل يافع ذلك منه ، وكما هو واضح فإن الحداد كان يكتب رسائله برؤية المصلح الاجتماعي الذي يبحث في داخل النزاع عن حلول وسط تضع حداً للفوضى وسفك الدماء . ولم يعد جوهر الصراع يتعلق بطاعة اليافعيين أو عدم

طاعتهم للسلطنة بل صراع مصالح سياسية ومراكز قوى وحاول كل طرف أن يعززها لنفسه، كما أن السلطان عمر لم يلجأ إلى الدولة القاسمية إلا بعد أن أدرك أن لا أمل في إخضاع القبائل اليافعية إلا بعد الاستعانة بها أو بغيرها من القوى القبلية القريبة لحضرموت كما ذكرنا.

استمرت المحاولات الكثيرية في مهاجمة المواقع اليافعية ففي ربيع الأول سنة (١١٣٠هـ/١٧١٧م) هاجم السلطان عمر تريم وسيطر على بعض أحيائها وحاصر بعضها الآخر[٢٣٢]، وأمام عجزه عن الاستيلاء على المدينة كلها وتحقيق نصر على القوات اليافعية المتحصنة فيها اتصل السلطان بالسادة لغرض التوسط وحل النزاع[٢٣٣] وكانت هذه آخر المحاولات القوية التي قام بها السلطان عمر بن جعفر لزحزحة الوجود اليافعي من حضرموت، وتركت هذه المحاولة آثارها السلبية على الأوضاع السياسية والاقتصادية المتردية أصلاً.

فعلى الصعيد الاقتصادي عمل السلطان عمر على تعويض خسائر نزاعاته من خلال اتباع أسلوب الدولة القاسمية في أخذ الزكاة وهو الأمر الذي رفضه العلماء والفقهاء[٢٣٤]، وعلى الصعيد السياسي أوضح هذا الفشل مدى ترسخ الوجود اليافعي في حضرموت. ويبدو أن سكان حضرموت أدركوا هذه الحقيقة لذلك ازداد ارتباط المصالح الاقتصادية فيما بينهم بل لقد استدانوا منهم بالربا[٢٣٥].

وهكذا تسارعت خطوات السلطنة الكثيرية باتجاه التدهور بحيث أصبح من الصعوبة معه الإمساك بزمام الأمور ولو في الحد الأدنى، ولهذا كتب الحداد رسالة شديدة اللهجة إلى السلطان عمر حذره فيها من مغبة بقاء الواقع المتردي على ما هو عليه بينه وبين يافع والآثار المترتبة على ذلك، واختتم رسالته بأسلوب المصلح الديني محملاً الطرفين المسئولية أمام الله ((وذلك في رقبتك ورقابهم)) [٢٣٦].

ونستنتج من هذه الرسالة شبه اليائسة عمق الفوضى السياسية التي شهدتها حضرموت آنذاك، على أن أبرز ما نستنتجه فيها أنها أرخت للنزع قبل الأخير للسلطنة الكثيرية.

وكما اختفى دور السلاطين الكثيريين وتأثيرهم تدريجياً اختفت المعلومات التاريخية في المصادر في السنوات الأخيرة التي سبقت السقوط النهائي واكتنفها الغموض والتناقض. ويذكر ابن حميد أن السلطان عمر بن جعفر ذهب إلى عمان محاولاً استنصار واليها ولكنه لم

يطل شيئاً وتوفي في مدينة مسقط العمانية [٢٣٧] ، ويعد السلطان عمر آخر السلاطين الكثيريين الذين بذلوا محاولات جادة لاستعادة نفوذ السلطنة ، فرغم تنوع المحاولات التي قام بها وتعددها والجهود التي بذلها فنها اصطدمت بالإرادة اليافعية القوية التي كانت في عنفوانها.

ثم جرت بعد ذلك مناوشات متفرقة بين السلطان جعفر بن عمر[٢٣٨] واليافعيين وكان أكبر الأعمال العسكرية و آخرها بينهما ما يعرف بموقعة (الغطيل) في سنة (١١٤٣هـ /١٧٣٠م) التي انهزم فيها الكثيريون وحلفاؤهم من القبائل الحضرمية [٢٣٩] ، لقد كانت معركة الغطيل إيذاناً بسقوط السلطنة الكثيرية فبعدها اكتفى الكثيريون بالاحتفاظ ببعض الحصون والبلدات المتناثرة بحيث لم ينتصف القرن الثاني عشر الهجري إلا واختفت السلطنة الكثيرية [٢٤٠]

إن أبرز سلبيات الصراع الكثيري اليافعي هو أن الأخير لم يحمل مشروع إقامة نظام حكم أو سلطة واحدة تفرض سيطرتها على منطقة حضرموت ، فخلال صراعهم الطويل مع الكثيريين كانوا يعملون على الحفاظ والدفاع عن مراكزهم وتحصيناتهم التي توجد في الغالب بالقرب من مناطق استقرارهم .

كما أن القبائل اليافعية المستوطنة حضرموت لم تكن تمثل وحدة سياسية متماسكة في ذاتها بل ما فرض عليها التماسك ووحدة الصف المخاطر العديدة التي واجهتها وهددت وجودها في حضرموت . وفي حقيقة الأمر نقل اليافعيون إلى حضرموت نظمهم وخلافاتهم القبلية وبهذا استبدلت حضرموت نظام السلطنة الكثيرية الذي ربطها بسلطة واحدة إلى نظام أعمق تجزئة. لقد سميت الفترة التي أعقبت سقوط السلطنة الكثيرية الأولى بحكومات الطوائف ، ولكن هذه التسمية لا تبدو دقيقة وربما التسمية الأقرب الى الصواب هي الحكومات القبلية في داخل المدن والبلدات. و إذا كانت هذه الفترة خارج المساحة الزمنية لهذه الدراسة فلعل من المناسب استعراض أهم القبائل اليافعية التي سيطرت على المدن والبلدات الحضرمية قبيل سقوط السلطنة وما بعدها[٢٤١]. ففي مدينة تريم كانت هناك ثلاث قبائل يافعية تنازعت السيطرة عليها ففي حارتي المجف والسوق كانت السيطرة لقبيلة آل غرامة ، وفي النويدرة آل عبد القادر، وفي الخليف سلطة آل همام . واستأثرت قبيلة الضبي بمدينة سيئون كما انفرد بنو النقيب بحكم بلدة تريس وقبيلة الموسطي بمدينة شبام وبنو بكر بمريمة ، وآل الكسادي بالمكلا ، وآل اليزيدي بالهجرين ، و(المكاتب) اليافعية السبعة ثم آل بريك في مدينة الشحر[٢٤٢].

الخاتمة

أدى ضعف الدولة المركزية الإسلامية منذ القرن التاسع الميلادي إلى تكوين عدد من الدول والإمارات التابعة ثم المستقلة عنها لاسيما في مناطق الأطراف وفي مرحلة متأخرة نسبياً بدأت في الظهور السلطنة الكثيرية في حضرموت فهي بذلك تدخل في النسيج السياسي العام الذي سادت فيه ظاهرة التجزئة.

ولم يكن قيام السلطنة الكثيرية بالأمر اليسير فقد اصطدمت تحركات آل كثير الطموحة بمقاومة القوى القبلية والكيانات السياسية الصغيرة القائمة وقتذاك ، وتطلب تغيير الوضع السياسي في حضرموت لصالحهم جهوداً مضنية واستغرق وقتاً طويلاً ، ولكن بقيت النزعة القبلية مسيطرة في المجتمع الحضرمي وتركت بصماتها السلبية الواضحة على مراحل تطور السلطنة حتى انحسارها . كما كان لانتشار الأفكار الصوفية في المجتمع الحضرمي أثره في الحياة السياسية ، وتأرجحت العلاقة بين السلاطين الكثيريين وشيوخ الصوفية وظهر الأخيرون في بعض المراحل وكأنهم الحكام الفعليون للسلطنة.

إن أبرز إنجازات آل كثير السياسية تكمن في توحيدهم لمنطقة حضرموت ساحلها ووديها ، وقد ساعدهم على ذلك وجود الترابط الجغرافي الاقتصادي والاجتماعي بين السكان في هذين الإقليمين ، كما كان الكثيريون مهيأين أكثر من غيرهم من القوى الحضرمية للاطلاع بهذا الدور من خلال انتشار مراكز استيطانهم ونشاطهم الاقتصادي في مناطق معينة من حضرموت بقسميها الساحلي والداخلي .

يعد عهد السلطان بدر بوطويرق عهد الفروسية في حضرموت (حسب وصف المؤرخ محمد عبد القادر بامطرف) فقد أظهر السلطان نشاطاً سياسياً ملحوظاً في عهد مبكر من حياته ، وعمل على توسيع حدود السلطنة وحقق نجاحات ملموسة كما خطا خطوات مهمة نحو بناء النظام الإداري للسلطنة حتى عدّ بحق أهم السلاطين الكثيريين ولأنه اعتمد في جهوده الحربية على عناصر مستعارة من خارج حضرموت فلم يقدر لهذه الجهود الترسخ سواء كان في عهده أو في عهد خلفائه .

وعلى العموم لم تشهد الأوضاع السياسية في حضرموت الاستقرار إذ إن النزاع والصراع على السلطة أو مع السلطة من قبل القوى المحلية المتنافسة كان السمة البارزة التي ميزت فترة الدراسة ، وإذا كان بعض السلاطين الكثيريين قد حافظوا على بقاء نوع من التماسك السياسي

للسلطنة فإن ذلك كان في الغالب وقتياً إذ ظل هؤلاء السلاطين في حالة انشغال دائم لضرب المناوئين وذلك لتأكيد السلطنة سلطتها وسيطرتها . وطبعت هذه الحالة السلطنة بالطابع العسكري وقوضت بالتالي فرص وجود نظم اقتصادية واجتماعية متطورة في حضرموت . ولم تقف متاعب آل كثير عند حدود قيام بعض الاضطرابات ضد نظام حكمهم في المناطق التابعة للسلطنة والحفاظ على الأمن بل تعدى ذلك إلى حدوث كثير من الانقسامات والتنازع داخل صفوف الأسرة الكثيرية الحاكمة من أجل السلطة والنفوذ ، بحيث نستطيع القول إن تاريخ السلطنة الكثيرية في مجمله ليس تاريخ الصراع القبلي في حضرموت حسب ، بل هو تاريخ الصراع بين أفراد الأسرة الكثيرية الحاكمة الذي يعد من المشاكل المزمنة التي عانت منها السلطنة الكثيرية ، وأدى مع عوامل أخرى إلى ضعف السلطة المركزية للسلطنة وأحياناً غيابها ، وفوت فرصة بناء دولة قوية ومتماسكة في حضرموت في بداية التاريخ الحديث.

دفع التوازن القبلي النسبي في حضرموت – و أسباب أخرى – بعض السلاطين الكثيريين للاستعانة بقوى من خارج حضرموت فأدى ذلك الى تعقد الأوضاع السياسية ، وإحداث تغيير في التركيبة الديموغرافية لحضرموت ، لاسيما أن عناصر عديدة من هذه القوى استوطنت حضرموت ، ومن أبرز النتائج التي ترتبت على هذه السياسة ضعف السلطنة الكثيرية ثم انحسارها على أيدي العناصر اليافعية .

ارتبط تاريخ السلطنة الكثيرية بالتاريخ الإقليمي والدولي بعد حركة الكشوف الجغرافية البرتغالية في الشرق ووصولها إلى الهند ثم الاحتلال العثماني الأول لليمن ، وقد فرضت هذه المستجدات وقائع سياسية واقتصادية جديدة منها تدهور نشاط السلطنة التجاري البحري مما أضعف المشروع التوسعي للسلطنة واضطرّها إلى قبول التبعية الاسمية للدولة العثمانية .

لقد تأرجحت علاقة السلطنة الكثيرية بالقوى الرئيسة في اليمن واتسمت في كثير من الأحيان بالتبعية الاسمية ومثلت حضرموت لهذه القوى منطقة أطراف غنية استفادوا من الضرائب التي فرضت عليها. وقد حافظت السلطنة في أثناء تعاملها مع هذه القوى على كيانها السياسي ، بمعنى آخر أسهمت إمكانات حضرموت الاقتصادية على شراء هذا الاستقلال أو المحافظة عليه.

إن سقوط السلطنة الكثيرية الأولى في حضرموت يعد انتكاسة للمشروع السياسي الحضرمي في بداية العصر الحديث ، ومن ابرز أسباب تراجع هذا المشروع السياسي الحضرمي ، أنه فشل في داخله وبحث عن حلول لمشاكله من خارجه. .

الهوامش :

١) عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف، بضائع التابوت، مخطوط، و٤٢٧ ؛ صلاح البكري، في جنوب الجزيرة العربية، ص١٢١.

٢) محمد علي السقاف ، المصدر السابق ، ص٢٠٢ ؛ محمد بن هاشم ، المصدر السابق ، ص ٥٤ ؛ سعيد عوض باوزير ، صفحات من التاريخ الحضرمي ، ص١٣٢

٣) صلاح البكري ، تاريخ حضرموت السياسي ، ج٢ ، ص٩٣

٤) تاريخ الشحر و أخبار القرن العاشر ، ص ٣٩٢

٥) النور السافر في أخبار القرن العاشر ، ص٣٢٩

٦) سعيد عوض باوزير ، صفحات من التاريخ الحضرمي ، ص١٣٣

٧) محمد علي باحنان ، المصدر السابق ، ص٢٠٢

٨) صلاح البكري ، تاريخ حضرموت السياسي ، ج٢ ، ص١٠٠

٩) جواهر تاريخ الأحقاف ، ج٢ ، ص٢٠١

١٠) صلاح البكري ، تاريخ حضرموت السياسي ، ج٢ ، ص١٠١

١١) تاريخ الشحر و أخبار القرن العاشر ، ص٣٩٤

١٢) تاريخ الشحر واخبار القرن العاشر ، المصدر السابق ، ص٣٩٧ ؛ سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص٢١٤

١٣) سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص ٢١٨

١٤) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص ٣٩٨ ؛ سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص ٢١٨

١٥) محمد علي باحنان ، المصدر السابق ، ص ٢٠٣

١٦) صلاح البكري ، تاريخ حضرموت السياسي ، ج٢ ، ص ١٠١ .

١٧) محمد بن هاشم ، المصدر السابق ، ص٦٢

١٨) سعيد عوض باوزير ، صفحات من التاريخ الحضرمي ، ص ١٣٣

١٩) صلاح البكري ، تاريخ حضرموت السياسي، ج٢ ، ص١٠١ ؛ محمد علي باحنان ، المصدر السابق ، ص٢٠٣

٢٠) ذكرت بعض المصادر ان السلطان عمر تولى الحكم سنة ٩٩٠ هـ / ١٥٨٢م ، ينظر : محمد بن هاشم ، المصدر السابق ، ص ٦٢- ٦٣

٢١) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص ٤٤٦ ؛ سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص ٢٢٣

٢٢) عبد القادر محمد الصبان ، الشاعر عبد الصمد باكثير شاعر القرن العاشر الهجري ، ص ١٩٢ .

٢٣) محمد عمر بافقيه ، المصدر السابق ، ص ٤٤٧

٢٤) سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص ٢٢٣

٢٥) سيد مصطفى سالم ، المصدر السابق ، ص ٣٠٣

٢٦) محمد علي الشوكاني، المصدر السابق ، المجلد (٢) ، ص ٤٨ ؛ عبد الصمد إسماعيل الموزعي، المصدر السابق ، ص٨٢

٢٧) عبد القادر محمد الصبان ، عبد الصمد باكثير شاعر حضرموت في القرن العاشر الهجري ، ص ٧٤

٢٨) سالم بن حميد ،المصدر السابق ،ص ٢٢٤

٢٩) النقعة : قرية تقع بالقرب من غيل باوزير ،وإلى الشمال الغربي من مدينة الشحر . ينظر عبد الرحمن بن عبيد السقاف ،ايدام القوت ،مخطوط ،و ٤٩

٣٠) عبد القادر الصبان ،عبد الصمد باكثير شاعر حضرموت في القرن العاشر الهجري ،ص ٧٤ — ٧٥

٣١) محمد بن أبي بكر الشلي، عقد الجواهر و الدرر في أخبار القرن الحادي عشر، مخطوط، مكتبه الأحقاف للمخطوطات تريم، رقم ٢١٢٦، و١٥٠

٣٢) محمد أمين المحبي ،خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ،ج٢ ،دار صادر ،بيروت ،ص ١٠٢

٣٣) صلاح البكري ،تاريخ حضرموت السياسي ،ج٢ ،ص ١٢٠

٣٤) ورد في بعض المصادر ان السلطان عبد الله بن عمر تنازل عن الحكم لأخيه السلطان بدر سنة ١٠٢٤ هـ / ١٦١٥م . ينظر : المحبي ،المصدر السابق ،ج٢ ،ص ٢٠٩ ؛ سعيد عوض باوزير ،صفحات من التاريخ الحضرمي ،ص ١٦٠

٣٥) محمد ابو بكر الشلي ،عقد الجواهر و الدرر ،مخطوط ،و ٥٠

٣٦) حياة البسام،الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم ٩٩٠ — ١٠٥٤ هـ /، ط١ ،الدار العربية للنشر و التوزيع، جدة، ١٩٨٦ ،ص ١١٠

٣٧) مطهر بن محمد بن عبد الله الجرموزي ،تحفة الأسماع و الأبصار بما في السيرة المتوكلية من غرائب الأخبار، مخطوط ،مكتبة الجامع الكبير ،صنعاء و رقم ٤١٢ ،و ٩١ ب

٣٨) ذكر الشلي ان الذي كتب الرسالة هو الإمام الحسن بن القاسم ،و يظهر أن هناك التباساً ،و ذلك أن الإمام القائم آنذاك هو المؤيد محمد بن القاسم . ينظر الشلي ،المشرع الروي ،ج٢ ،ص ٢٢٤

٣٩) النص الكامل للرسالة في الرجع أعلاه ص ٢٢٥- ٢٢٦- ٢٢٧ .وكان علي زين العابدين العيدروس نقيباً للعلويين في حضرموت و من متصوفيها المشهورين و كان السلطان عبد الله يعتمد عليه في الرد على الرسائل ويستشيره في أمور الحكم .

٤٠) محمود علي السالمي ،محاولات توحيد اليمن بعد خروج العثمانيين ،١٠٤٥- ١٠٩٧ هـ / ١٦٣٥ — ١٦٨٥م، ط١ ،دار الثقافة العربية للنشر ،الشارقة ،جامعة عدن ،٢٠٠١م ،ص ١٠٦

٤١) حياة البسام ،المصدر السابق ،ص ١٢٣

٤٢) احمد بن محمد بن صلاح الشرفي ،اللآلي المضيئة في أخبار الأئمة الزيدية ،مخطوطة مسجلة على ميكروفيلم رقم ٣٤ ،المكتبة الوطنية ،عدن ، و ٣٣٢أ

٤٣) المصدر نفسه ،٣٣٢ ب

٤٤) المحبي ،المصدر السابق ،ج٣ ،ص ٢٠٩ ؛ محمد أبوبكر الشلي ،المشرع الروي ،ج٢ ،ص ٢٢٧ ؛ محمد احمد الشاطري ،المصدر السابق ،ص ٢٤٤

٤٥) محمد أبوبكر الشلي ،عقد الجواهر و الدرر ،مخطوط ،و ٢٧٦ . و قد أشار الجرموزي الى ان السلطان عبد الله حج سنة ١٠٤٠ هـ و لم يذكر متى و كيف توفي . ينظر : تحفة الاسماع و الابصار ،مخطوط ،و ٩٢ب

٤٦) السيد علي صدر الدين المدني المعروف بابن معصوم ،سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر ،ط٢ ،مطابع علي بن علي ،الدوحة ،١٣٨٢ هـ ،ص٤٣٧

٤٧) حكم السلطان بدر لفترتين منقطعتين ، الفترة الأولى من (١٠٤٥- ١٠٥٨ هـ / ١٦٣٥- ١٦٤٨م) و الثانية من (١٠٧٠- ١٠٧٣ هـ / ١٦٥٩- ١٦٦٢م) عند وفاته .

٤٨) محمود علي السالمي ، المصدر السابق ، ص ١٠٨

٤٩) يذكر ابن حميد ، و يبدو أنه أخطأ ، ان السلطان بدر بن عمر كان خائفاً من سيطرة الإمام المتوكل على إسماعيل على السلطنة ، و كان يراوغه حتى خطب له في مساجد حضرموت ، و صور حالة السلطان النفسية المتدهورة جراء هذا الخوف . ينظر : العدة المفيدة لتواريخ قديمة و حديثة ، ص ٢٣٨.

٥٠) حسن صالح شهاب ، يافع في عهد السلطان آل عفيف وهرهرة ، ط١ ، مركز الشرعبي للطباعة ، صنعاء ، ٢٠٠١م ، ص ٣٦ ؛ محمد بن هاشم ، المصدر السابق ، ص ٦٩ ؛ سعيد عوض باوزير ، صفحات من التاريخ الحضرمي ، ص ١٦١ ؛ حياة البسام ، المرجع السبق ، ص ١٢٤ .

٥١) سعيد عوض باوزير ، معالم تاريخ الجزيرة العربية ، ص ٢٨٣ .

٥٢) ولد السيد عبد الله الحداد بقرية السبير من ضواحي مدينة تريم سنة ١٠٤٤ هـ / ١٦٣٤ م و توفي بتريم سنة ١١٣٢ هـ / ١٧١٩ م ، فقد بصره و عمره أربع سنوات ، برز الحداد في المجتمع الحضرمي كشخصية متعددة الاهتمامات في جوانب عدة ، خاض غمار الحياة و غاص في أعماق المجتمع الحضرمي و له في نقد الأوضاع السياسة أراء جريئة و مواقف شجاعة. و كان السلاطين الكثيريون يحترمون إشاراته و انتقاداته . للمزيد ينظر: عبدالله محمد الحبشي ، مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن ، مركز الدراسات اليمنية ، صنعاء ، ص ٣٢٠- ٣٢٣ ؛ سعيد عوض باوزير ، الفكر و الثقافة في التاريخ الحضرمي ، ص ١٥٥

٥٣) مكاتبات الإمام عبد الله بن علوي الحداد ، ج١ ، طبع على نفقة حفيدة السيد علي بن عيسى الحداد ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ١٩٧٩ ، ص ١٧٠

٥٤) احمد بن محمد الشرفي ، اللآلي المضيئة ، مخطوط ، و ٣٣٢ أ

٥٥) محمد علي الشوكاني ، المجلد ١ ، المصدر السابق ، ص ٢٧٨ ؛ و يرى الشلي أن الإمام إسماعيل تولى سنة ١٠٥٥ هـ / ١٠٨٨م ينظر : عقد الجواهر و الدرر ، مخطوط ، و ٣٠٦ .

٥٦) حسام الدين محسن بن الحسن بن القاسم الملقب ابو طالب ، ت ١١٧٠ هـ ، تاريخ اليمن عصر الاستقلال عن الحكم العثماني الأول من سنة ١٠٥٦ هـ الى سنة ١١٦٠هـ ، ج١ ، تتقيق عبد الله محمد الحبشي ، ط١ ، مطابع المفضل للاوفست ، تعز ١٩٩٠ ، ص ١٤

٥٧) محمد بن إسماعيل الكبسي ، المصدر السابق ، ص ٢٦٨ ؛ حسام الدين محسن أبو طالب ، المصدر السابق ، ص ٢١ ؛ و يذكر ابن الوزير أن السلطان بدر بن عبدالله الكثيري خطب للأمام سنة ١٠٦٤ هـ / ١٦٥٣م ، وواضح ان ذلك تصحيف ، ينظر : عبد الله على الوزير . تاريخ اليمن خلال القرن الحادي عشر الهجري ، ١٠٤٥- ١٠٩٠ هـ / ١٦٣٥- ١٦٨٠م المسمى طبق الحلوى و صحاف المن و السلوى ، تحقيق محمد عبدالرحيم جازم ، ط١ ، مركز البحوث و الدراسات ، صنعاء ، ١٩٨٥م ، ص ١٣٥

٥٨) محمد أبو بكر الشلي ، عقد الجواهر و الدرر ، مخطوط ، و ٣٢٠ ؛ سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص٢٣٩ ؛ سعيد عوض باوزير ، صفحات من التاريخ الحضرمي ، ص ١٦٢ ؛ حمزة لقمان ، معارك حاسمة ، ص ١٢٦

٥٩) حسام الدين محسن أبو طالب ،المصدر السابق ،ص ٢٤٠

٦٠) سعيد عوض باوزير ،صفحات من التاريخ الحضرمي ،ص ١٦١

٦١) محمد بن هاشم ،ا لمرجع السابق ،ص ٦٩- ٧٠ ؛ سلوى الغالبي ،المصدر السابق ،ص ٩٧

٦٢) صلاح البكري ،في جنوب الجزيرة العربية ،ص ١٢٥ ؛ حمزة لقمان ،معارك حاسمة ،ص ١٢٦

٦٣) الجرموزي ،تحفة الاسماع ،مخطوط ،و ٣٩

٦٤) تقع لحج الى الشمال الغربي من عدن و تبعد عنها بحوالي ٤٠ كيلو متراً و الشعيب من المناطق التابعة لها . ينظر : حسين الويسى ،المرجع السابق ،ص ١٦

٦٥) للمزيد من المعلومات على المصاعب التي كانت تواجهها الدولة القاسمية آنذاك ينظر : محمود علي السالمي ،ص ٢٢٠- ٢٢٤

٦٦) البيضاء : مدينة كبيرة تقع الى الجنوب الشرقي من صنعاء و تبعد عنها نحو ٢٧٢ كيلو متراً، إبراهيم أحمد المقحفي ،المصدر السابق ،ص ٩٨

٦٧) عبد الله علي الوزير ،المصدر السابق ،ص ١٣٦ ؛ حسام الدين محسن أبو طالب ،المصدر السابق، ص ٣٧ ؛ عبد الله عبد الكريم الجرافي ،المصدر السابق ،ص ١٧١.

٦٨) محمد أبو بكر الشلي ،عقد الجواهر و الدرر ،مخطوط ،و ٣٢٨ ؛ حمزة علي لقمان ،معارك حاسمة ،ص ١٢٦

٦٩) للمزيد من المعلومات عن حروب و توسعات الدولة القاسمية : ينظر عبد الله علي الوزير ،المصدر السابق ،سلوى الغالبي، الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم و دوره في توحيد اليمن ،١٠٥٤- ١٠٨٧ هـ / ١٦٤٤- ١٦٧٦م،ط١ ،١٩٩١،ص ٧١- ٩٦

٧٠) حسام الدين محسن ابو طالب ،المصدر السابق ،ص ٥٠ ؛ أحمد فضل العبدلي ،المصدر السابق ،ص ١٠٢

٧١) حسام الدين محسن أبو طالب ،المصدر السابق ،ص ٤٦- ٤٧ ؛ محمود علي السالمي ،المصدر السابق ،ص ١٦٩

٧٢) الجرموزي ،تحفة الأسماع و الأبصار ،مخطوط ،و ٧٧ ب – ٧٨ أ ؛ عبد الله علي الوزير ، المصدر السابق، ص ١٣٨ : أحمد فضل العبدلي المصدر السابق ،ص ١٠٥

٧٣) النص الكامل للرسالة ينظر في : الجرموزي ،تحفة الأسماع و الأبصار ،مخطوط ،و ٧٨ب .

٧٤) محمد أبو بكر الشلي ،عقد الجواهر و الدرر، مخطوط ،و ٣٤٩ ؛ الجرموزي ،تحفة الأسماع ،مخطوط ،و ٨٠ أ

٧٥) حسام الدين محسن ابو طالب ،المصدر السابق ،ص ٦٨ ؛ محمد بن هاشم ،المصدر السابق ،ص ٧٨

٧٦) الجرموزي ،تحفة الأسماع ،مخطوط ،و ٨١ أ

٧٧) المصدر نفسه ،و ٨١ب – ٨٢أ

٧٨) سلوى الغالبي ،المصدر السابق ،ص ٩٨

٧٩) الجرموزي ،تحفة الاسماع ،مخطوط ،و ٨٢ أ

٨٠) المصدر نفسه ،و ٨٢ب

٨١) حسام الدين محسن أبو طالب ،المصدر السابق ،ص ٧١ ؛ صلاح البكري في جنوب الجزيرة العربية ،ص ١٢٥

٨٢) سعيد عوض باوزير ،صفحات من التاريخ الحضرمي،ص ١٦٣ ؛ محمود علي السالمي، المصدر السابق، ص ١٨١

٨٣) الجرموزي ، تحفة الأسماع و الأبصار ، و ٨٤أ + ب

٨٤) محمد بن هاشم ، المصدر السابق ، ص ٧٩- ٨٠ ؛ سعيد عوض باوزير ، صفحات من التاريخ الحضرمي ، ص ١٦٢ ؛ صلاح البكري ، في جنوب الجزيرة العربية ، السابق ، ص ١٢٦

٨٥) الجرموزي ، تحفة الأسماع ، مخطوط ، و ٨٥أ

٨٦) المصدر نفسه ، و ٨٦أ

٨٧) حسام الدين محسن أبو طالب ، المصدر السابق ، ص ٧٢ ؛ عبد الله علي الوزير ، المصدر السابق ، ص ١٤٩

٨٨) مكاتبات عبد الله علوي الحداد ، المصدر السابق ، ج (١) ، ص ٣٩.

٨٩) الجرموزي ، تحفة الأسماع و الأبصار ، مخطوط ، و ٨٦ب .

٩٠) المصدر والصفحة نفسها.س

٩١) سعيد عوض باوزير ، صفحات من التاريخ الحضرمي ، ص ١٦٤.

٩٢) الجرموزي ، تحفة الأسماع و الأبصار ، مخطوط ، و ٩٢أ .

٩٣) الجرموزي ، المصدر السابق ، مخطوط ، و ٩٢أ ؛ وينظر: عبد الله علي الوزير ، المصدر السابق ، ص ١٥٧ ؛ أحمد فضل العبدلي ، المصدر السابق، ص ١٢٧.

٩٤) محمد إسماعيل الكبسي، المصدر السابق ، ص ٢٧٢ ؛ وينظر : صلاح البكري ، في جنوب الجزيرة العربية ، ص١٢٧.

٩٥) الجرموزي ، تحفة الأسماع و الأبصار ، مخطوط ، و ٩٢ ب .

٩٦) أثناء تقدم الجيش الإمامي إلى حضرموت مرض الحسين بن الحسن وعاد إلى رداع للعلاج ولهذا آلت قيادة الحملة كاملة إلى أخيه أحمد بن الحسن .

٩٧) سلوى الغالبي ، المصدر السابق ، ص ١٠١ ؛ سعيد عوض باوزير ، صفحات من التاريخ الحضرمي ، ص ١٦٦.

٩٨) حسام الدين محسن أبو طالب ، المصدر السابق ، ، ص ٧٧ ؛ عبد الله عبد الكريم الجرافي ، المصدر السابق ، ص ١٧٢ . و تذكر المراجع أن أعداد الجيش تزداد عندما يمر بأراضي القبائل ، ينظر : محمد إسماعيل الكبسي ، المصدر السابق ، ص ٢٧٢

٩٩) الجرموزي ، تحفة الأسماع و الأبصار ، و ٩٢ ب.

١٠٠) الغراس : تقع شمال شرقيّ صنعاء .

١٠١) حسام الدين محسن أبو طالب ، المصدر السابق ، ص٧٧- ٧٨ ؛ الجرموزي ، تحفة الأسماع ، و ٩٢ب ، و قد ذكر الجرموزي العديد من القرى و المناطق التي مرت بها الحملة ؛ ينظر ايضا : عبد الرحمن بن عبيد السقاف ، إدام القوت أو معجم بلدان حضرموت ، و ١٠٧

١٠٢) حسين العمري ، المصدر السابق ، ص ٥٢- ٥٣ ؛ محمود علي السالمي ، المصدر السابق ، ص ١٨٥

١٠٣) الجرموزي ، تحفة الأسماع و الأبصار ، و ٩٣أ

١٠٤) عبد الله علي الوزير ، المصدر السابق ، ص ١٥٩ ؛ حسام الدين محسن أبو طالب ، المصدر السابق ، ص ٧٨ ؛ سعيد عوض باوزير ، صفحات من التاريخ الحضرمي ، ص ١٦٧

١٠٥) الجرموزي ، تحفة الأسماع و الأبصار ، و ٩٣ب .

١٠٦) حسين عبد الله العمري، المصدر السابق، ص ٥٣ ؛ سعيد عوض باوزير، صفحات من التاريخ الحضرمي، ص ١٦٨

١٠٧) الجرموزي، تحفة الأسماع و الأبصار، و ٩٣ب

١٠٨) محمود علي السالمي، المصدر السابق، ص ١٨٧- ٨٨

١٠٩) الجرموزي، تحفة الأسماع و الأبصار، و ٩٦ أ+ب

١١٠) ريدة بامسدوس : الريدة تطلق على عدد من المناطق الجبلية المرتفعة كريدة الدين، و ريدة الصيعر ...الخ و تقع ريدة بامسدوس الى الشمال الغربي من وادي حضرموت.

١١١) محمد إسماعيل الكبسي، المصدر السابق، ص ٢٧٢ ؛ عبد الله علي الوزير، المصدر السابق، ص ١٦٢ ؛ عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف، إدام القوت أو معجم بلدان حضرموت، مخطوط، و ١٠٧

١١٢) حسام الدين محسن أبو طالب، المصدر السابق، ص ٧٩- ٨٠ ؛ محمود علي السالمي، المصدر السابق، ص ١٨٩

١١٣) عبد الرحمن بن عبيد السقاف، إدام القوت، و ١٠٧ ؛ حسين عبد الله العمري، المصدر السابق، ص ٥٤

١١٤) الجرموزي، تحفة الأسماع و الأبصار، و ٩٣ب ؛ عبد الله عبد الكريم الجرافي، المصدر السابق، ص ٧٢

١١٥) بحران : هي منطقة سهلية غربي حضرموت، و ملتقى أودية عمد و وادي دوعن و وادي العين.

١١٦) السيد عمر عبد الرحمن العطاس : ولد بقرية اللسك سنة ٩٩٢هـ / ١٥٨٤م و كف بصره و هو صغيراً و عندما شب أقام في بلدة حريضة أسفل وادي عمد و توفي فيها سنة ١٠٧٢ هـ / ١٦٦١م. يعد من كبار مشايخ الصوفية في عصره، و له ضريح في بلدة حريضة يزار إلى الآن. ينظر : باكثير، رحلة الاشواق القوية إلى موطن السادة العلوية، تعليق عبدالله محمد السقاف، مطبعة العلوم، ١٣٥٨هـ .ص١٠٩ ؛ عبد الرحمن محمد المشهور، المصدر السابق، ج١، ص ٢٤٨

١١٧) أحمد محمد الشاطري، المصدر السابق، ج٢، ص ٢٥١ ؛ محمد بن هاشم، المصدر السابق، ص ٨٢

١١٨) محمد أبو بكر الشلي، عقد الجواهر و الدرر، مخطوط، و٣٤٨ ؛ عبد الله علي الوزير، المصدر السابق، ص ١٦٣.

١١٩) الجرموزي، تحفة الأسماع و الأبصار، و ٩٨ب

١٢٠) محمود علي السالمي، المصدر السابق، ص ٣٠٧. رغم ما يعطى للحملات العسكرية من الطابع الديني كما ذكرنا، الا ان المناطق المفتوحة لا تعاملها الجيوش الإمامية كمناطق كافرة إذ لا تُسبَى النساء و الأطفال ويتم التركيز على أعمال السلب و النهب الاقتصادي.

١٢١) الجرموزي، تحفة الأسماع و الأبصار، و ٩٨ب ؛ حسام الدين محسن أبو طالب، المصدر السابق، ص ٨٠

١٢٢) احسن الإمام إسماعيل استقبال السلطان بدر و بالغ في إكرامه، وقد اقام عنده فترة، ثم استأذنه في العودة فاذن له و قد توفي سنة ١٠٧٥ هـ / ١٦٦٤م و هو في طريقة الى الحج. ينظر : عبد الله بن الوزير، المصدر السابق، ص ١٩٥ ؛ حسام الدين محسن أبو طالب، المصدر السابق، ص ٩٢.

١٢٣) النص الكامل للرسالة يوجد في : الجرموزي، تحفة الأسماع و الأبصار و ٩٧ب- ٩٨أ+ب

١٢٤) محمد أبوبكر الشلي، عقد الجواهر و الدرر، مخطوط، و ٣٤٨ وعد ذلك نهاية دولة آل كثير. ينظر ايضا : محمد بن هاشم، المصدر السابق، ص ٨٣ ؛ محمود علي السالمي، المصدر السابق، ص ١٩

١٢٥) لم تطبق الزيادة في الأذان في حضرموت بشكل صارم ، و يبدو أن الغرض من تلك الإضافة كان شكلياً ، وذلك لإثبات تبعية حضرموت للدولة القاسمية أكثر منه إعلان عن إيجاد صيغ لفرض المذهب الزيدي . و نلحظ ذلك من خلال ماذكره بافضل عندما ترجم للشيخ عمر بافضل ، = فأشار إلى أنه استمر على الأذان الشرعي (السني) منذ دخول القاسميين الى حضرموت رغم التهديدات التي تعرض لها . ينظر محمد عوض بافضل ، صلة الاهل في مناقب آل بافضل ، ط١ ، ١٤٢٠هـ ، ص ٢٥٢

١٢٦) محمود علي السالمي ، المصدر السابق ، ص ١٩١

١٢٧) الجرموزي ، تحفة الأسماع و الأبصار ، مخطوط ، و ١٠١ ب ؛ عبد الله الجرافي ، المصدر السابق ، ص ١٧٣

١٢٨) ضوران : سميت على اسم جبل يقع على بعد ٦٨ كيلو متر جنوبي صنعاء. عبد الله الثور ، المصدر السابق ، ص ٦٤

١٢٩) عبد الله علي الوزير ، المصدر السابق ، ص ١٦٦

١٣٠) محمود علي السالمي ، المصدر السابق ، ص ١٩٢

١٣١) سلطان سيف بن مالك : ثاني أئمة دولة اليعاربة الاباضية في عمان بويع بعد و فاة الإمام ناصر بن مرشد سنة ١٠٥٠ هـ / ١٦٤٠م . كان له دورٌ مهمٌ في طرد البرتغاليين من مسقط و اشتبك معهم في معارك بحرية عديدة ، توفي سنة ١٠٩١ هـ / ١٦٨٠م

١٣٢) حسام الدين محسن أبو طالب ، المصدر السابق ، ص ٨٣

١٣٣) نايف محمد الأحبابي ، الموقف العربي و الإقليمي من الهيمنة البرتغالية في الخليج العربي ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ١٩٩٨ ، ص ١٤٤- ١٤٥

١٣٤) الجرموزي ، تحفة الأسماع و الأبصار ، و ١٠٢ ب ؛ حسام الدين محسن أبو طالب ، المصدر السابق ، ص ٨٤ ؛ عبد الله علي الوزير ، المرجع السابق ، ص ١٧٣

١٣٥) نور الدين عبد الله بن حميد السالمي ، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ، قام بطبعه و التعليق عليه ابراهيم طفيش الجزائري ، ط٢ ، مطبعة الشباب ، القاهرة ، ١٣٥٠ هـ ، ص ٥٨- ٥٩

١٣٦) الجرموزي ، تحفة الاسماع ، و ١٠٢ب

١٣٧) نفس المصدر و الصفحة

١٣٨) عبد الله عبد الكريم الجرافي ، المرجع ، ص ١٧٤ ؛ عبد الله علي الوزير ، المصدر السابق ، ص ١٨٧

١٣٩) جرت مراسلات بين السلطان العماني سلطان بن سيف بن مالك و بين الإمام إسماعيل حول مصير هذين المدفعين و قد استعرض كل منهما على الورق قوته . و قد فتح ذلك صفحات من العداء بين الجانبين استغل فيه العمانيون قوتهم البحرية و هاجموا بعض الموانىء اليمنية ، وقد اضطر الإمام إسماعيل بإرجاع المدفعين . للمزيد ينظر : نور الدين السالمي ، تحفة الأعيان ، و الذي أورد نصوص الرسائل المتبادلة في الصفحات ، من ٥٦- ٥٩ .

١٤٠) سلوى الغالبي ، المصدر السابق ، ص ١١٠ ؛ حسن صالح شهاب ، يافع في عهد سلطان آل عفيف ، ص ٤٠

١٤١) احمد فضل العبدلي ، المصدر السابق ، ص ١٠٨

١٤٢) القاضي حسين احمد العرشي ، بلوغ المرام في شرح مسك الختام في من تولى ملك اليمن و أمام ، دار إحياء التراث العربي ، ص ٦٧

١٤٣) محمود علي السالمي ،المصدر السابق ،ص ٢٣٨

١٤٤) مكاتبات عبد الله علوي الحداد ،وهي الرسالة المؤرخة في ٨ رمضان ١٠٧٢ هـ و المرسلة الى السلطان بدر بن عمر ،ج١ ،ص ٢٥٧

١٤٥) مكاتبات عبد الله علوي الحداد ،ج١ ،ص ٣٤٥

١٤٦) محمد بن هاشم ،ص٨٥ ؛ محمد عبد القادر بامطرف، في سبيل الحكم ،ص١٣ ؛ سعيد عوض باوزير ،معالم تاريخ الجزيرة العربية ،ص ٢٨٣ ، محمد علي باحنان ،المصدر السابق ،ص ٢٠٩

١٤٧) سالم بن حميد ،المرجع اليابق ،ص ٢٤١

١٤٨) حسام الدين محسن أبو طالب ،المصدر السابق ،ص ٩٢- ١١٣ ؛ سالم بن حميد ،المصدر السابق ،ص ٢٤٢ ؛ عبد الله علي الوزير ،المصدر السابق ،ص ٢٤٩

١٤٩) خلفه أخوه السلطان عيسى لمدة سنة أي الى سنة ١٠٨١ هـ / ١٦٦٧ م . ثم أخوه علي ١٠٨١- ١١٠٧ هـ / ١٦٦٧- ١٦٩٥م ينظر: محمد علي باحنان ،المصدر السابق ،ص ٢٠٩ . أما ابن حميد فذكر أنه تولى بعده عيسى الحاج عشن ثم السيد مهدي . و يبدو أن في الأمر تصحيفاً . ينظر بن حميد ،المصدر السابق ،ص ٢٤١

١٥٠) محمود علي السالمي ،المصدر السابق ،ص ٢٣٢

١٥١) حسام الدين محسن أبو طالب ،المصدر السابق ،ص ١١٧- ١١٨ . و تقلل المصادر الزيدية من أهمية الأعمال العسكرية الكثيرة . وللمزيد ينظر أيضاً : عبد الله علي الوزير ،المصدر السابق ،ص ٢٦٢

١٥٢) حسام الدين محسن أبو طالب ،المصدر السابق ،ص ١١٨

١٥٣) عبد الله علي الوزير ،المصدر السابق ،ص ٢٧٥

١٥٤) حسام الدين محسن أبو طالب ،المصدر السابق ،ص ١٢٣

١٥٥) محمود علي السالمي ،المصدر السابق ،ص ٢٣٢

١٥٦) عبد الله علي الوزير ،المصدر السابق ،ص ٢٢٨

١٥٧) حسين عبد الله العمري ،المصدر السابق ،ص ٧٣- ٧٤ . و معروف أن للمذهب الزيدي شروطاً من انطبقت عليه يمكنه أن يطالب لنفسه بالامامة ،و من أهم هذه الشروط أن يكون من أهل البيت النبوي حسنياً او حسينياً

١٥٨) حسام الدين محسن أبو طالب ،المصدر السابق ،ص ١٥٩

١٥٩) محمد بن إسماعيل الكبسي ،المصدر السابق ،ص ٢٨٦ ؛ أحمد فضل العبدلي ،المصدر السابق ،ص ١٠٨

١٦٠) يلقب بالمؤيد الصغير للتمييز بينه و بين عمه الإمام المؤيد محمد بن القاسم، .ينظر: حسين العمري،المصدر السابق،ص ٨١

١٦١) محمد علي باحنان ،المصدر السابق ،ص ٢١٠ ؛ حمزة لقمان ،معارك حاسمة ،ص ١٤٠

١٦٢) محمد بن هاشم ،المصدر السابق ،ص ٨٨ ؛ صلاح البكري ،في جنوب الجزيرة العربية ،ص ١٣٨.

١٦٣) سالم بن حميد ،المصدر السابق ،ص ٢٤٢.

١٦٤) راتب السقاف عبارة عن أذكار و أدعية تلقى بشكل جماعي أو فردي . قبل صلاة الجماعة أو بعدها .

١٦٥) محمد بن هاشم ،المصدر السابق ،ص ٨٨

١٦٦) صلاح البكري ، تاريخ حضرموت السياسي، ص ١٠٧ ؛ حسن صالح شهاب ، يافع في عهد سلطان آل عفيف، ص ٤٨ ، أحمد فضل العبدلي ، ص ١٢٩.

١٦٧) محمد بن هاشم ، المصدر السابق ، ص ٨٩- ٩٤

١٦٨) و يرى البكري أن (السلطان) عيسى خلد إلى الراحة و في عهده أصبحت مقاليد الأمور بيد يافع، و ينظر صلاح البكري ، تاريخ حضرموت السياسي ، ص ١٠٨

١٦٩) هو الإمام المهدي محمد بن أحمد بن الحسن ١٠٩٧ -١١٣٠ هـ / ١٦٨٦- ١٧١٨م صاحب الدعوات الثلاث فقد لقب نفسه في البداية بالناصر ثم الهادي ثم المهدي انشغل خلال فترة حكمه الطويلة بمحاولات تثبيت الدولة االقاسمية في مناطق اليمن الأعلى .ينظر : حسين العمري ، المصدر السابق ، ص ٩٤

١٧٠) سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص ٢٤٦.

١٧١) سبقت الإشارة إلى بدايات الوجود اليافعي في حضرموت في الفصل الثاني .

١٧٢) عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف ، بضائع التابوت ، مخطوط ، ص ٤١٣.

١٧٣) محمد بن هاشم ، المصدر السابق ، ص ٨٩.

١٧٤) الجرموزي ، تحفة الأسماع ، مخطوط ، و ٥٦ أ ؛ نصر صالح بن سبعة ، المصدر السابق ، ص ١٠٣.

١٧٥) حسن صالح شهاب ، يافع في عهد سلطان آل عفيف ، ص ٣٠ ؛ محمد عبد القادر بامطرف ، المعلم عبد الحق ، ص ٦٩ ؛ محمد علي باحنان ، المصدر السابق ، ص ٢١٢.

١٧٦) سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص ٢٤٩.

١٧٧) محمد علي باحنان ، المصدر السابق ، ص ٢١٢ .

١٧٨) يطلق محلياً في حضرموت على العناصر اليافعية المولودة في حضرموت يافع التلد ، و يطلق يافع الغرباء على القادمون منهم الجدد.

١٧٩) محمد بن هاشم ، المصدر السابق ، ص ٩٠.

١٨٠) لم تشر المصادر التي وقفنا عليها الى كيفية سيطرته على سيئون ، و لعل ذلك جاء في ظروف الضعف و الانقسام الذي شهدته السلطنة الكثيرية .

١٨١) سالم بن حميد المصدر السابق ، ص ٢٥٠- ٢٥١

١٨٢) المصدر نفسه، ص ٢٥٣

١٨٣) صلاح البكري ، في جنوب الجزيرة العربية ، ص١٢١ ؛ محمد علي باحنان ، المصدر السابق ، ص ٢١٢

١٨٤) صلاح البكري ، تاريخ حضرموت السياسي ، ص ١٠٨.

١٨٥) سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص ٢٥٦.

١٨٦) المصدر السابق ، ص ٢٥٩.

١٨٧) سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص ٢٧٤.

١٨٨) محمد بن هاشم ، المصدر السابق، ص ٩٦. و أشار ابن حميد إلى أنه توفي في مدينة المخا سنة ١١١٩ هـ / ١٧٠٧م.

١٨٩) محمد عبد القادر بامطرف ، في سبيل الحكم ، ص ١٣.

١٩٠) صلاح البكري ،في شرق اليمن (يافع) ،ط١ ،دار الكشاف ،بيروت ،١٩٥٥ ،ص ٩٦ ؛ حسن صالح شهاب ،يافع في عهد سلطان آل عفيف ،ص ٥١ ؛ عبد الله أحمد الناخبي ،رحلة الى يافع ،ص ٧٠.

١٩١) صلاح البكري ،تاريخ حضرموت السياسي، ص ١٠٩ ؛ محمد بن هاشم،المصدر السابق،ص ٩٧ .

١٩٢) سعيد عوض باوزير ،معالم تاريخ الجزيرة العربية ،ص ٢٦٥ ؛ حسين العمري ،المصدر السابق ،ص ٩٢.

١٩٣) أحمد فضل العبدلي ،المصدر السابق ،ص ١١١ ؛ عبد الله الناخبي ،رحلة الى يافع ،ص ٧٠.

١٩٤) عبد الله أحمد الناخبي ،المصدر السابق ،ص ٦٥.

١٩٥) حسن صالح شهاب ،يافع في عهد سلطان آل عفيف،ص٥٠ ؛ محمد عبد الكريم عكاشة ، قيام السلطنة القعيطية والتغلغل الاستعماري في حضرموت ، ط(١) ، دار ابن رشد للنشر ، عمّان ، ١٩٨٥ .ص ٣٥ ،محمد بن هاشم ،المصدر السابق ،ص ٩١.

١٩٦) حسن صالح شهاب ،يافع في عهد سلطان آل عفيف ،ص ٥٠.

١٩٧) سالم بن حميد ،المصدر السابق ،ص ٢٦٣.

١٩٨) سالم بن حميد ،المصدر السابق ،ص ٢٦٤.

١٩٩) محمد بن هاشم ،المصدر السابق ،ص ٩٢ ؛ محمد باحنان ،المصدر السابق ،ص ٢١٣ .

٢٠٠) وذكر البكري أن عدد جيش (السلطان) عمر بن جعفر أربعة آلاف من الزيود وقبائل الكثيري ، ويبدو أن في ذلك مبالغة ، فمؤرخنا لم يخف نزعته اليافعية وأراد أن يصور لنا أن القوات اليافعية جاءت كمنقذ لأهل حضرموت من (الزيود) لهذا أخذنا روايته بحذر . ينظر: صلاح البكري ، في شرق اليمن ، ص٩٧ .

٢٠١) حسن صالح شهاب، يافع في عهد السلطان عفيف، ص ٥٠ ، صلاح البكري ، في جنوب الجزيرة العربية، ص ١٣٩- ١٤٠ . وأورد سنة الوفاة ١١١٩هـ / ١٧٠٧م .

٢٠٢) كان لبعض الأسر العلوية والمشايخ في حضرموت نفوذ على بعض القبائل الحضرمية ، وتعزز هذا النفوذ أثناء الفوضى القبلية التي شهدتها حضرموت قبيل وبعد سقوط السلطنة الكثيرية ..

٢٠٣) سالم بن حميد ، ص ٢٧٥ .

٢٠٤) نصر صالح بن سبعه ، المصدر السابق ، ص١٠٧ ، عبد الله أحمد الناخبي ، رحلة إلى يافع ، ص٧٠ .

٢٠٥)عبد الله محمد باحسن ، النفحات المسكية ،مخطوط ، و، ، وقد تصرفنا في تصحيح الأخطاء الإملائية من النص .

٢٠٦) أورد من حميد مقتطفات من الرسائل التي بعثها (السلطان) عمر بن جعفر إلى أعوانه يخبرهم فيها بتحركاته وما يتطلب من حيطة وحذر ، ولكن للأسف لم نجد نصاً كاملاً لهذه الرسائل ، كما أننا لم نعثر على نصوصها في مصدر آخر . ينظر : سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص٢٦٥ .

٢٠٧) سالم بن حميد ، المصدر السابق ، ص٢٢٦ .

٢٠٨) نفسه ، والصفحة نفسها .

٢٠٩) محمد بن هاشم ،المصدر السابق ،ص ٩٩

٢١٠) عبد الله أحمد الناخبي ،رحلة إلى يافع أو يافع في أدوار التاريخ ،ص ٥٦.

٢١١) محمد بن هاشم ،المصدر السابق ،ص ٩٧.

٢١٢) سالم بن حميد ،المصدر السابق ،ص ٢٧٧.

٢١٣) عبد الله أحمد الناخبي ،رحلة إلى يافع أو يافع في أدوار التاريخ ،ص ٨٩.

٢١٤)عبد الرحمن بن عبيد الله السقـاف ،إدام القوت ،مخطوط ،و ١٠٨ ؛ حسـام الدين محسن أبو طالب ،المصدر السابق، ص ٣١٦.

٢١٥) محمد القعيطي ،يافع صفحات من التاريخ اليمني ،ط١ ،مطبعة الآفاق ،صنعاء ،١٩٩٩م ،ص ١٦٦ ؛ صلاح البكري ،تاريخ حضرموت السياسي ،ص ١٠٩.

٢١٦) سالم بن حميد ،المصدر السابق ،ص ٢٧١.

٢١٧) سالم بن حميد ،المصدر السابق ،ص ٢٨٢- ٢٨٣.

٢١٨) المرجع نفسه ،ص ٢٨٠.

٢١٩) محمد بن هاشم ،المصدر السابق ،ص ٩٤.

٢٢٠) مكاتبات عبد الله علوي الحداد ،ج٢ ،من الرسالة التي كتبها للفقيه الصوفي عبد الرحمن عبد الله باعلي ،في رمضان ١١٢٠ هـ ،ص ٢٢٠

٢٢١) المصدر نفسه ،من الرسالة التي بعثها السيد احمد بن محمد باعلوي ،ص ٢٨٣.

٢٢٢) صلاح البكري ،في جنوب الجزيرة العربية ،ص ١٢٢.

٢٢٣) محمد بن هاشم ،المصدر السابق ،ص ١٠٢ ؛ محمد علي باحنان ،المصدر السابق ،ص ٢١٥.

٢٢٤)مكاتبات عبد الله علوي الحداد ،ج٢ . من الرسالة التي بعثها إلى السيد عمر بن عبد الرحمن العطاس المؤرخة في ١٧ ذي الحجة ١١٢٣ هـ /١٧١١م ،ص ٣٢٤.هناك العديد من رسائل الحداد التي تفيد في معرفة مدى السيطرة اليافعية . للمزيد ينظر : الرسالة التي يبعثها إلى الشيخ أحمد بن الحبشي مؤرخة ١٩ محرم ١١٢٨ هـ /١٧١٥م الجزء الأول، ص ٥١٤ ،و الرسالة التي بعثها إلى السيد عبد الرحمن بن عبد الله باعلوي،الجزء الثاني ،ص ٧٠. والرسالة التي بعثها إلى أبي بكر سالم الشمام،ج٢،ص٢٤٠ ،و رسالته إلى السلطان عمر بن جعفر سنة ١١٣٠ هـ،الجزء الثاني ،ص ٢٧٨. و الرسالة التي بعثها إلى محمد باخرمه سنة ١١٢٩ هـ / ١٧١٦م ،ج ١ ،ص ١٨١ ،والرسالة التي بعثها إلى السيد علي عبد الله العيدروس ،غير مؤرخة ،ج٢ ،ص ١٩٩.

٢٢٥) محمد بن هاشم ،المصدر السابق ،ص ١٠٢.

٢٢٦) المصدر السابق ،ص ٢٠٢.

٢٢٧) محمد علي باحنان ،المصدر السابق ،ص ٢١٦.

٢٢٨) حسام الدين محسن ابو طالب ،المصدر السابق و ص ٢٧٨ . و لم يكن ابو طالب مصيبا عندما استطرد و قال أن السلطان عمر بن جعفر استطاع استعادة سلطته بهذه القوات ،و انه عندما بحث عن أعذار لخروجهم فقد سلطته لأن ثباته من ثباتهم على حد زعمه.و ذكر البكري في رواية أخرى إن الإمام انتخب سنة ١١٢٩ هـ أربعمائة من أبطال قبيلة دهمه و جعل عليهم الأمير عمر بن جعفر فسار بهم إلى حضرموت و هجم على الشحر و أخذها بعد قتال دام أياماً ثم سار بهم الى حضرموت و أشعرهم أن ينظروا في عقبة وادي العين غربي حضرموت و لكنهم لم ينتظروا فانحدروا على قبيلة نهد مغرورين بقوتهم و مدفوعين بنشوة الانتصار على الشحر و لما علمت بهم قبيلة نهد تحدت و كمنت لهم و قتلوهم عن بكرة أبيهم .ينظر : صلاح البكري ،تاريخ حضرموت السياسي ،ص ١١٠.

٢٢٩) مكاتبات عبد الله علوي الحداد ،ج٢ ،ص ٢٠٤.

٢٣٠) نفسه و الصفحة نفسها .

٢٣١) مكاتبات عبد الله علوي الحداد ،ج ٢ ، من الرسالة التي بعثها لمحمد بن عبد الله بامخرم و المؤرخة في رمضان ١١٣٠ هـ / ١٧١٧م ،ص ٢٠٤

٢٣٢) محمد بن هاشم ،المصدر السابق ،ص ١٠٣.

٢٣٣) على الرغم من انتقاد الحداد أحيانا لسياسة السلطان عمر بن جعفر ،نجده في حصاره لتريم يحثه على الصمود و مما قال : ((وأما التفرق من غير أن تصيب المحارب شيئا ففيه سواد الوجه و قبح الأحدوثة)) محمد بن هاشم ،المصدر السابق ،ص ١٠٣.

٢٣٤) مكاتبات عبد الله علوي الحداد ،ج٢ ،من الرسالة التي بعثها إلى السلطان عمر بن جعفر الكثيري المؤرخة ١٨ شعبان ١١٣٠ هـ / ١٧١٧م ،ص ٢٧٣.

٢٣٥) مكاتبات عبد الله علوي الحداد ،ج٢ ،من الرسالة التي بعثها إلى الشيخ عبدالرحمن بن عبدالله باعلي، المؤرخة رمضان ١١٣١ هـ / ١٧١٨م ،ص ٢٣٦.

٢٣٦) مكاتبات عبد الله علوي الحداد ،ج٢ ،من الرسالة التي بعثها الى السلطان عمر بن جعفر ،ص ١٨٩ . وقد جاء في المصدر المطبوع بأنها مؤرخة سنة ١١٣٣ هـ و هذا خطأ مطبعي ذلك أن الشيخ عبدالله الحداد توفي سنة ١١٣٢ هـ و هو تاريخ الرسالة على الارجح .كانت هذه آخر الرسائل التي وجهها الحداد إلى السلطان عمر وذلك حسب تتبعنا للرسائل من هذا المصدر.

٢٣٧)سالم بن حميد ،المصدر السابق ،ص ٣٠٤ ؛ محمد بن الهاشم ،المصدر السابق ،ص ١٠٥ .و لم يحدد سنة وفاته.

٢٣٨) ذكر بن هاشم إن السلطان علي تولى بعد أخيه السلطان عمر بن جعفر . ينظر : تاريخ الدولة الكثيرية ،ص ١٠٦ ؛ أما بن حميد فلم يشر في حولياته الى هذا السلطان ،و يبدو إن أمر السلطنة خرج عن نطاق تعاقب فعلي للسلاطين إلى جهود فردية لناشطين من الأسرة الكثيرية الحاكمة لهذا لم تحدد المراجع التي و قفنا عليها بداية او نهاية لحكم هؤلاء (السلاطين) منذ وفاة السلطان بدر بن محمد المردوف سنة١١٢٠هـ/١٧٠٨م.

٢٣٩) صلاح البكري ،في جنوب الجزيرة العربية ،ص ١٣٩ ؛ محمد علي باحنان ،المصدر السابق ،ص ٢١٥.

٢٤٠) محمد بن هاشم ،المصدر السابق ،ص ١١٢ ؛ سعيد عوض باوزير ،صفحات من التاريخ الحضرمي ،ص١٧٢ .

٢٤١) غابت عن حضرموت في تلك الفترة مظاهر الوحدة السياسية لأكثر من قرن من الزمان ،و تعد أكثر فترات التاريخ الحضرمي الحديث غموضاً ،وما تزال بعيدة عن اهتمامات الباحثين المهتمين .

٢٤٢) عبد الله أحمد الناخبي ،رحلة الى يافع أو يافع في ادوار التاريخ ،ص ٩٠ ؛ محمد بن هاشم ،المصدر السابق،ص ١١٢ ،محمد أحمد الشاطري ،المصدر السابق ،ص ٤٠١

الملاحق

الملحق (١)

العهد الذي كتبه السلطان بدر بو طويرق إلى الشيخ عمر عبدالله باوزير[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

(سورة يونس ٦٢ - ٦٤)

أما بعد فليعلم الواقف على هذه الرقعة المحررة بأن سيدي ومولاي وملاذي وملجأي وعمادي الشيخ الأجل الفاضل الولي الكامل العالم العامل الشيخ عمر ابن الشيخ الفقيه عبدالله بن عبدالرحمن بن عبدالرحمن ابن الشيخ الكبير أبي بكر محمد بن سالم باوزير ، مجللاً ومكرماً ومحشماً ومعظماً ومجبراً[2] في جميع أملاكنا بحراً وبراً هو وأولاده وذريته من يومنا هذا إلى يوم الدين ، وليس عليهم عشر ولا زكاة ولا شيء من القوانين التي للديوان طالع ونازل من البحر والبر ، ولا يفرق بينهم الفارق ولا يحرسهم الحارس ، ولا يطوف عليهم الطائف ، بل مجبرين في جميع أملاكنا بحراً وبراً من كل ما هو للديوان من القوانين والقواعد المعتادة ، وكذلك لهم الشفع في كل من حبس في مصنعة هينن شفاعتهم غير مردودة ، ومن تعدى أو خالف جميع ما ذكر فلا يلوم إلا نفسه وينال إلا خسره ونجسه قال ذلك وأملاه وأقر به الفقير إلى الله .

بدر بن عبدالله بن جعفر الكثيري
والله الشاهد على ما أقول و الحسيب
توقيع الشهود

---

١) سعيد عوض باوزير ، صفحات من التاريخ الحضرمي ، ص ١٠٧

٢) مجبراً : أي معفياً من الضرائب .

الملحق (٢)

رسالة السيد عبدالله علوي الحداد إلى السلطان محمد بن بدر بن عمر الكثيري يحثه على إحداث تغييرات في سياسة السلطنة [١]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) ﴾ (سورة القصص ٦٩ – ٧٠) .

الحمد لله المتوحد في ملكه وأمره ، المنفرد في سلطانه وقهره المرجوة عواطف إحسانه وبره ، المخشية سطوات بطشه ومكره ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد الذي خصّه برفعة ذكره وأيده بعزه ونصره ، وعلى أهل بيته الذين خصهم بإذهاب الرجس عنهم ، وأكرمهم بطهره .

من عبدالله بن علوي الحداد إلى حضرة السلطان الأكرم الصدر الأفخم الذي لا يذهب به – إن شاء الله – أوائل الأمور عن النظر في غاياتها ، ولا تحجبه بدايات الأحوال عن استكشاف نهاياتها ، الجمال المنور محمد بن السلطان عمر عمّر الله باستقامته وحسن بصيرته أركان أمور رعيته ورفع قواعده وأنشأ ما اجتهد في بنائه ، ولمّ به ما تشعث من تلك الأحوال وجمع به ما تفرق من تلك الأمور .

اللهم أنت الولي اللطيف بعبادك ، لك اللطف الخفي والستر الجميل لا تغير ما بنا من نعمة ، ولا تجللنا ملابس النقمة ولا تخلنا طرفة عين من حسن نظرك بأواسع الرحمة .

أما بعد فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

نعلمكم أنا بخير داعون لكم .

وقد وصل إلينا كتابكم وحصل به الأنس وذكرتم وصول السادة وصلاح أمرهم .

ما زالت الأمور صالحة والقلوب سليمة والأحوال حسنة وهم يثنون عليكم بخير ، ويشكرون لكم حسن القيام ولطف المراعاة وأنتم أهل لذلك وهم أهله ، وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم تحتسبون ، والوالد أكرمه الله ذكرتم أنه عزم لقصد الحج وزيارة الرسول بلغه الله ذلك في عافية واستقامة وزيادة من كل خير وإيانا وإياكم آمين . ثم أعلم أيها الجمال الفطن : أن هذه الأمور التي حدثت وهذه السياسات التي تجددت لم يقبلها منّا قلب ولا عقل ، ولا حسنها لنا مقتضى دين

ولا ميل هوى وأن نرى في طيها – إن استمرت – الفضيحة والرزايا الشنيعة . ومن لم يصدق البلايا بالخبر فسوف يشاهد بالعيان . ورب صغير يلد كثيراً .

والنظر في أوائل الأمور لأواخرها ، وصف كل حازم ، وتلافي الصوادر بعد صدورها ، من غير قرب عسير ، وأنتم العين والأذن واللسان في سد ما انفتح من هذا الأمر وأنتم أعلم بالجهة وأهلها وما يدور عليه أحوال معايشهم وما فيه من الضنك وركاكة الحال .

وعليكم النصيحة البالغة ، والتعريف الكلي مقروناً بغاية الشفقة والتوجع والتألم لذلك ، وهذا من أفضل ما تتقربون إلى الله وتعدونه لآخرتكم التي إليها رجوعكم . وهذا يكون حالكم وشأنكم في هذا الأمر إن كنتم براءة من التسبب فيه كما شاع ذلك عنكم ، وكما هو الظن بكم .

وإن كنتم على خلاف ذلك فالله حسبكم وقد جلبتم إلى أنفسكم ورعيتكم ما لا يطيب العيش بعده ، ومع ذلك فالتلافي ممكن ، فإن العاقل لا يهمه الخلاص من الورطات ولا يؤده الانتعاش من السقطات والجواد قد يعثر والمستقيم قد يميل ، والراجع – المستقيم ، ولا يثقلن عليك هذا الكلام ولا يوحشك فإنه إن شاء الله كلام ناصح مشفق ، يتخوف عليكم وعلى المسلمين ما يؤول من هذه الأمور وما يتفرع عنها من الضرائر الدينية والدنيوية وأما نحن فانا منتظرون إشارة باطنة وعند حصولها نشمر في كشف هذه الأمور ، بكل ما نقدر عليه ونراجع فيه من تجدي مراجعته وربما أنا ننفد كتاباً إلى هذا القاصد نعرفه فيه بذلك إن كان إليه أمر يسعه معه التقديم والتأخير في أمثال هذه الأحوال وإلا فالعذر واسع والمطلع على السرائر هو الله ولكل امرئ ما نوى وكل نفس بما كتبت رهينة.

والدينا لم تصف لأحد ، ولم تبق لأحد والعامل بطاعة الله في كل ما ناله منها مشكور مأجور والمضيع لحق الله في ذلك مأثوم ومأزور وإلى الله ترجع الأمور .

إياك والعجلة والاستشاطة عند النظر في هذا الكتاب وتأمله وأنظر فيه بتأن وإنصاف تصب الحق إن شاء الله ولا زلت في خير وعلى خير ومع أهل الخير وفيهم مذكوراً محشوراً . وحسبنا الله ونعم الوكيل . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

---

(١) نرجح إن تاريخ هذه الرسالة يعود إلى سنة ١٠٧٢هـ / ١٦٦٢م وهي السنة التي غادر فيها السلطان بدر حضرموت لأداء فريضة الحج ، وكما ذكرنا فان عودته إلى سدة الحكم للمرة الثانية كانت ١٠٧٠هـ / ١٠٥٩م الى وفاته سنة ١٠٧٣هـ / ١٦٦٢م .

الملحق (٣)

نموذج من المراسلات بين السلطان بدر بن عبدالله الكثيري والإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم [١]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أرشدنا في كتابه العزيز إلى المودة لقرابة نبيه المجتبى إذ قال عزّ من قائل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى . نحمده حمد متواتر متكاثر على ما أولانا من الخيرات وخصنا به من الطاعات ونصلي ونسلم على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم القائل إنما الأعمال بالنيات ، وعلى آله وصحبه أولى الدرجات العليات ونستهديه من هدايته العظيمة ونفحاته الربانية الجسيمة ، حفظ الشريعة المحمدية وثبت مبانيها وأمن الأقطار الإسلامية وعمران معانيها (____) [كذا] من يلتمس مراضي الله وطاعاته في كل حركاته وسكناته ، حاوي جميع العلوم الدينية النافعة التي لكل خير جالبه ولكل شر دافعه من لم ينطق عن الهوى في سائد أقواله وأفعاله العالم بأمر الدين وحامل أثقاله سلالة النبي الطاهر الأمين مدار ملك العز والوفاء من السادة الاكرمين عقدهم المنتظم الثمين ظل الله في أرضه المخصوص بالباسه والتمكين موزج أهل طاعات الله غير مغير وداده وأمنه وإتحافه شامل الرعايا بفضل وعدله وإنصافه الإمام الأعظم المرشد للهدى مولانا أمير المؤمنين القاسم لا زالت جيوشه المنصورة وبركاته منشودة وأعماله مبرورة وأياديه بالعطاء موفورة وأفعاله مشكورة ولا زال الكون بنشر علومه عاطر ولا برح الزمان بوجوده طلق المخيأ أمير المؤمنين وأهدى إلى حضرته ساطعة الأنوار سلاماً ضاحك عظيم البركات والأسرار يغشى كل الحضرة العلية على استمرار الليل والنهار .

وبعد فالباعث على الكتاب هو الانقياد لله تعالى والانتماء لأمره إذ قال في محكم كتابه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ فعلمنا أن لا الحياة في الدين لمن لا يواليكم حيث أنتم عترة الرسول وأبناء فاطمة البتول ، علمنا ولله الحمد أن لكم علينا وعلى غيرنا وجوب الطاعة ولمن كان أطاعكم من الرأفة والرحمة والإرشاد إلى أعز

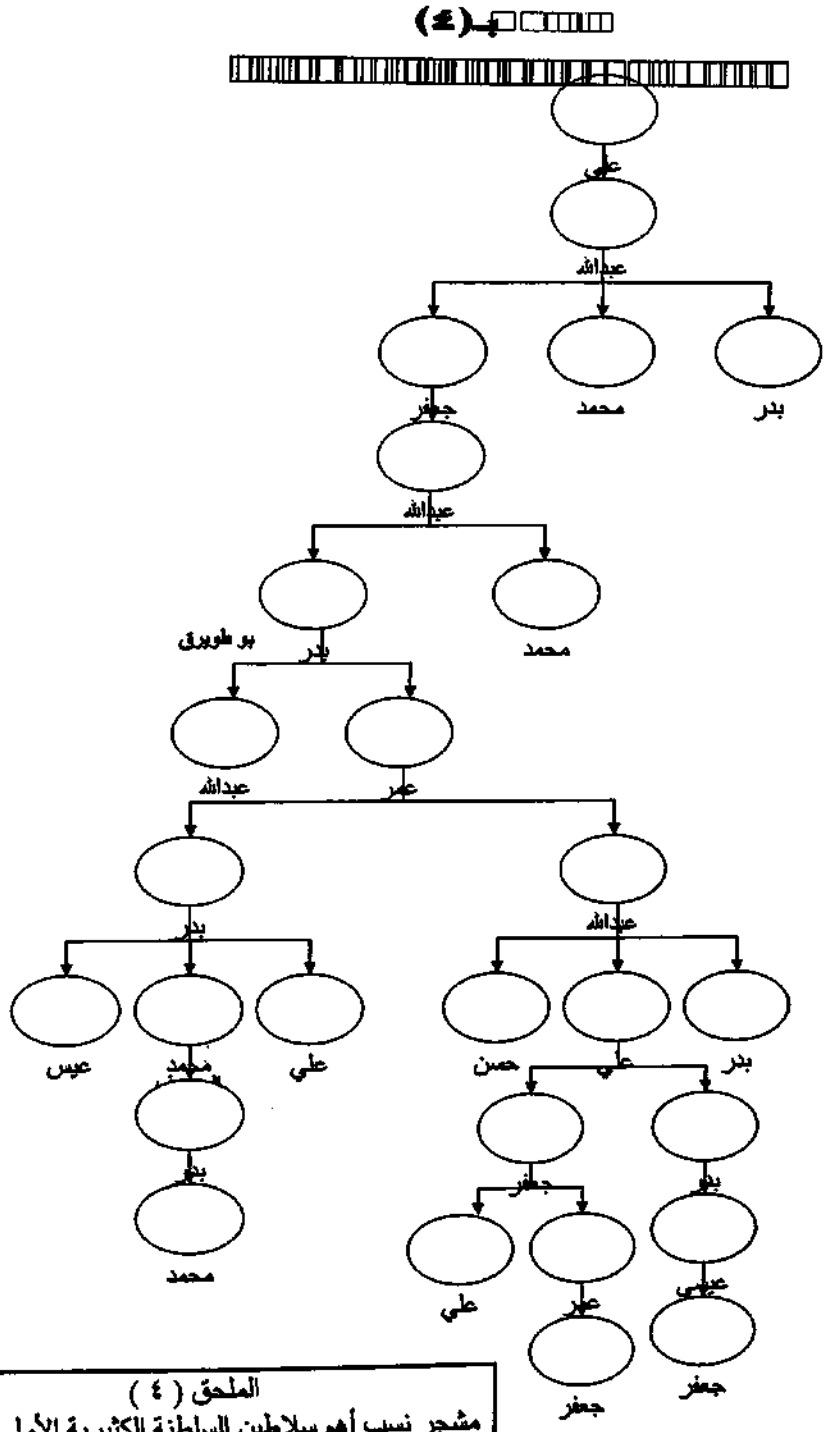
بضاعة ( ) ذي لب سمع كتاب الله أن يميل عنكم وقد قرع سمعه قول الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾ فأنتم أولى الأمر المهداه إلى الصراط المستقيم صراط الله العدل العزيز الحكيم . ونحن إنشاء الله على قدم الطاعة لم نبرح ما ترضوه منا ولم ننفك عن لزوم محبتكم التي يكون لنا بها الارتقاء كل مقام أسنى وكيف لا يلتزم طاعتكم أيها الأمام الأكبر وأنت الوارث لجدك المصطفى بالعلم والنسب الأطهر فمن أنفك رقبته طاعتك فقد أنغمر في أعمق بحار الخطر وعدم في الدنيا والآخر النصح والظفر ولسنا نجهل أن مصير من بغض أهل البيت المحمدي إلى سقر . فضمان حبكم الوسيلة العظمى إلى رضى الله الواحد الأكبر ، نسأله دوام ثبوت قلوبنا على الوداد والمحبة التامة الملازمة الاعتقاد وقد سبق منا إليكم كتاب من بندر الشحر المحروس بالله مع مضمونه نشر طاعتنا لكم على رؤوس الإشهاد وإظهار الانقياد لكم منا بين الحاضر والباد نرجو من الله وقوفكم على ذلك وانشراح صدوركم بما هنالك.

وإن سألت عن سائد أخبار الجهة فهي ببركاتكم شارحة والأحوال بلطف الله ثم بحسن نظركم صالحة . ونهي [كذا] إلى مسمعكم الشريف وملككم العالي المنيف . أنه وصل إلينا السيد الشريف المهذب الخلاخل الكامل الألمعي الأريب محب العصابة الإمامية المحمدية الأفاضل الأمير صالح بن حسين مطيع حماه شريعة سيد الفريقين وكان وصوله من لدن سيف الله الهاوي على أهل الضلالة المجتهد في تشييد مباني الحق وتخريب مباني البطالة مولانا صفي الدين أحمد بن مولانا الحسن وصحبته إلينا كتب مضمونها إن شاء الله تعالى صلاح جميع الأحوال ومن جملة ما تضمنته كنية الكريمة من سديد الأقوال تحريضنا له ما نحن لكم عليه من الطاعة التي لا يصفها واصف وعرفناه إنا لا مركم ونهيكم مطيعون ولا في شيء مما تروه نخالف ولا يخفاكم حفظكم الله تعالى إن كتابنا هذا أصحبناه السيد الماجد _____ ( ) الأمر المكرم المحترم صالح بن الحسين وعلى لسانه ما فيه الكفاية في جميع الأخبار لا نا لم نكتم عنه كما يعلم الله شيئاً من غوامض الأسرار فاستملوا منه يقابله بالتصديق وأصحبناه إلى جنابكم الرفيع ومحلكم المنيع من أعيان الجهة الحضرمية المعمورة ببركاتكم السيد الجليل الأريب الورع الكامل الحبيب المفطور لكم على المحبة والطاعة السيد الذي هو بالقبول منكم _____

أحمد بن عبدالله بن أحمد الجفري ثم صحبهما من المشايخ الإجلاء أعيان فقراء حضرموت المباركة الشيخ الأريب الأرشد الورع المهذب الأمجد المنطوي لكم على الهمة والاعتقاد الشيخ الأجل أحمد بن علي أحمد باعباد . وهما عندنا من ذوي الصدق والعدالة ومن الساعين في صلاح المسلمين في كل حالة وقد عرفنا هؤلاء المتوجهين إلى سوحكم الرحيب الواسع لكل ( ) اطرحوا معكم وظاهرها خاطبوهم ما شئتم لهم الخطاب واستملوا منهم بالجواب إن شاء الله سريع الجواب ومشيئة مسبب الأسباب ، وصحبك حفظك الله لم يزل كل على قدم طاعتك لك يمشي المشي المتابع ووظيفته لك الدعاء وإلينا عليك مما أنت أهله سيما على المنابر والجوامع . أبقى الله علينا هذه النعمة الجسيمة ، ولا سلبنا هذه الهيئة العظيمة المعتمدة ( ) نوراً كبيراً وأن يهب لنا به الأمن في ويوم كان شره مستطيراً وبلغنا حفظك ( ) وأبقاك للمسلمين أماما ، عن مولانا الليث الضرغام السيد الهمام عز الدين محمد بن مولانا شرف الدين الحسن وعن أخيه مولانا الأسد صفي الدين السيد المضخم أحمد حفظهما الله لنا استيلاء كم على بلاد يافع وامتلاككم لها ، وعرها وسهلها وحصونها الموانع وذلك بعد أن (صدهم حيوان) [كذا] لهداه إلى طاعة الرحمن وأريق من دمائهم صدا البواتر ( ) في حرب حزب الله من الأهوال في الساعة ، وقد زعموا قبل ذلك الهم من المنتصرين فصلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ولله الحمد على هذا الفتح الذي شفى صدور المؤمنين المحبين للعصابة الأمامية ونسأل الله أن يديمكم الفتوحات وأن يجر لكم المنوحات وأن يمتعنا بحبكم وأن يجعلنا من حزبكم أنه جواد كريم رؤوف رحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم أولاً وآخر وظاهراً وباطناً وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

---

(١) رغم حرص السلاطين والأئمة على كتابة تاريخ رسائلهم في هذه المرحلة إلا ان هذه الرسالة لم تكن مؤرخة ، ولكن من خلال سياق الأحداث والرد المؤرخ على هذه الرسالة من قبل الإمام اسماعيل يجعلنا نؤكد ان تاريخ هذه الرسالة يعود الى سنة ١٠٦٥هـ / ١٦٥٤م .



الملحق (٤)
مشجر نسب أهم سلاطين السلطنة الكثيرية الأولى وأمرائها

المصادر
و المراجع

أولاً : المصادر المخطوطة

أحمد بن محمد بن صلاح الشرفي

اللآلئ المضيئة في أخبار الأئمة الزيدية ، مخطوطة مسجلة على مكروفلم رقم (٣٤) المكتبة الوطنية عدن

بامخرمة ، الطيب بن عبدالله

قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر ، مخطوط ، مكتبة الأحقاف للمخطوطات بتريم ، مجموعة بن سهل ، رقم ٢١٥٨ .

عبدالرحمن بن عبيد الله السقاف

بضائع التابوت في تاريخ حضرموت ، مخطوط ، مكتبة ورثة المؤلف ، سيئون

عبدالرحمن بن عبيد الله السقاف

إدام القوت أو معجم بلدان حضرموت ، مخطوط ، مكتبة ورثة المؤلف ، سيئون .

عبدالرحمن بن محمد الخطيب

الجوهر الشفاف في ذكر فضائل ومناقب وكرامات السادة الأشراف من آل أبي علوي وغيرهم من الأولياء والصالحين والأكابر العراف من ساكني تريم ، مخطوط ، بطريقة شخصية .

عبدالله بن محمد باحسن

النفحات المسكية في تاريخ الشحر المحمية ، مخطوط ، مكتبة الأحقاف للمخطوطات بتريم ، مجموعة الكاف ، رقم ٢٢٠١ .

عيسى بن لطف الله بن المطهر

روح الروح في ما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتوح ، مخطوط ، دار صدام للمخطوطات ، بغداد ، رقم ١٠٧٦ .

محمد ابوبكر الشلي

عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر ، مخطوط ، مكتبة الأحقاف للمخطوطات بتريم ، مجموعة الكاف ، رقم ٢١٢٦ .

محمد أبوبكر الشلي

السناء الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر ، مخطوط ، مكتبة الأحقاف للمخطوطات ، مجموعة بن سهل رقم ٢١٥٨ .

مطهر بن محمد بن عبدالله الجرموزي

تحفة الأسماع والأبصار بما في السيرة المتوكلية من غرائب الأخبار ، مخطوط ، مكتبة الجامع الكبير ، صنعاء، رقم ٤١٢ .

ثانياً : المصادر المطبوعة المحققة وغير المحققة

ابن إياس ، محمد بن أحمد الحنفي

بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، ج (٤) ، ط (٢) ، ٩٠٦- ٩٢٠هـ/ ١٥٠١ – ١٥١٥ ، القاهرة ، ١٩٦٠م .

أحمد عبدالله شنبل

تاريخ حضرموت المعروف بتاريخ شنبل ، تحقيق عبدالله محمد الحبشي ، ط (١) ، ١٩٩٤ .

أحمد بن أحمد المطاع

تاريخ اليمن الإسلامي ٢٠٤ – ١٠٠٦هـ ، تحقيق عبدالله محمد الحبشي ، ط(١) ، دار التنوير للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٦ .

بامخرمة ، الطيب بن عبدالله

تاريخ ثغر عدن مع نخب من تواريخ ابن المجاور والجندي والأهدل، ط (٢)، مكتبة مدبولي، القاهرة ، ١٩٩١ .

تاج الدين عبدالباقي بن عبدالمجيد اليماني

تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن في تاريخ اليمن ، تحقيق مصطفى حجازي ، ط (٢) ، دار الكلمة ، صنعاء، ١٩٨٥ .

زين الدين المليباري

تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتكاليين ، المطبعة الوطنية ، لشبونة ، ١٨٩٨ .

حسام الدين محسن بن الحسن بن القاسم الملقب (أبوطالب) ،

تاريخ اليمن عمر الاستقلال عن الحكم العثماني الأول ، ١٠٥٦هـ - ١١٦٠هـ ، تحقيق عبدالله محمد الحبشي، ط(١) ، مطابع المفضل للأوفست ، تعز ، ١٩٩٠ .

حسين بن محمد الابريقي

الآداب المحققة في معتبرات البندقية ، تحقيق ودراسة عبدالله محيزر، بدون مكان طبع ، ١٩٨٨.

سالم بن محمد بن حميد الكندي

تاريخ حضرموت المسمى العدة المفيدة لتواريخ قديمة وحديثة ، تحقيق عبدالله محمد الحبشي ، ج (١) ، مكتبة الإرشاد ، صنعاء ، ١٩٩١م .

عبدالرحمن بن علي ابن الديبع

بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد ، تحقيق عبدالله محمد الحبشي ، مركز الدراسات والبحوث، صنعاء، ١٩٧٩م

عبدالرحمن بن علي ابن الديبع

الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار زبيد ، دراسة وتحقيق محمد عيسى صالحية، ط (١)، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع ، الكويت ، ١٩٨٢ .

عبدالرحمن بن محمد المشهور

شمس الظهيرة في نسب البيت من بني علوي ، تحقيق محمد ضياء شهاب ، ج(١- ٢) ، عالم المعرفة للنشر والتوزيع ، جدة ، ١٩٨٤م .

عبدالصمد بن اسماعيل الموزعي

الإحسان في دخول مملكة اليمن تحت ظل آل عثمان ، تحقيق عبدالله محمد الحبشي ، منشورات وزارة الأوقاف ، الجمهورية العربية اليمنية ، صنعاء ، بدون تاريخ .

عبدالقادر شيخ العيدروس

تاريخ النور السافر عن أخبار القرن العاشر ، بغداد ، ١٩٣٤م

عبدالله علي الوزير

تاريخ اليمن خلال القرن الحادي عشر البحري ١٠٤٥ – ١٠٩٠هـ / ١٦٣٥ – ١٦٨٠م المسمى طبق الحلوى وصحاف المن والسلوى ، تحقيق محمد عبدالرحيم جازم ، ط (١) ، مركز البحوث والدراسات ، صنعاء ، ١٩٨٥م .

علي حسن الخزرجي ،

العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ، الجزء (١- ٢) مطبعة الهلال بالفجالة ، مصر ، ١٩٦٤

قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي

البرق اليماني في الفتح العثماني ، ط (٢) ، دار التنوير للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٦ م .

محمد أبو بكر الشلي

المشرع الروي في مناقب السادة بن علوي ، ج(١- ٢) ، المطبعة الشرفية ، ١٣١٩هـ

محمد أمين المحبي

خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، دار صادر ، بيروت ، بدون تاريخ

محمد بن عمر الطيب بافقيه

تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر ، تحقيق عبدالله محمد الحبشي ،ط (١) ، مكتبة الإرشاد ، صنعاء ، ١٩٩٩م .

محمد علي خرد ،

غرر البهاء الضوي ، ط(١) ، مطابع المكتب المصري الحديث ، ١٤٠٥هـ

مكاتبات الإمام عبدالله بن علوي الحداد

طبع على نفقه حفيده السيد علي بن عيسى الحداد ، مطبعة عيسى الحلبي ، ١٩٧٩م .

الملك الأشرف عمر بن يوسف بن رسول ،

طرفه الأصحاب في معرفة الأنساب ، تحقيق سترسين ، منشورات المدينة ، بيروت ، ١٩٨٥م

نجم الدين عمارة بن علي اليمني

تاريخ اليمن المفيد في اخبار صنعاء وزبيد وشعراء ملوكها وأعيانها وأدبائها ، حققه وعلق عليه محمد بن علي الأكوع الحوالي ، ط(٢) ، مطبعة السعادة ، ١٩٧٦م .

نور الدين عبدالله بن حميد السالمي

تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ، قام بطبعه والتعليق عليه إبراهيم طفيش الجزائري ، ط(٢)، مطبعة الشباب، القاهرة ، ١٣٥٠هـ .

يحيى بن حسين ابن القاسم

غاية الأماني في أخبار القطر اليماني ، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٨

ثالثاً : المراجع العربية والمترجمة

أحمد صالح رابضه

معالم عدن التاريخية ، ط(١) ، دار الفكر المعاصر (بيروت) ، ١٩٩٩م

أحمد فضل بن علي العبدلي

هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن ، ط(١) دار العودة ، بيروت ، ١٩٨١م .

آر . بي. سارجنت

حول مصادر التاريخ الحضرمي ، ترجمة سعيد عبدالخير النوبان ، مطبعة جامعة الكويت ، بدون تاريخ

إف . إل . بلاي فير

تاريخ العربية السعيدة أو اليمن ، ترجمة سعيد عبدالخير النوبان وعلي محمد باحشوان ، ط(١) ، دار جامعة عدن للطباعة والنشر ، عدن ١٩٩٩م .

إيريك ماكرو

اليمن والغرب ١٥٧١ – ١٩٦٥م ، ترجمة حسين العمري ، ط(٢) ، دار الفكر العربي ، دمشق ، ١٩٨٧ .

جاد طه

سياسة بريطانيا في جنوب الجزيرة العربية ١٧٩٨ – ١٩٦٣م ، ط(٢)، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٦٩.

ج . ج . لوريمر

دليل الخليج – القسم التاريخي – ج(١) ، ترجمة مكتب أمير دولة قطر

جمال زكريا قاسم

تاريخ الخليج الحديث والمعاصر – الإمارات العربية في عصر التوسع الأوربي ١٥٠٧ – ١٨٤٠م ، المجلد الأول ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٩٦م

حسن صالح شهاب

أضواء على تاريخ اليمن البحري ، دار الفارابي ، بيروت ، ١٩٧٧م .

حسن صالح شهاب

البحار اليمني سليمان المهري مرشد الملاحة العربية في المحيط الهندي ، ط(١) ، مركز الشرعبي للطباعة والنشر ، صنعاء ، ٢٠٠٠م

حسن صالح شهاب

يافع في عهد سلطان آل عفيف وهرهره، ط(١)، مركز الشرعبي للطباعة والنشر ، صنعاء، ٢٠٠١م .

حسين عبدالله العمري

تاريخ اليمن الحديث والمعاصر (٩٢٢ – ١٣٣٦هـ / ١٥١٦ – ١٩١٨م) من المتوكل اسماعيل إلى المتوكل يحيى حميد الدين ، ط(١) ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٩٧م .

القاضي حسين بن أحمد العرشي

بلوغ المرام في شرح مسك الختام في من تولى ملك اليمن من ملك وإمام ، دار إحياء التراق العربي ، بدون تاريخ

حسين على الويسي

اليمن الكبرى ، مطبعة النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٢م

حمزة علي لقمان

تاريخ الجزر اليمنية ، مطبعة يوسف وفيليب الجميل ، بيروت ، ١٩٧٢ م .

حمزة علي لقمان

معارك حاسمة من تاريخ اليمن ، ط(١) ، مركز الدراسات اليمنية ، صنعاء ، ١٩٧٨م .

حمزة علي لقمان

تاريخ القبائل اليمنية ، ج(١) ، ط(١) ، دار الكلمة ، صنعاء ، ١٩٨٥م .

حياة البسام

الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم ٩٩٠ – ١٠٥٣هـ ، ط(١)، الدار العربية للنشر والتوزيع ، جدة ، ١٩٨٦م .

زين محمد القميطي

يافع صفحات من التاريخ اليمني ، ط(١) مطابع الآفاق ، صنعاء ، ١٩٩٩م

س . ب . مايلز

الخليج بلدانه وقبائله ، ترجمة محمد أمين عبدالله ، ط(٣) ، آمون للتجليد والطباعة ، القاهرة ، ١٩٨٦م .

سعيد عوض باوزير

معالم تاريخ الجزيرة العربية ، ط(١) ، دار الكاتب العربي ، مصر ١٩٥٤

سعيد عوض باوزير

صفحات من التاريخ الحضرمي ، مكتبة الثقافة ، عدن ، ١٩٥٧

سعيد عوض باوزير

الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي ، دار الطباعة الحديثة ، القاهرة ، ١٩٦١ م .

سلوى سعد سليمان الغالبي

الإمام المتوكل على الله اسماعيل بن القاسم ودوره في توحيد اليمن ١٠٥٤ – ١٠٨٧هـ / ١٦٤٤ – ١٦٧٦م ، ط(١) ، ١٩٩١ .

سيد مصطفى سالم

الفتح العثماني الأول لليمن ، ط(٣) ، معهد البحوث والدراسات العربية ، ١٩٧٨م

شوقي عبدالقوي عثمان

تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الاسلامية ، من سلسلة كتب شهرية يصدها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، رقم (١٥١) ، ١٩٩٠م

صالح الحامد

تاريخ حضرموت ، ج ١- ٢ ، ط(١) ، مكتبة الإرشاد ، جدة ، ١٩٦٨ .

صالح علي باصرة

دراسات في تاريخ حضرموت الحديث والمعاصر ، ط(١) ، دار المسيرة للنشر والتوزيع ، عمّان ، ٢٠٠١م .

صلاح البكري

تاريخ حضرموت السياسي ، ج ١- ٢ ، مطبعة مصطفى البابي ، القاهرة ، ١٩٣٦م .

صلاح البكري

في جنوب الجزيرة العربية ، ط(١) ، مطبعة مصطفى البابي ، القاهرة ، ١٩٤٩م

صلاح البكري

في شرق اليمن ، ط(١) ، دار الكشاف بيروت ، ١٩٥٥م

عبد العزيز محمد الشناوي

أوربا في مطلع العصور الحديثة ، ج(١) ، ط(٤) ، مكتبة الانجلومصرية ، ١٩٨٢م

عبدالقادر محمد الصبان

عبدالصمد باكثير شاعر حضرموت في القرن العاشر الهجري ، مطبوع بالآلة الكاتبة ، إصدار فرع المركز اليمني للأبحاث الثقافية والآثار والمتاحف ، م الخامسة ، المكلا ، ١٩٧٩م

عبدالقادر محمد الصبان

الفلاحون وعاداتهم المهنية مطبوع بالآلة الكاتبة ، سيئون ، ١٩٨٣ م

عبدالله أحمد الناخبي

رحلة إلى يافع أويافع في أدوار التاريخ ، ط(١) ، بدون مكان طبع ، ١٩٩٠م

عبدالله أحمد الناخبي

الكوكب اللامع في ما أهمل من تاريخ يافع ، ط(١) ، دار الأندلس الخضراء ، جدة ، ١٩٩٩م

عبدالله أحمد الناخبي

حضرموت فصول من الدول والأعلام والقبائل والأنساب أو شذور من مناجم الأحقاف ، ط(١) ، دار الأندلس الخضراء ، جدة ، ١٩٩٧م .

عبدالله أحمد الثور

هذه هي اليمن ، ط(٢) ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٩م .

عبدالله عبدالكريم الجرافي

المقتطف من تاريخ اليمن ، ط(٢) ، مؤسسة دار الكتاب الحديث ، بيروت ، ١٩٨٤ م .

عبدالله محمد باكثير

رحلة الأشواق القوية إلى موطن السادة العلوية، تعليق عبدالله محمد السقاف، مطبعة العلوم، ١٣٥٨هـ .

عبدالله محمد السقاف

تاريخ الشعراء الحضرميين ، ط(٣) ، مطابع جاد ، الرياض ، ١٤١٨هـ

عبدالله محمد الحبشي

مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن ، مركز الدراسات اليمنية ، صنعاء ، بدون تاريخ

علوي بن طاهر الحداد

الشامل في تاريخ حضرموت ومخاليفها ، سنغافورا ، ١٩٤٠

علوي بن طاهر الحداد

جني الشماريخ ، أجوبة أسئلة في التاريخ ، بدون مكان وتاريخ نشر

السيد علي صدر الدين المدني المعروف بابن معصوم ،

سلافه العصر في محاسن الشعراء بكل مصر ، ط(٢) ، مطابع علي بن علي ، الدولة ، ١٣٨٢هـ

السلطان غالب بن عوض القعيطي

تأملات عن تاريخ حضرموت قبل الإسلام وفي فجره مع مسح عام هجره ونتائج علاقات الحضارمة عبر الأزمنة شعوب شرق آسيا ، ط(١) ، مكتبة كنوز المعرفة ، جدة ، ١٩٩٦م .

ل . خ . براور (تعريب واختيار)

مقتطفات من الوثائق الهولندية المتعلقة بالتاريخ الاقتصادي لجنوب الجزيرة العربية .

فاروق عثمان أباظه

عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ١٨٣٩ – ١٩١٨م ، الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٨٧ .

فاروق عثمان أباظه

الحكم العثماني في اليمن ١٨٧٢ – ١٩١٨ م ، ط(٢) دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٩ .

كرامه مبارك سليمان بامومن

الفكر والمجتمع في حضرموت ، ط(١) ، بدون تاريخ ومكان نشر

محمد أحمد الشاطري

أدوار التاريخ الحضرمي ، ط(٢) ، عالم المعرفة ، جدة ، ١٩٨٣ .

محمد إسماعيل الكبسي

اللطائف السنية في أخبار الممالك اليمنية ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٩٨٤ .

مجموعة من المؤلفين

هولندا والعالم العربي منذ العربي منذ القرون الوسطى حتى القرن العشرين ، ترجمة أسعد جابر ، نشر بالتعاون مع وزارة الخارجية الهولندية ، لاهاي ، ١٩٨٧ .

محمد عبدالعال أحمد

البحر الأحمر والمحاولات الأولى للسيطرة عليه ، نصوص جديدة مستخلصة من مشاهدات المؤرخ بانخرمة ، الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٨٠ .

محمد عبدالعال أحمد

بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما ، دار المعرفة الجامعية ، القاهرة ، بدون تاريخ

محمد عبدالقادر بامطرف

المختصر في تاريخ حضرموت العام مطبوع بالآلة الكاتبة ، المكلا ، ١٩٧٣

محمد عبدالقادر بامطرف

الشهداء السبعة ، ط(٢) ، دار الهمداني للطباعة والنشر ، عدن ، ١٩٨٣ .

محمد عبدالقادر بامطرف

في سبيل الحكم ، ط(٢) ، دار الهمداني ، عدن ، ١٩٨٣

محمد عبدالقادر بامطرف

المعلم عبدالحق ، ط(٢) ، دار الهمداني ، عدن ، ١٩٨٣م .

محمد عبدالقادر بامطرف

تاريخ ما أهمله التاريخ لمحات من تاريخ جزيرة سقطرى ، ط(١) ، دار حضرموت للدراسات والنشر ، المكلا ، ٢٠٠١م .

محمد عبدالكريم عكاشة

قيام السلطنة القعيطية والتغلغل الاستعماري في حضرموت ، ط(١) ، دار ابن رشد للنشر ، عمّان ، ١٩٨٥ .

محمد عبداللطيف البحراوي

فتح العثمانيين عدن وانتقال التوازن الدولي من البر إلى البحر ، مكتبة دار التراث ، القاهرة ، بدون تاريخ .

محمد بن علي الشوكاني

البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، دار المعرفة للطباعة والنشر

محمد علي باحنان

جواهر تاريخ الأحقاف ، ج(٢) ، مطبعة الفجالة الجديدة ، ١٩٦٢ .

محمد بن عوض بافضل

صلة الأهل بتدوين ما تفرق في مناقب آل بافضل ، عني بطبعه ونشره ابن المؤلف علي بن محمد بافضل ، ط(١) ، ١٤٢٠ هـ

محمد عبدالكريم إبراهيم

عدن دراسة في أحوالها السياسة والاقتصادية ٤٧٦ – ٦٢٦ هـ / ١٠٨٣ – ١٢٢٨م ، مطبعة جامعة البصرة ، ١٩٨٥ .

محمد بن هاشم

تاريخ الدولة الكثيرية ، قام بالاشراف على طبعه محمد علي الجفري ، ١٩٤٨ م .

محمد يحيى الحداد

تاريخ اليمن السياسي ، ج(٢) ، ط(٤) ، دار التنوير للطباعة ، بيروت ، ١٩٨٦م .

محمود علي السالمي

محاولات توحيد اليمن بعد خروج العثمانين ١٠٤٥ – ١٠٩٧ هـ / ١٦٣٥ – ١٦٨٥ م ، ط(١) ، دار الثقافة العربية للنشر بالشارقة وجامعة عدن ، ٢٠٠١م .

نصر صالح حسين بن سبعه

من ينابيع تاريخنا اليمني وأشعار الشيخ راجح هيثم بن سبعه ، ط(٣) مطبعة الكاتب العربي، دمشق ١٩٩٤م .

نوال حمزة الصيرفي

النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي ، مطابع دار الهلال للأوفست ، الرياض ، ١٩٨٣ .

رابعاً : البحوث المنشورة في الدوريات

أحمد أبو شرب

مساهمة الوثائق البرتغالية في كتابة الغزو البرتغالي لسواحل المغرب والبحر الأحمر والخليج العربي وما تولد عنه من ردود فعل ، مجلة المناهل ، العدد (٢٦) السنة (١٠) مارس ١٩٨٣م .

صالح رمضان محمد

الصراع البرتغالي في اليمن ١٥١٧ – ١٥٣٨م ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية العدد (٤٧) السنة (١٢) يوليو ١٩٨٦م .

صالح محمد العابد

تحرير ساحل عمان وانهيار الإمبراطورية البرتغالية في الشرق ، مجلد آفاق عربية ، العدد (٣) السنة (١٠) آذار ١٩٨٥ .

طارق نافع الحمداني

عدن بين مطامع البرتغاليين ومطامح العثمانيين خلال النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي ، مجلة دارسة الخليج والجزيرة العربية ، العدد (٤٢) السنة (١١) أبريل ١٩٨٥م .

عبدالعزيز جعفر بن عقيل

تاريخ حضرموت في العصور الوسيطة المبكرة والقضايا المتعلقة بتاريخ هذه الفترة ، مجلة الثقافة ، العدد (٣٠) السنة(٥) ، فبراير مارس ١٩٩٧م .

عبدالعزيز محمد عوض

الاحتلال البرتغالي لموانى الجزيرة العربية ، مجلة المؤرخ العربي ، العدد (٢٩) السنة (١٢) ١٩٨٦م .

عبدالوهاب القيسي

موقف العثمانيين من الغزو البرتغالي للمياه العربية ، مجلة الخليج العربي ، مجلة الخليج العربي ، تصدر عن مركز دراسات الخليج العربي ، جامعة البصرة ، المجلد (١٢) ، ١٩٨٠ .

محمد عيسى صالحية

التدخل العثماني في اليمن ، مجلة دراسات الخليج الجزيرة العربية السنة(٦) العدد (٢٤) أكتوبر ١٩٨٠ ،

خامساً : الرسائل العلمية

نايف محمد حسن الأحبابي

الموقف العربي والإقليمي من الهيمنة البرتغالية في الخليج العربي ، رسالة ماجستير ، جامعة بغداد ، كلية الآداب ، ١٩٨٨ .

سادساً : الكتب الأجنبية

L.O.Schuman ,

Political History of the Yemen at the Beginning of ١٦ Century , Abu Makhram's Account of the year (٩٠٦-٩٢٧/١٥٠٠-١٥٢١)A.D with a notation's.

R.B. Serjeant ,

the Portuguese off the South Arabian Coast , Beirut , ١٩٧١ .

سابعاً : المعارف العلمية

ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج(٢) ، دار صادر ، بيروت ١٩٥٦ .

إبراهيم أحمد المقحفي ، معجم المدن والقبائل اليمنية ، ط(٢) ، دار الكلمة ، صنعاء ، ١٩٨٥ .

المحتويات

الموضوع الصفحة

السلطنة الكثيرية الأولى في حضرموت

المقدمة ٧

نطاق البحث وتحليل المصادر ٩

تمهيد جغرافي وتاريخي

مدخل لجغرافية حضرموت وسكانها .....

لمحة عن التطورات السياسية في حضرموت منذ القرن الثالث الهجري وعلاقتها بالدول الرئيسية في اليمن ١٩

الفصل الأول

قيام السلطنة الكثيرية وعلاقتها الداخلية

٨١٤-٩٢٠هـ / ١٤١١-١٥١٤م

أولاً : البدايات الأولى لآل كثير في حضرموت

نشوء آل كثير وجهودهم السياسية المبكرة ٣٠

علاقة آل كثير بالقوى المحلية حتى قيام السلطنة ٣٣

ثانياً : قيام السلطنة الكثيرية

دور السلطان علي بن عمر في قيام السلطنة ٣٧

خلفاء السلطان علي بن عمر ٤٠

ثالثاً : علاقة السلطنة الكثيرية بالقوى المحلية في حضرموت

صراع السلطنة الكثيرية في السواحل الحضرمية ومواقف الدولتين الرسولية والطاهرية إزائه ٤٥

صراع السلطنتين الكثيرية واليمانية في حضرموت الداخل ومواقف القوى المحلية الأخرى إزائه ٥٢

الفصل الثاني

جهود السلطان بدر بو طويرق في توطيد السلطنة الكثيرية وتوسيعها

٩٢٠- ٩٧٥هـ / ١٥١٤- ١٥٦٧م

أولاً : بروز السلطان بدر بوطويرق والصراع الأسري الكثيري

وصول السلطان بدر إلى سدة الحكم ٧٢

الصراع السياسي بين السلطان بدر وأخيه محمد ٧٦

صراع السلطان بدر مع الأمراء الكثيريين في شبام ٨٥

ثانياً : حروب السلطان بدر مع القوى المحلية المناوئة

صراع السلطنة الكثيرية مع قبيلة نهد ٨٩

صراع السلطنة الكثيرية مع الشيخ العمودي في دوعن ٩٣

محاولات توسيع السلطنة في منطقة المهرة ٩٩

ثالثاً : سياسة السلطان بدر وأبرز إصلاحاته

سياسة السلطان بدر الداخلية والخارجية ١٠٢

أبرز إصلاحات السلطان بدر ١٠٨

الفصل الثالث

حضرموت والتدخل الأجنبي

أولاً : علاقة السلطنة الكثيرية بالبرتغاليين

الغزو البرتغالي على السواحل العربية وموقف المماليك والطاهريين إزائه ١٢٢

موقف السلطنة الكثيرية من الاعتداءات البرتغالية على عدن ١٢٧

الحملة البرتغالية على مدينة الشحر ١٢٩

ثانياً : علاقة السلطنة الكثيرية بالعثمانيين..... ١٣٨

الفصل الرابع

ضعف السلطنة الكثيرية وانهيارها

أولاً : خلفاء السلطان بوطويرق ومحاولات تثبيت السلطنة وتوطيدها ١٦٠

ثانياً : استفحال الصراع الأسري الكثيري وتدخل الدولة القاسمية في حضرموت ١٦٧

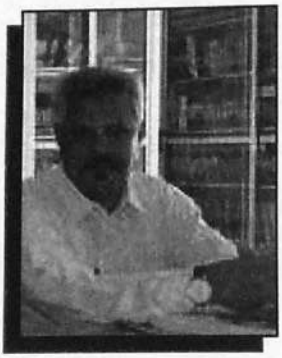
ثالثاً : انتشار الفوضى السياسية وسيطرة القبائل اليافعية على حضرموت ١٨٣

الخاتمـــة ١٩٧

الملاحـــق ٢١١

المصادر والمراجع ٢١٩

المؤلف في سطور



- أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر - كلية الآداب جامعة حضرموت .
- عضو مجلس جامعة حضرموت .
- عضو لجنة الجودة والاعتماد الأكاديمي
- عضو جمعية أصدقاء المؤرخ سعيد عوض باوزير الثقافية

مستشار المجلات الآتية:

- مجلة الفكر (تصدر عن جمعية أصدقاء المؤرخ سعيد باوزير).
- مجلة المكلا (تصدر عن مكتب وزارة الثقافة / محافظة حضرموت) .

صدر له :

- الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية في حضرموت ١٩١٨ -١٩٤٥ م الطبعة الأولى -٢٠٠١ م، الطبعة الثانية -٢٠١٠ م.
- القائم عبدالله بن عوض مخارش وأضواء على الأرشيف الإداري للسلطنة القعيطية -٢٠١١م
- أوراق مكلاوية.٢٠١١ م .
- السلطنة الكثيرية الأولى في حضرموت ١٤١١ -١٧٣٠ م (هذا الكتاب) .

المؤلفات تحت الطبع :

- في رحاب تاريخ حضرموت (دراسات وأبحاث وقراءات)
- عابر سبيل .

المشاركة في إعداد وتقديم الكتب الآتية:

- الرحلة السلطانية إلى دوعن -٢٠٠٦ م.
- الجمعيات والهيئات العربية في اندونيسيا ٢٠٠٧ م .
- كتاب: أبحاث ودراسات فعاليات ملتقى تريم الثقافي بمناسبة مدينة تريم عاصمة الثقافة الإسلامية -٢٠١٠ م.
- أخبار حضرموت التاريخية في مجلة الرابطة العربية٢٠١٢ م .
- مظان اليمن في مجلة الرابطة العربية.٢٠١٢ م .
- كتاب:الطليعة تقول: سلسلة افتتاحيات صحيفة الطليعة الحضرمية ١٩٥٩ -١٩٦٧م (٢٠١٣م).

د. عبدالله سعيد الرجعيدي

السلطنة الكثيرية الأولى في حضرموت



هذا الكتاب

لم يكن ظهور السلطنة الكثيرية حدثاً غريباً على صعيد التاريخ المحلي لمنطقة حضرموت، فقد سبق قيامها ظهور عدد من الكيانات السياسية الصغيرة المستقلة في أهم المدن الحضرمية كالشحر، وتريم، وشبام، وهي كيانات كانت أقرب ما تكون إلى دويلات المدن ولكنها كانت ضرورية في التطور السياسي لحقتها محاولات فاشلة لتوحيد حضرموت من قبل قوى حضرمية كقبيلة نهد وسلطنة آل اليماني في تريم. وتكمن الأهمية التاريخية للسلطنة الكثيرية في أنها تمكنت من توحيد أجزاء واسعة من حضرموت تحت سلطة واحدة ، كما ربطت مناطق الساحل الحضرمي بداخله ، وكان واقع حضرموت السياسي في معظم مراحله التاريخية هو واقع التجزئة القبلية والحروب.وكان طبيعياً أن تركز هذه الدراسة على الجانب السياسي بوصفه الركيزة التي يستوجب استيفاؤها قبل دراسة النواحي الاقتصادية والاجتماعية رغم أهميتها، فضلاً عن أن السلطنة الكثيرية لم يفرد لها على حد علمنا دراسة علمية مستقلة وإنما يرد الحديث عنها في ثنايا استعراض المؤلفات لتاريخ المنطقة العام ، لهذا ظلت نواحٍ عديدة من تاريخ حضرموت الحديث بحاجة إلى مزيد من الإثراء والتمحيص. وتأمل هذه الدراسة المساهمة في توضيح حقائق ووقائع تعد شبه مجهولة في تاريخ حضرموت، ومن جانب آخر تأمل في توجيه أنظار الباحثين إلى دارسة النواحي الاجتماعية والاقتصادية والحضارية من تاريخها.

تريم للدراسات والنشر
تريم - حضرموت - الجمهورية اليمنية
ت: 736006730 - 418888
www.traeemcenter.org

توزيع
المكتبة الحضرمية
تريم - حضرموت - الجمهورية اليمنية
ت: 777909919
Email: admin@tareemcenter.org

تريم للدراسات والنشر